



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الإخوة منتوري - قسنطينة

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية



جامعة الأخوة منتوري قسنطينة
UNIVERSITÉ DES FRÈRES
MENTOURI CONSTANTINE

رقم التسجيل: 100/D3C/2022

الرقم التسلسلي: 02/Ar/2022

صراع الهويات في كتابات مليكة مقدم

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الطور الثالث "ل. م. د" في الأدب المقارن والعالمي

إشراف الأستاذ الدكتور:

رشيد قريبع

إعداد الطالبة:

سارة بولكعبيات

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
الخامسة علاوي	أستاذة التعليم العالي	جامعة الإخوة منتوري قسنطينة	رئيسا
رشيد قريبع	أستاذ التعليم العالي	جامعة الإخوة منتوري قسنطينة	مشرفا ومقررا
عائشة عبيد	أستاذة محاضرة أ-	جامعة الإخوة منتوري قسنطينة	عضوا مناقشا
ليلي تحري	أستاذة محاضرة أ-	جامعة الشاذلي بن جديد الطارف	عضوا مناقشا
نسيمة يعقوبي بوزيدي	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة	عضوا مناقشا
مريم بوزردة	أستاذ محاضر أ-	المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1443/1444 هـ الموافق لـ 2022/2023 م



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الإخوة منتوري - قسنطينة

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية



جامعة الأخوة منتوري قسنطينة
UNIVERSITÉ DES FRÈRES
MENTOURI CONSTANTINE

رقم التسجيل:

الرقم التسلسلي:

صراع الهويات في كتابات مليكة مقدم

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الطور الثالث "ل. م. د" في الأدب المقارن والعالمي

إشراف الأستاذ الدكتور:

رشيد قريع

إعداد الطالبة:

سارة بولكعبيات

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
الخامسة علاوي	أستاذة التعليم العالي	جامعة الإخوة منتوري قسنطينة	رئيسا
رشيد قريع	أستاذ التعليم العالي	جامعة الإخوة منتوري قسنطينة	مشرفا ومقررا
عائشة عبيد	أستاذة محاضرة أ-	جامعة الإخوة منتوري قسنطينة	عضوا مناقشا
ليلى تحري	أستاذة محاضرة أ-	جامعة الشاذلي بن جديد الطارف	عضوا مناقشا
نسيمة يعقوبي بوزيدي	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة	عضوا مناقشا
مريم بوزردة	أستاذ محاضر أ-	المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1443/1444 هـ الموافق لـ 2022/2023 م



شكر وتقدير

الشكر لله الذي وفقنا وأعاننا والحمد لله الذي يسر لنا أمورنا

سبحانه ونعم المرشد والمعين

أتقدم بخالص الشكر والتقدير والعرفان إلى أستاذي المشرف الدكتور "رشيد قريع" الذي

تحمل مشقة الإشراف على هذا البحث، فأنفق الكثير من وقته ليواكبه من بدايته إلى نهايته

بخلق نبيل، وتوجيه رصين وتعامل معرفي عميق، فإليه عميق شكري وخالص امتناني.

وأخص بالشكر الأستاذة الدكتورة الرائعة "وافية بن مسعود" التي احتضنت دفعتنا بكل محبة

وإخلاص وكانت تقف عند أدق التوجيهات في تكويننا فلها منا كل الشكر والتقدير،

والشكر موصول أيضا إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء اللجنة المناقشة الذين وافقوا على

مناقشة هذه الأطروحة واغنائها بملاحظاتهم وتوجيهاتهم القيمة.

كما لا يفوتني أن أتوجه بالشكر والعرفان لكل من علمني حرفا وكل من دعمني ولو بكلمة

طيبة.

إهداء

إلى عزي وفخري وسندي وقدوتي والديّ تقديرا

واعترافا

إلى زوجي توأم روحي محبة ووفاء

إلى سندي وحيي إخوتي

إلى سعادتني وفرحتي في الحياة أبنائي

أهدي هذا العمل

في القرية يقولون لي مكانك ليس هنا !

في المدينة يقولون لي مكانك ليس هنا !

في الوطن يقولون لي مكانك ليس هنا !

وفي المنفى يقولون لي مكانك ليس هنا !

أين مكاني إذاً ؟ في الفضاء!!

في مرحلة الفطام، وأنا أحبو باكياً، وراء أمي المنصرفه عني، وراء الكنس والمسح

ونفض الغبار، كنت آكل كل ما تطوله أظافري الغضة من تراب العتبة والشارع

وفسحة الدار . ويبدو أنني أكلت حصتي من الوطن .. منذ ذلك الحين !

- محمد الماغوط

محتويات المذكرة:

Erreur ! Signet non défini.	مقدمة:
11	فصل تمهيدي: صراع الهوية في الكتابة النسائية
13.....	1- الهوية وتحليلات الذات :
21.....	2- مكونات الهوية:
35.....	3-الكتابة السردية النسوية وفعل الكينونة:
49.....	الفصل الأول: الهوية السردية لكتابات مليكة مقدم
50.....	أولا: بالسيرة الذاتية وتكشف الذات عند مليكة مقدم
74.....	ثانيا:حفريات الذات عند مليكة مقدم
86.....	ثالثا:تحليلات المكان والزمان في كتابات مليكة مقدم
104.....	رابعا:تعدد الهويات في كتابات مليكة مقدم
118.....	خامسا:الأخر في كتابات مليكة مقدم
132	الفصل الثاني: الهوية اللغوية وتحليلاتها عند مليكة مقدم
133.....	أولا: تحليلات الإغتراب في كتابات مليكة مقدم:
.....	ثانيا: سلطة اللغة وهيمنة الانتماء 141.....
160.....	ثالثا: التهجين اللغوي والثقافي في كتابات مليكة مقدم
174174.....	رابعا: التناص والنصبة في كتابات مقدم
193.....	خامسا: اللغة والجسد في كتابات مليكة مقدم
209	الفصل الثالث: الثنائيات الكونية في خطاب الهوية بين المقدس والمدنس
211.....	أولا: ثنائية الدين والإلحاد في كتابات مليكة مقدم
226.....	ثانيا: ثنائية المرأة والرجل في كتابات مليكة مقدم
239.....	ثالثا: ثنائية المركز والهامش في كتابات مليكة مقدم
255.....	رابعا: ثنائية الأصالة والمعاصرة في كتابات مليكة مقدم
267.....	خامسا: ثنائية الحرية والهيمنة في كتابات مليكة مقدم
281.....	الخاتمة

مقدمة

يعد سؤال الهوية أحد أهم الإشكالات التي طرحتها الحداثة وما بعدها، لما خلفته الحروب البشرية من تشتت، ولحاجة الإنسان للانتماء وإلى اكتساب هوية تحدد كيانه بعد أن اضطهد وُعومل كآلة مفرغة من الروح مجردة من الهوية. و تعدى الأمر ذلك فعد الإنسان حيوانا، داخل الدول التي عانت من ويلات الاستعمار، كي يسهل ترويضه، لذلك كانت الحاجة للبحث عن هويته الضائعة، ورفع التحديات الثقافية لتتخلص من التشوهات التي طالت بنيته العميقة ، ولأن صراع الهوية لم يرتبط بالدولة التي عانت الاستعمار فقط ، فحتى الزنوج والنساء جردوا من أبسط الحقوق، إذ كان الأقوى يضع قوانينه بما يناسبه، ليضمن استمرار سلطته ، لتكون المرأة هي التابعة والخاضعة والمستلبة، بل وتجاوز الأمر لتكون المدنس، فما كان لشهرزاد إلا أن تواجه مصيرها من خلال الحكيم، فكان سبيلها للحفاظ على وجودها، ومقاومة السلطة الذكورية ، ومحاولة تغيير أقدارهن، من كائنات خلقت لرفاهية الرجال، إلى مشاركات في صنع وكتابة التاريخ، لتظهر الحركة النسوية متزامنة مع الحركة التاريخية، للفكر والأدب في سياق سلسلة ألما بعد، ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية ،وما بعد الكولونيالية ، مرافقة حركات التحرر في العالم، فكان السرد النسوي ولا يزال جزءا لا يتجزأ من الكفاح، ضد الظلم والاضطهاد والتعنيف الممارس على النساء في العالم ، ليفرض خطابا مضادا للخطاب الذكوري، في محاولة لتحويل الكلمات إلى شظايا تحرق الفواصل والحواجز الوهمية التي أحرسها لدهر من الزمن، فكانت اللغة والزمن وسيلتهن في ذلك، ليعبرن عن هويتهم من خلال السرد فينتقلن من سرد الهوية إلى هوية السرد ،لتفرض سلطة السرد نفسها فتتشكل هوية جديدة بعد الاستغراق في الحكيم، وتخلق تاريخا جمعيا مشتركا، يحل محل التاريخ الفعلي ولذلك يجب قراءة النصوص في ظل الأيديولوجيات التي نشأت فيها، أين ستجينا نصوص مليكة مقدم عن علاقة الإنسان بماضيه وطفولته بالمنظومة التي نشأ فيها والمجتمع الذي يعيش فيه ، وهو ما عاشته مليكة مقدم بين بلدين مختلفين أشد

الاختلاف (فرنسا، الجزائر) لكن أهم شيء نستشفه في كتاباتها هو ذلك الغموض في التمظهر الهوياتي لأننا نشعر أن هنالك صراعين مجموعة من الهويات التي يتغلب بعضها على بعض بالتناوب.

فكان الدافع وراء اختيارنا لهذه الكاتبة دون غيرها ، لأنها تعيش صراع هوياتي بسبب تشظي الذات، بين لغة ليست لغتها إلا أنها لا تتقن غيرها، وبلد يسكنها وآخر تسكنه، بين روحها القوية وجسدها الأنثوي الضعيف، وصراعها بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، المقدس والمدنس، من خلال آليات وتقنيات مختلفة في الكتابة فهي تستعين في كتاباتها بحياتها الشخصية التي راحت تدمجها مع الخيال في كتابات سردية متنوعة فمثلا: مؤلفها (رجالي) حيث يعد العنوان في حد ذاته تمردا وشجاعة لتغازل المرأة الرجال الذين مروا بحياتها دون خوف أو قيد على المألأ بدأ بأبيها الذي تهديه الكتاب الذي لن يقرأه يوما، لتصرح عن دوافعها للكتابة في مؤلف آخر بعنوان (التمردة) في تساؤلها إن كانت تلك عادة المغترين، أو مرضى الأرق او عند حكاية القصص والحكايات ؟ هل خوفا من الضياع؟ هل من أجل تنويم تهديدات المجهول؟ وهل هي طريقة في التواجد على الرغم من كل شيء؟ كل هذه التساؤلات هي إجابة صريحة لما يدفعها للكتابة من شعور بالقلق وشعور بالضياع، اثبات وجودها وهويتها؟ في غربتها، غربة الوطن وغربة الذات أين عاشت مقدم حياتين مختلفتين، حياة في بيئة صحراوية بسيطة حيث ولدت بالقنيطرة بولاية بشار وحياة أخرى أكثر تطورا حيث درست الطب بهران لتستقر بالعيش في فرنسا، ما شكل شخصيتها من شقين: القبلي والعشائري والعادات والتقاليد المتحجرة، وشق مفعم بالتوهج الحضاري، ورحيق الديمقراطية الأوروبية وتجلى كل ذلك في كتاباتها ونصوصها التي سندرسها وسنبين من خلالها عديد المواقف، التي ميزتها عن غيرها من الكاتبات اللاتي توسمنا التعبير الفرنسي والخط الفرنسي في إبداعهن، لقد تلمسنا في نصوصها حسا أنثويا متميزا، وبدت في أغلب كتاباتها، ميالة إلى السرد الذاتي أو الكتابة السيرة ذاتية مستخدمة تقنية الميتاكتابة (meta writing) أي تقنية الكتابة عن الكتابة وذلك من خلال إبداء أهمية الكتابة في حياتها وكيف أنها بديل لذلك الكائن الذكوري الذي يسهل تعويضه مع التحلي عن عديد التقنيات التقليدية في سرورة

تمردتها على الأنماط التقليدية التي وضعها الآخر كنوع من المقاومة معتمدة في نتاجها الأدبي على تجاربها الحياتية وخبراتها، محاولة انكساراتها إلى بطولات من خلال أساليب وتقنيات فنية عديدة تحقق لها تجاوز حدود الجنس الأدبي الواحد إلى جنس أدبي هجين "hybrid" أو ما يسمى "باللاجنس" كما تستخدم أسلوب المذكرات أو اليوميات و الرسائل، وتوظيف أسلوب الاسترجاع لكسر أفقية السرد مع استخدام تقنية التناص مؤكدة من خلال ذلك سعة فكرها، من خلال مقابلة الماضي بالحاضر في سرد تفاصيل حياتها المختلفة، كل ذلك دفعنا إلى اختيار موضوع للبحث يتعلق بهذه الكاتبة في محاولة أن نستشف العلاقة التي تربط أديها بتقويض المركزية، وأزمة الإنسان المعاصر. ووسمناه ب: صراع الهويات في كتابات مليكة مقدم.

وقد بدا لنا أن العنوان يفرض إشكالية أساسية تمثلت حول طبيعة التمثلهوياتي عند مليكة مقدم؟، وكيف تجلى الصراع بين مختلف الهويات التي نجدها في نصوص مليكة مقدم؟ ما جعلنا نفصل أسئلة فرعية تخص كل فصل، لتحديد التمثلهوياتي عند الكاتبة تمثل كالاتي:

- ما هي الأسباب التي وجهت مليكة مقدم إلى الكتابة عن سيرتها؟
 - ماهي أبرز تجليات أثر السيرة الذاتية على الناحية الفنية لمؤلفاتها؟
 - ماهي مجالات التمرد التي ركزت عليها في نصوصها مثل: (قرن الجراد)؟ (المنوعة)؟ (ليلة السحلية)؟ (نزيد)؟(المتردة)؟ (رجالي)؟ (أدين بكل شيء للنسيان)؟.
 - ما هي وظيفة اللغة الفرنسية في تشكيل هوية مقدم السردية؟
 - ما هي أساليب مقدم في تقويض المركزية؟
- ولإجابة عن التساؤلات السابقة ارتأينا اعتماد الخطة التي تفرض نفسها وهي:

فصل تمهيدي يوضح المرجعيات التأسيسية المعرفية لسؤال الهوية المعنون ب: صراع الهوية والكتابة النسوية والذي يضم العناوين الفرعية التالية: الهوية وتحليلات الذات، أين يتم تعريف الهوية وعلاقتها بالذات والجوهر وكيف تشكل هذا المصطلح، لينتقل من الفرد إلى الجماعة، لنحدد بعد ذلك مكونات الهوية، والتي تقودنا إلى نفرد بالكتابة السردية النسوية وقلق الهوية.

ثم انتقلنا إلى الفصل الأول الذي اختص بدراسة **الهوية السردية لكتابات مليكة مقدم**، حيث اشتغلنا على الهوية السردية لان هناك علاقة بين ما تكتبه وحياتها الخاصة فهي تكشف عن سر هذه الحياة من خلال علاقتها بالأدب أين تم وضع خمس مباحث أساسية بدءاً بالسير الذاتية وتكشف الذات عند مليكة مقدم، مقدم التي راحت تسرد تمزقاتها وتمرداتها بأشكال مختلفة ويقودنا هذا العنوان إلى عنوان آخر حيث أن مقدم قررت الخوض في خفايا حياتها قمنا بالبحث في حفريات الذات عندها، ثم تطرقنا بعد ذلك إلى تحليلات المكان والزمان في كتاباتها، ثم درسنا تعدد الهويات في كتاباتها، لتأخذنا هذه الذات للبحث عن الآخر في كتابات مليكة مقدم .

أما الفصل الثاني فعنوانه بـ "**الهوية اللغوية و تمظهراتها عند مليكة مقدم**" حيث كان من الضروري البحث عن الهوية اللغوية في كتابات مقدم، لما تفرضه اللغة من حمولة ثقافية وقادنا ذلك إلى خمس مباحث أيضاً، حيث أن البحث في اللغة البديلة عن اللغة الأم يقودنا إلى الخوض في تجليات الاغتراب في كتاباتها، ليأخذنا هذا المبحث إلى البحث عن سلطة اللغة وهيمنة الانتماء عند مليكة مقدم لنتقل إلى بحثنا في التهجين اللغوي في نصوص مقدم ثم التعالقات النصية مع كتاباتها، ثم ثنائية الجسد واللغة عند مليكة مقدم .

لتفرض مضامين مقدم نفسها في سياق ثنائيات ضدّية أين كان من الضروري البحث وراء "الثنائيات الكونية في خطاب الهوية بين المقدس والمدنس في كتابات مقدم في فصل ثالث، أين تطرقنا إلى خمس ثنائيات متقابلة بدءاً بثنائية الدين والإلحاد في كتابات مليكة مقدم وثنائية الرجل والمرأة ثم المركز والهامش والأصالة والمعاصرة في كتاباتها ثم ثنائية الحرية وهيمنة في كتابات مقدم .

ونختم بحثنا هذا بوضع ملخص يجيب عن الأسئلة التي تم طرحها في بداية العمل، والتي تشمل أهم النتائج التي تم التوصل إليها.

ومن البديهي الاعتماد على المقاربة النقدية الثقافية من خلال منهج النقد الثقافي لأنه يفتح أفق الحديث عن العوامل والأنساق المؤثرة في كتابات مليكة مقدمالذي يتيح لنا فرصة النباش في الخلفيات الثقافية التي أنشأت الصراع في عوام مليكة الداخلية هذا المنهج الذي يسمح لنا بالاستعانة ببعض المناهج القريبة، والوسائل الإجرائية الأخرى كاستراتيجية التفكيك ونظرية تحليل فوكو لخطاب السلطة.

تطمح هذه الدراسة إلى تعقب حياة هذه الكاتبة وسيرتها من وجهة نظر مختلفة، وهو يسعى إلى التعريف بهذه الكاتبة ورواياتها التي شكلت نسقا معرفيا تميزت به وستحدث عن ذلك بوصفه مشكلة شكلت عائقا خلال حياتها وعطائها الذي لا يزال متواصلا لحد الآن .

وقد عملنا في بحثنا هذا على مجموعة المدونات لمليكة مقدم، منها المترجمة:المتمردة، ترجمة المزدويومحمد،

رجالي،ترجمة بيوض نهلة، الممنوعة، ترجمة ساري محمد، وأدين بكل شيء للنسيان،ترجمة بوطاجين سعيد،ومنها

مكان بلغته الأصلية(الفرنسية):(les siècle des sauterelles)،(l'interditet)

،(La Nuit de la lézarde) ،(N'zid).

وقد اعتمدت بعض المصادر كمنطلق للبحث منها مدونات باللغتين الفرنسية وهي كل من (قرن الجراد) و(ليلة السحلية) و(نزيد) خاصة أثناء دراستي للغة مقدم أين كان لابد من ولوج النصوص في لغتها الأصلية و الاستعانة بالمدونات المترجمة إلى العربية المتمثلة في: (رجالي)، (المتمردة) و(الممنوعة)، (أدين بكل شيء للنسيان) .

وبعض المراجع مثل: (دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة) لنصر حامد أبو زيد ، (الأدب و النسوية)، ليام موريس، ترجمة سهام عبد السلام، الجنس الآخر لسيمون دي بوفوار ،(النظرية النسوية) :مقتطفات مختارة لويندي كيه كولمار و فرانسيس بارتكوفيسكي ترجمة عماد إبراهيم ،(فلسفة السرد): لليامين بن تومي، ومجموعة مؤلفين (مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن) لحفناوي بعلي . وبعض المقالات باللغة الفرنسية وغيرهم من المراجع .

وقد تطرقت بعض الدراسات إلى الأدب النسوي مثل: شعيرة السرد العربي الحديث (1980-2007) محمد قاسم صفوري من جامعة حيفا حيث إنه لم يتطرق إلى المرأة المغاربية نهائيا وبالرغم من أهمية الدراسة التي تعد أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه شملت ستا وتسعين رواية ونحو ستين مجموعة قصصية لقاصات من مختلف الأقطار العربية وبعض القصص المترجمة إلى اللغة الإنجليزية وتوصلت الدراسة إلى استنتاج الفرق بين الأدب النسائي الذي كتبه السوريات و اللبنانيات والمصريات والأردنيات وحتى الفلسطينيات من حيث الجرأة والتخلي على التقاليد الفنية مقارنة مع الأدب الذي كتبه الخليجيات من قطر وغيرها إلى أنها وقفت عند حدود المغرب العربي وهذا ليس بجديد إذ يصعب على الباحثين المشاركة تصنيف الأدب المغاربي خاصة ما كان باللسان الفرنسي فتقع المرأة على هامش الأدب بحثا عن هويتين هوية اللغة والأنوثة فهل أديها يقع ضمن الأدب العربي الجزائري أم هو أدب أوروبي فرنسي؟ هل هو أدب إنساني أم أدب نسائي .

ودراسة قضايا المرأة بين الصمت والكلام في الرواية العربية النسوية، (لنبيلة فايز السيوف) من الأردن لاستكمال نيل شهادة الماجستير في دراسات المرأة حيث توصلت الدراسة إلى أن الرواية هي الوسيلة المفضلة في تعبير المرأة عن ذاتها ومقاومتها للآخر مستخدمة منهج تحليل المضمون لستة عشر رواية حديثة ومعاصرة توصلت إلى أن شخصية المرأة كفاحية متمردة خلافا لشخصية الرجل الذي ظهر بصورة سلبية قمعية

وكتاب عاطفة الاختلاف، قراءة في كتابات نسوية، شيرين أبو النجا 1998 لتبحث الكاتبة في إشكالية المصطلح الأدب النسوي، وخصوصيات الكتابة النسائية من خلال البحث في نسق الثقافة العربية والغربية المتعلق بالمرأة وكذلك بتحليل مجموعة من الروايات .

المرأة وكتاب الكتابة (الاختلاف وبلاغة الخصوصية)، رشيدة بن مسعود 2002 أين قامت الكاتبة بتحليل بعض النصوص القصصية والروائية المغاربية من خلال اشتغالها على تطبيق منهج قرعماس في تحليل الخطاب لتصل إلى ملامح الخصوصية في الكتابة النسوية

وكل هذه الدراسات قدمت نظرة عامة عن الأدب النسوي العربي وخصوصيته غير أن دراسات تجليات الهوية في الأدب الجزائري، قليلة جدا وخاصة ما تعلق بالأدبية "مليكة مقدم" مع استثناء دراسة ماجستير "الصوت النسوي في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية رواية السيرة الذاتية مليكة مقدم نموذجا" من إعداد سمراء جبايلي والتي ركزت فيها على علاقة الروايات بالسيرة الذاتية مطبقة الميثاق السير ذاتي الذي وضعه فيليب لوجان لتصل إلى تصنيف أعمال مليكة مقدم. لتستكمل هذه الباحثة مسارها من خلال دراسة الرؤية الإيديولوجية في خطاب مليكة مقدم الروائي دراسة تأويلية أين حاولت المطابقة بين ما هو موجود في واقع الحياة الاجتماعية واسقاطها على رؤية مليكة الإيديولوجية في نصوصها .

وكذلك دراسة سعيدة بن بوزة حول "الهوية والاختلاف في الرواية النسوية العربية" حيث تشمل هذه الدراسة مجموعة لا بأس بها من المدونات المختلفة في الرواية المغربية لتسلط الضوء على الكتابة النسوية وقلق الهوية وعلاقتها بالآخر .

كما نذكر بعض الدراسات باللغة الفرنسية، أطروحة الدكتوراه التي أعدتها فائزة بايش في قسم اللغة الفرنسية بجامعة منتوري الموسومة بـ :

.Les techniques du roman en liberté chez MALIKA MOKADDEM

تحت إشراف الأستاذ الدكتور حسن بوساحة، والتي بحثت فيها عن تقنيات الكتابة الروائية الحديثة من خلال ثلاث روايات لي مليكة مقدم، (ليلة السحلية) و(نزيد) و (أدين بكل شيء النسيان) أين تستنتج أن مقدم تصنع شخصيات أسطورية وهي نور ونوا وسلمى على نسق الأساطير الغربية الإغريقية، أين عملت على تحليل الشخصيات وتعرف وظيفتهم في البناء السردي، كما تعمل أيضا على تحليل العناوين بحثا عن النصوص الموازية للنص مقدم و علاقته بالكل، وقد كللت عملها مقابلة أجرتها مع الكاتبة والتي استفدنا منها كثيرا في محاولة فهم كتابات ملكة مقدم.

ولا يخلو بحث إلا وصادف بعض العراقيين، التي من بينها هلامية الهوية وتداخلها مع عديد التخصصات كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع أين كان لكل من بحث في هذه الكلمة نظر إليها من زاوية بحثه، كما أنه للوصول إلى المصطلح كان لابد من إعادة قراءة الميتافيزيقا في ما وراء الطبيعة عودة إلى ما وراء المعنى بين مصطلح الذات والنفس والجوهر تختبئ الهوية التي تحيل إلى مصطلح آخر وهو الاختلاف أو الآخر، هذا الإغراق في قراءة المراجع الخاصة بالهوية أخذ منا زمنا لا بأس به من الزمن الذي قضيناه في هذا البحث، كما أن العمل على روايات مليكة مقدم باللغة الفرنسية وترجمتها لم يكن بالأمر الهين ذلك لصعوبة لغة مليكة مقدم، وصعوبة الترجمة في حد ذاتها.

وفي الختام نرجو أن نكون قد وفقنا في الإحاطة بالإشكالية وتحليل خبايا صراع الهوية وقلق الإنسان المعاصر في ظل الحداثة الغربية، وفتحنا باب البحث في مثل هذه المواضيع .

ولا يسعني في نهاية مقدمتي هذه إلا أن أشكر أستاذي الفاضل الدكتور رشد قريع، الذي أغدق علي بتوجيهاته القيمة وتشجيعاته المتواصلة، إضافة إلى ما أمدني به من مراجع ومعلومات قيمة، فجزاه الله عني خيرا جزاء.

فصل تمهيدي: صراع الهوية في الكتابة النسائية

1- الهوية وتجليات الذات

2- مكونات الهوية.

3- الكتابة السردية النسوية وفعل الكينونة.

فصل تمهيدي: صراع الهوية في الكتابة النسائية

الصراع سنة كونية ناجمة عن التضاد في الحياة، يخلق الصراع بين القوى نوعاً من التوازن الاجتماعي في الحياة، وهكذا يصبح ضرورة أفرزتها المتناقضات والأضداد سواء بين الأفراد والجماعات، أو بين الأنظمة

قال الله عز وجل في كتابه بسم الله الرحمن الرحيم: «وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»¹ إن الاختلاف سنة الحياة وأساس الصراع، ما خلف صراعا بين الخير والشر وبين الغني والفقير وبين العقل والقلب بين الذكر والأنثى... "فالحياة الاجتماعية هي تنافس وجدل وحوار، وتسابق وتزاحم، والقرآن الكريم يحيل هذه المعاملة الشاملة القاسية بكل تفاصيلها إلى الإنسان ذاته".²

يعود الصراع عادة إلى عدم المساواة والاختلاف وحب التملك مما يؤدي إلى استغلال الإنسان للإنسان.

ونوضح مفهوم الصراع بما جاء عند داروين³ في نظريته" التي تضمن الصراع بين الأجناس والأنواع والأفراد، فمفهوم الصراع لديه يتمثل في الاختيار الطبيعي، والبقاء للأصلح"⁴ لأن كل شيء في الحياة هو عبارة عن مادة حيّة، متطورة عن نوع سابق انقرض ليعطي الحياة لنوع آخر، ومن هذه النظرية نشأت نظرية الداروينية الاجتماعية التي ترى "أنّ هناك عملية طبيعية حتمية هدفها على أساس الاختيار الطبيعي، التخلص من العناصر الضعيفة وإبقاء الأصلح، وإنّ أي تدخل للإنسان يمكن أن يخل بهذا الغرض، وبهذا فإنّ التفاوت و اللامساواة الاجتماعية أمران طبيعيان ينتهيان بتغيب الضعفاء وانتصار الأقوياء"⁵

¹ القرآن الكريم: يونس 19

²غالب حسن، الصراع الاجتماعي في القرآن الكريم، ط1 بيروت دار الهدى للطباعة والنشر، 2002 ص24

³شارل داروين، (1809-1882) صاحب كتاب أصل الأنواع وهو العالم الطبيعي الإنكليزي الكبير الذي أحدث ثورة علمية في عالم الأحياء .

⁴إبراهيم عيسى عثمان، النظريات المعاصرة في علم الاجتماع، عمان، دار الشروق، 2008 ط1، ص82

⁵المرجع السابق، 83

الصراع بين الأنا والآخر أمر حتمي لا مناص منه، منذ بداية الخلق وقصة أبناء آدم قابيل وهابيل، تمت لبداية الصراع في الوجود الإنساني مع الآخر كيفما كان هذا الآخر، "حيث تغدو الحياة كحلبة لصراع، حيث من هذا الصراع تنبثق الحقيقة بوصفها انتصاراً لقوة على حساب أخرى"⁶ وهذا ما ذهب إليه، نيتشه حينما تبنى مبدأ "إرادة القوة" التي تمثل الحياة بتمظهراتها "فهي جوهر الحياة، وعن طريقها يمكن تفسير كل المظاهر"⁷ ما يجعلها مصدر لكل الأفعال ولا تفسير للفعل خارج هذه الإرادة، إذ أن القوحدها من تحكم، وأن أي تأويل لا يخرج عن هذا النطاق، غير أنا الصراع في الفترات المتأخرة اتخذ شكل آخر على الصعيد الفكري والفلسفي، وهي قوة ناعمة أساسها العقل بمنجزاته المختلفة، بما أكده صامويل هنتغتون (Huntington Samuel) "بأن الصراعات التي سيشهدها العالم لن تكون بين البلدان القومية انطلاقاً من اختلافاتها السياسية والاقتصادية، بل سيكون المحرك الأساسي فيها الأسس الثقافية والحضارية".⁸ لتتغير الأسس التي يقوم عليها الصراع ليتجاوز ذلك إلى جدل وعي الذات بموضوعها.

تحوض الذات صرعا ضد الشروط الاجتماعية التي أوجدتها، حيث ترد بعنف على مختلف الظروف التي تفرض قسراً في صنع تاريخها وتحد من حريتها، لتتفاعل الأفكار مع الواقع، فكيف لانا أو الذات أن تصارع نفسها؟ وما هي تشكيلات هذه الذات أو الهوية؟ أو ليست الهوية هي كل المركبات التي تكون الذات لتعطي هوية ما؟ وما هي إشكاليات الهوية في الكتابة النسوية؟

⁶ لويس بن علي: إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، ميم للنشر، 2018 ص 97

⁷ عبد الوهاب المسيري، نيتشه فيلسوف العلمانية، ضمن كتاب، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، تحرير، أحمد عبد الحليم عطية، منشورات الفارابي بيروت، ط 2010، ص 55

⁸ صامويل هنتغتون: صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، سطور، ط 2، 1999، ص 10

1- الهوية وتجليات الذات:

نشأ مصطلح الهوية مع بداية نظر الإنسان إلى ذاته، وانغمامه بهذه الذات، "وتستعمل كلمة هوية في الأدبيات المعاصرة لأداء معنى كلمة (identité) التي تعبر عن خاصية المطابقة : أي مطابقة الشيء لنفسه، فالهوية لغة من هوى يهوي هوة والهوية تصغير هوة، وقيل الهوية بئر بعيدة المهواة"⁹ وهنا يحيلنا التعريف المعجمي لابن منظور إلى عمق المفهوم نفسه وترسب معانيه، فهي الحقيقة المطلقة، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"¹⁰، "وفي المعجم الحديث لا تخرج الهوية عن هذا المضمون فهي حقيقة الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية والتي تميزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات"¹¹. فالهوية بحسب ذلك هي حقيقة الشيء، التي تعبر عن الذات وتطابقها مع نفسها.

كل هذا يجزنا إلى استنطاق الذات والغوص في مكوناتها، أي جوهرها، ليقودنا الطريق إلى التقاطع مع الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرهم، وهذا ما جعل البحث في الهوية من أصعب المواضيع هلامية والقول هنا البحث في الهوية وليس البحث عن الهوية فالسؤال الثاني يعني البحث عن هوية ضائعة مشتتة والبحث عنها يأخذ صيغة إيديولوجية أكثر من الصيغة العلمية، ولذلك نفضل الحديث عن الصيغة العلمية تاركين الإيديولوجيا لمكونات النصوص المختارة مبرزين ذلك في الفصول اللاحقة.

لقد مارس الإنسان البحث في ماهيته وحقيقته وجوده وكيونته منذ فجر التاريخ حيث نجد (هوميروس) يقول: "إن الإنسان يملك نفسين، نفسا للتنفس وهي الروح الفانية ويملك أيضا ما نسميه بالروح الخالدة ويبدو أن الأولى ليست أكثر من وظيفة، وهي تفنى بعد الموت، غير أن الثانية تلوذ بالفرار لدى الموت

⁹ ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الجزء الثاني، ص 170

¹⁰ على بن محمد الجرجاني: التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1988، ص 257

¹¹ كلود دوبار: أزمة الهويات (تفسير، تحول)، ترجمة: رندا بعث، المكتبة الشرقية، ط1، لبنان، 2008، ص 86

مرتبطة بالرأس باعتباره المبدأ الحي الخالد وبنوع حيوية الإنسان¹² ليجعل من القلب مصدر الحياة والعقل مصدر الخلود، فيفرق الفلاسفة المثاليون بين الروح والجسد، أين يعتبرون الجسد وعاء الروح الذي تغادره عند الموت لتتحرر من قبرها الأرضي وكل هذا هو إقصاء للجسد وفصل الذات الإنسانية، بين فصل المظهر عن الجوهر فالإنسان مظهر وجوهر، والعلاقة بين الجوهر والمظهر علاقة توافقية، وإن كان المظهر قد يكون زائفاً في بعض الأحيان، (ولعل هذا من بين أحد المشاكل التي تعترض الهوية التي تحتاج إلى التوافق والتطابق).

ليؤكد لنا سقراط أهمية الذات والنظر إليها، من خلال قوله "أعرف نفسك"،¹³ على الرغم من أهمية هذا السؤال الذي ينطوي على وعي بالذات أين كان المجتمع في تلك المرحلة يهتم للغيبيات، فيما وراء الطبيعة من ظواهر لم يستطع عقل الإنسان البسيط في تلك المرحلة أن يستوعبه، تسبب هذا القول في انهماك الإنسان بذاته، أين يبدأ عصر الذاتية، غير أن هذا العصر هو عصر بداية التاريخ، المرتبط أساساً بذات الإنسان، ليتحول مسار الإنسانية.

ولم يختلف ديكارت عن الفلسفة المثالية برغم من الاختلاف الزمني ومحاولة نقل الاهتمام من جدلية الجوهر والمظهر إلى جدلية أخرى رأت في العقل مصدراً لكل يقين، أين يبدأ عصر الفلسفة المتعالية، فقد بنى يقين وجوده من خلال تفكيكه الذي يعد السمة المميزة للكائن البشري، بقوله "أنا موجود مادمت أفكر"¹⁴ ولكي يعي وجوده فهو لا يعتمد على الحواس التي يعتقد أنها خائنة، حيث لا يمكنها أن تصل إلى الحقيقة كما انه لم يسأل الذات المفكرة، بل اعتبرها يقيناً مطلقاً لاشك فيه، منطلقاً منها عائداً إليها، مستبعداً الذات المنطوية على اختلاط الفكر وتشويشه ويقول "لقد اقتنعت قبلاً أنه لا يوجد في العالم شيء على الإطلاق، لا سماء، لا أرض، لا

¹² جاك شورون: الموت في الفكر الغربي، تر، كامل يوسف حسين مراجعة، امام عبد الفتاح امام، سلسلة عالم المعرفة، عدد 86، ابريل 1980، ص 28

¹³ صلاح عبد الصبور: ديوان صلاح عبد الصبور، المجلد 3، دار العودة بيروت، ط 2، 1988، ص 5

¹⁴ ديكارت: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة: كمال الحاج يوسف، تونس سراسر لنشر 2009، ص 43

نفس ، لا أجسام ... ولكنني متيقن أنني موجود... ولا يمكن لأي كائن مهما كان قويا أو شديد القوى أن يضللني ويجعلني لا شيء ما دمت أفكر¹⁵ إدراك الذات لنفسها يكون من خلال الفكر فقط لا الجسد " إذ لم يسائل ديكارت أبدا الذات التي تفكر (فهي يقين لا شك فيه) وإنما بدأ بها من حيث هي ثابت محض مستبعدا الذات المنطوية على اختلاط الفكر وتشويشه، وتولد عن ذلك نمط في البرهان ينطلق من الذات ليكتشف وجود العالم أي تجعل من نفسها موضوع نفسها كي تتطابق مع نفسها فيتحقق لنفسها إثباتها، ثم تجعل من العالم موضوعا أمامها تثبته باستمرار كي يتأكد لها إثبات نفسها باستمرار¹⁶ إلا أنه أحدث قطيعة مع الفلسفات التي سبقتها التي تعد الإنسان مكون من المادة والصورة.

رفع ديكارت من الإنسان ليجعل منه ذات خالصة يؤسسها الفكر فقط، فينظر إلى الذات التي تمثل الفكر على أنه خالص يقين ممنوع من الزلل، أين ينفي ما يتعرض له العقل من تشويش أو جنون وكذلك من تأثير المشاعر على صفاء الدهن، "الحضور معلنا وصريحا وله طبيعة تأكيدية وجازمة ولهذا فهي تسعى على الدوام إلى امتلاك ذاتها والتطابق مع نفسها".¹⁷

وبحسب بول ريكور ((Paul Ricœur «إن الذات تبحث عن وجودها من خلال التفكير في الأسس التي تقوم عليها، وتحتاج إلى توسط الغير في ذلك، والغير هنا هم كل عالم الرموز والإشارات التي تأتي الذات الفاعلة من العلوم الأخرى وخاصة العلوم الإنسانية. وليس غرور الأنا التي كانت تظن أنها قادرة على تأسيس ذاتها بذاتها¹⁸ إن الفكر لا يصل إلى اليقين من التأمل وحده، كخاصية بيولوجيا وإنما يحتاج إلى أن يتكون من خلال المعرفة، التي تأسس لهذا الفكر ووصوله لليقين، فلا يمكن اعتبار هذا العقل كاملا بما أنه في

¹⁵ديكارت: المرجع السابق، ص 53

¹⁶حسام نايل: دروس التفكيك (الإنسان و العدمية في الأدب المعاصر)، التنوير للطبع والنشر والتوزيع، لبنان، ط2014، ص 1، ص 30

¹⁷حسام نايل: المرجع السابق، ص، ن

¹⁸بول ريكور: الذات عينها كآخر، ترجمة: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، ط1 بيروت، 2005، ص 67

حاجة إلى وساطة العالم، أين يأخذ خبرته من خلال تزويده بالمعرفة السابقة. وهنّا يحاول ريكور أن يوضح أن تعالي الذات هو تعالٍ عن نفسها. أما نيتشه ينتقد هذه الفلسفة، ويلقي بها بعيداً، "ويعتبر مثل هذه الفلسفات التي اختزلت الأنا في التفكير والفضيلة المتعالية عن نزوات الجسد، و وقعت في المحذور الأقصى ألا وهو العدمية و تعني باختصار إبادة قوى الحياة وقهر الرغبات" ¹⁹.

أما الفلسفة الوجودية فقد جعلت من الوجود الإنساني مصدر الكل تطلعاتها، فالوجود يسبق ماهيته فالإنسان يوجد أولاً ثم يصنع ماهيته ويحدد ما يريد أن يكون فهو حر فيما يريد أن يكون "ويستخدم الوجوديون مصطلح الوجود existence بمعناه الاشتقائي الأصلي فهو يتألف من مقطعين ex بمعنى خارج sistance بمعنى يقف. فهو الوجود الذي يقف خارج ذاته" ²⁰ التعرف على الذات لن يكون إلا من خلال النظر إليها من الخارج وهي فكرة التعالي على الذات، وهذا الخارج يتمثل في الآخر. ويمكن أن نميز بين نوعين من الفكر الوجودي (الوجوديون المؤمنون، والوجوديين العدميين إذ هناك اختلاف جوهري فيما بينهما)، فيرى الوجوديون المؤمنون أن الوجود البشري يجاوز ذاته في اتجاهه إلى الله، فهو مصدر كل وجود وأساس كل يقين ليكون البحث عن الذات من خلال البحث عن الله، ويتمثل هذا الفكر في الفيلسوف "سورين كير كيجورد رائد الوجودية أراد أن يكون الوجود الإنساني الأصيل هو الذات المنفردة الماثلة أمام الله" ²¹

أما الاتجاه الآخر تمثل في جان بول سارتر (Jean-Paul Sartre) وهو من أهم مؤسسي الوجودية يرتبط وجود الإنسان بحريته فيقول "لستُ السيد ولستُ العبد، و إنما أنا الحرية التي أتمتع بها." ²² فمعنى أن تكون إنساناً هو أن تكون حر و برغم مما يوليه الوجوديون لأهمية الحرية إلا أنهم يقرون أنها ليست مطلقة

¹⁹مصطفى بن تمسك: الذات المتعددة لديبول ريكور، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث 2016، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية 05 افريل 2016، ص 8

²⁰إمام عبد الفتاح إمام: مدخل إلميتافيزيقا، تحضة مصر للطباعة والنشر، ط1، 2005، ص199

²¹إمام عبد الفتاح إمام: المرجع السابق، ص 197

²²المرجع السابق: ص ن

ولكنها حتمية لازمة وجود الإنسان كإنسان ولد ليحدد ما يريد أن يكون غير أنا سارتر يربط حدود حرية الإنسان بالآخرين فيجعل منهم الجحيم في قوله "الآخرون هم الجحيم"²³ على لسان أحد أبطال مسرحيته، لأن الآخر هو من يضيق مساحة الحرية ولعل هذا ما يجعل البحث في الهوية بحث عن الحرية وعن حدود الذات الإنسانية و قدراتها في مقابل الآخر الذي يحد و يعيق هذه الحرية .

وقبله مارتن هايدغر (بالألمانية: Martin Heidegger) الذي ركز بحثه حول السؤال عن: (ما حقيقة الكائن؟ فالإنسان هو الكائن الذي يمكنه التساؤل حول معنى الكينونة هذا الإنسان يسميه هايدجر "الكائن هنا" l'être-là حتى يميزه عن غيره من الكائنات)²⁴ فذات الإنسان تختلف عن ذات الكائنات الأخرى فهي تمثل وجهة صاحبها في الحياة وقدراته وطموحاته، فتربط بوعي الإنسان لهذه الذات؛ وهي ناتجة عن كل ما يمر بالإنسان من خبرات ومواقف، متشكلة من خلال علاقته بالآخرين ومدى استقلاليتها واعتماده على نفسه .

كما يرى هايدجر "أن الذات تتمتع بطابع الواحد غير أن هذه الوحدة هي الفراغ الذي يدوم ويستمر في انسجام فاتر بعيد عن كل علاقة، ولكي تتجلى علاقة الهوية مع نفسها، ولكي يفهم ذلك التوسط كتوسط ولكي يتخذ ذلك التوسط الذي يخترق الهوية مكانه ، لزم الفكر الغربي ما يزيد عن الألفي سنة ، ذلك أن الفلسفة المثالية التأملية بعد أن مهد لها الطريق كل من لايبنتز وكانط، التي أرست، على يدي فيشته وشلينج و هيجل للهوية أسسها"²⁵ إذ لا يمكن التّظّر إلى الهوية كمجرد انسجام ووحدة دون أن يكون هناك ما يتوسط هذه الوحدة ، أين احتاج الإنسان إلى غيره في تأسيس عالمه من المعاني.

²³ جول بول سارتر، الأبواب المقفلة، ترجمة هاشم الحسيني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت،

²⁴ عمر مهيبيل : البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون، الجزائر، 1993ص 291

²⁵ عبد السلام بنعبد العالي: هايدغر ضد هيجل التراث والخلاف، دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، بيروت، 2006، ص 83

وهذا يقودونا إلى أفلاطون مرة أخرى وهو يحاور السفسطائي يقول " أن كل واحد منهم مختلف عن الاثنيين الآخرين لكنه مطابق لذاته"²⁶ فلم يتوقف عند تحديده لكل "هو" على أنه "هو" نفسه بل "أكد أن كل هو يطابق ذاته فكل شيء مؤسس لذاته فيتخذ هايدجر في مبدأ الهوية الصيغة المعروفة بـ أ=أ " أن هذه الصيغة "أ ب أ" والحال أن كل مساواة تقتضي طرفين على الأقل "أ" مساوي للآخر هل ذلك ما يعنيه ذلك المبدأ؟ فالظاهر لا فالمتطابق (L'identique) في اللاتينية ((idem) يترجم الكلمة اليونانية (toauto) وفي الألمانية (das selbe) وفي الفرنسية (les même) فإن ردد أحدنا أن النبتة هي النبتة، فإنه يحصل الحاصل ولكي يكون شيء ما هو نفسه يكون حدا وحدا كافيا باستمرار ولا حاجة لتحدين اثنين كما في حالة المساواة وهنا فهي لا تقدم "أ" على أنها نفسها فالصيغة المقدمة للهوية تخفي ما يريد قوله هذا المبدأ بالذات²⁷ فالصيغة تقصد أن أ هي أ وهذه الصيغة تعني الوحدة فالذات تطابق مع نفسها وحرف الجر مع يعني توسط ارتباطيا. وتقودنا هذه المعادلة إلى قانون الكينونة "أن الهوية تنتمي إلى كل موجود من حيث هو كذلك من حيث أنه متوحد مع ذاته".²⁸

أما فوكو يعتبر " أن السؤال الذي يجب أن يطرح هو "من أكون" وفي المحاولة للإجابة عليه نؤكد الخضوع بأن تتموقع تحت التبعية لأن العلاقة الساطعة من ذاتي، من عمق حقيقتي، وفي أبعاد كلامي، تظل مرهونة بالآخر هو الذي يعمل على إثارتها، مثل مصباح يستهويني ويجذبني²⁹ ليربط الهوية بالآخر الذي يعطي حدودا لذات، كما أن الآخر بمثابة، مثير خارجي يؤثر على الداخل ويخرج مكوناتها التي لا تكون لها قيمة، إلا بوجود الآخر.

²⁶مارتن هايدغر، الفلسفة الهوية والذات، ترجمة محمد مزبان، مراجعة محمد سبيلا، كلمة للنشر والتوزيع، ط1، 12، 1، نهج بيروت، تونس، 2015، ص 29

²⁷مارتين هايدغر، المرجع السابق، ص 29

²⁸المرجع السابق، ص 31

²⁹مشال فوكو: الانتماء بالذات (جمالية الوجود وجرأة قول الحقيقة)، ترجمة محمد أزويطة، دار النشر إفريقيا الشرق، المغرب، 2015، ص 33

فالهوية بضمة فوق الهاء هي: " أن يكون الشيء هو ، هو وليس غيره وهو قائم على التطابق"³⁰ فهي حقيقة الشخص المميزة له فبطاقة الهوية بفتحة فوق الهاء التي يحملها الشخص معه تدل على بعض سمات هذه الهوية (الاسم واللقب والصورة، الطول، العنوان، الجنسية وحتى البصمة والإمضاء) وهي ما يميز شخص عن آخر حتى وإذا كان توأم له . فكل هذه الصفات تكون هويته الفردية، التي لا يشارك فيها أحد غيره .

فالهوية "هي من تحدد ما أنا عليه من صفات اشترك بها مع آخرين أو انفصل بها عنهم و الهوية منحوتة عن الضمير هو المقابل للفظة (إستين) والتي تدل على مفهوم الوجود حسب ما أقر به أرسطو إلا انه حدث انزياح في الهوية مع الفلسفة الحديثة، من معنى الوجود إلى معنى الذات أي تحول من المعنى من مفهوم "الشيء المفكر" إلى عبارة "أنا أفكر" الكوجيتو الديكارتي³¹ فالوجود في ذاته مستنبط من واقعه "أنا أفكر" أما اليوم فقد حدث انزياح آخر للمصطلح من لفظة "الهوية"(ipséité) إلى لفظة الهوية (identité) التي تشير إلى "نحن" في مستوى النقد والأنثروبولوجيا في ما بعد الحداثة"³². فلا توجد هوية "أنا" دون هوية "نحن" وهنا نقف على انه لكي نعرف من نكون يجب أن نعرف من لسنا نحن أي للتعرف على الذات من خلال الآخر، فمثلا القيم الأخلاقية أو الجمالية لا يمكن تحديدها إلا وسط الجماعة أو وسط الرؤية الجماعية لهذه الأشياء ومن خلالها تتكون مفهوم هذه الأشياء، فالمجتمع الذي تعيش فيه الذات يكون هذه الذات ويحكم عليها، وهو ما يكون اختلافات بين المجتمعات الإنسانية، أو داخل المجتمع ذاته ليكون مجموعة من الطبقات، إذ تقول "لوسي بونيه"(baugnet) إن الهوية تتواجد عن التقاء أو تقاطع كل من معرفة الذات

³⁰حسن حنفي، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، مصر، 2012، ص12

³¹الكوجيتو الديكارتي: هو الفكر الذي يوجد كينونته ووجوده في فعل التفكير، انه الأنا الذي يشك ويفكر

³²فتحي المسكيني: الهوية والزمان، دار الطليعة لطباعة والنشر بيروت، ط1، 2001، ص7، 8، 9

من طرف الذات نفسها مع معرفتها من طرف الآخرين، فالهوية لا توجد إلا من خلال علاقتها الفاعلة بالآخر سواء كان حقيقيا أو افتراضيا، ماديا، أو معنويا.³³ وهنا تلتقي "أنا" مع "نحن"

وهناك من يذهب إلى أبعد من ذلك فنجد عالم الاجتماع الفرنسي "آلان توران" (A. Touraine) يذهب إلى " أن على علم الاجتماع الحذر حتى لا يعتبر الهوية مجرد عملية استدخال، لقيم ومعايير الجماعة التي ينتمي إليها الفرد أو الجماعة لأن تلك القيم ماهي إلا تعبير عن الأفكار والأيدولوجيات المهيمنة في فترة معينة ، بل هي ما يفرض على الأشخاص من الخارج وبالتالي فهي شعور ليس لما هو عليه الفرد تماما، ولا تفسر ما يقوم به ، بل هي ما يجب أن يكون وما هو متوقع من سلوكه كفرد ينتمي إلى تلك الجماعة ، تجنبنا لما يمكن أن يلحق به من أذى عند الخروج عن الجماعة."³⁴ أي أنّها خضوع و تبعية لسلطة الاجتماعية المهيمنة و الهوية هنا تعد "هوية مغموشة" فرض عليها أن تكون ما هي عليه ، فهي خارجة عن ما تريده الذات الفاعل وهذا ما قد ينشأ صراع بين الذات الفاعلة والذات المغموشة أو التي يفرضها المجتمع .

ويذهب آلان إلى أبعد من ذلك عندما يؤكد على "تشكيل الهوية كحقيقة اجتماعية لا يصير ممكنا إلى إذا أصبح النظام الاجتماعي في نظر الفرد ليس كنسق من العلاقات والمؤسسات القائمة خارج إرادته ، وإنما كنتيجة لتلك الإرادة"³⁵ أي تطابق الذات الفاعلة وما يريده المجتمع منها، "توجد "الأنا" مجردة من ملكيتها دائما بفعل الظروف الاجتماعية لنشئها"³⁶ هنا تفقد الأنا قدرتها الفعلية فتخلى مسؤوليتها الأخلاقية تبعا لظروف ويجعل منها ذات مسلوبة غير قادر على تقرير مصيرها وهذا ما ينطبق على المستعمّر "فيربط آلان بروز الوعي بالهوية بمدى مشاركة الذات الفاعلة في الصراع الاجتماعي الذي ينشب لا محال بين

³³ I.baugnet,l'identité sociale,dunod,1998,p,10..17

³⁴ Alain touraine:pour la sociologie,paris,éd.du seuil,1974.p.179

³⁵ibid.,p.183

³⁶ جوديث بيثلر: الذات تصف نفسها،ترجمة فلاح رحيم،التنوير للطباعة والنشر،ط1 لبنان، بيروت، 2014، ص،45

الطبقات الاجتماعية فالفاعلية مرهونة بالنسبة له بمشاركتها في حركة التغيير الثقافي والعلاقات الاجتماعية التي يساهم في تسييرها وحتى المشاركة في الثورة ضدّ الهيمنة التي عادة ما تبدو في البداية طبيعية وعقلانية".³⁷ كل هذا يجعل من الهوية ترتبط بالزمان والمكان رغم عدم ثباتها فهي تنسج وجودها من خلال العلاقة بالآخر .

2- مكونات الهوية:

ولأن الهوية ليست معطاً جاهزاً، أو ماهية مطلقة فهي دائمة التشكل خاضعة للعملية التاريخية ولي عاملية الزمان والمكان، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالثقافة التي تمدّها بالمرجعيات التي تتشكل منها الهوية فالثقافة هي ذلك الكل المتكامل الذي يشكل الهوية فيعرفها ليفي ستروس (Claude Lévi-Strauss) بأنها "مجموعة من الأنساق الرمزية تنصدرها اللغة والقواعد التي تقوم عليها روابط القرابة والعلاقات الاقتصادية ومنتوج الفن والعلم والدين، تعبر كل هذه الأنساق عن الواقع الفيزيائي (الطبيعي) والواقع الاجتماعي، وعمّا هو أكثر من ذلك إذ أن الأنساق الرمزية تعبر عما بين الواقعيين السابقين من علاقات وعمّا بينهما هي نفسها كأنساق بينية"³⁸ تجمع الثقافة الطبيعي الموروث بالمكتسب، لتشكل بنية ثقافية فردية وأخرى جماعية تجعل الفصل ما بين الهوية والثقافة أمراً صعباً وذلك بسبب طبيعة التفاعل فيما بينهما . و من أهم العناصر المكونة للهوية:

أ - اللغة: تعدّ العنصر الأساسي للهوية، فهي الحصن المنيع لأي ثقافة من الاندثار، فالذات لا تعبر إلا من خلال اللغة وداخلها، كما لا يمكن فصل اللغة عن الفكر هذا الذي كان أساس الشك واليقين عند ديكرت فراح يكون ذاته . "فدوسوير يشبه اللغة بورقة يمثل الفكر وجهها والصوت وجهها الآخر والوجهان

³⁷ Alen touraine: pour la sociologie, Ibid., p.208

³⁸ محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية (وقضايا اللسان والهوية). (ديوان المطبوعات الجامعية، منشورات ثالة، الجزائر، 2003، ص 61

متكاملان إذ لا يمكن عزل إحداهما عن الآخر.³⁹ فاللغة تحمل الفكر في طياتها ليصير جزءا منها بحسبه ، أما اللغة عند ليفي _ شتروس "فهي عقل إنساني قائم بذاته له منطقته الداخلي و ثوابته وحججه التي لا يعرفها الإنسان"⁴⁰ ونقلت اللغة جيلا فجيلا لتكون موروثا ثقافيا لسانيا لذا الشعوب ، فهي تحمل بعدين، الأول عقلي كظاهرة مرتبط بالإنسان تميزه عن بقية الكائنات ، والثاني اجتماعي باعتبارها الوسيلة المثلى للتواصل مع الآخر والتأثر والتأثير به ما يجعلها أهم مكون للهوية الوطنية والقومية والهوية السردية على حد سواء مرتبطة بتاريخ الشعوب "فالهوية في حالة الإمكان هي اللغة فاللغة تألف شعورا أوليا بال "نحن" بين أفراد الجماعة نسميه ال "نحن اللغوي" أو ال "نحن البدائي"، فهو نحن معطى من البداية، وعليه يتأسس المجتمع ولكن هذا ال"نحن البدائي" هو مشروع وليس وجودا مكتملا بالفعل، وهذا نابع من طبيعة اللغة ذاتها"⁴¹ مرتبط باللغة الأم .

وسميت باللغة الأم للعلاقة الطبيعية من الولادة كعلاقة بيولوجيا محضة فالإنسان لا يختار أمه وكذلك اللغة التي جبل عليها كما أن اللغة أكثر ثباتا من غيرها من المكونات و أكثر المكونات تعبيرا عن وجود الإنسان "مادام الإنسان وهو يكشف وجوده لنفسه في كل مرة ينطق أو يكتب فيها، وعملية الانكشاف تلك هي الوجود الذي يتَقَوَّم به كل موجود إنساني." ⁴² فاللغة هي التي تتحمل رهان الحقيقة وعبء الوجود ليكشف الإنسان عن ذاته بالنطق أو الكتابة على حد سواء "تكلم حتى أراك."⁴³

³⁹ عمر مهيبل: النبوية في الفكر الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص21

⁴⁰ عمر مهيبل ، المرجع السابق، ص39

⁴¹ أحمد حيدر: إعادة إنتاج الهوية (دراسات فكرية)، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1997، ص1، 137

⁴² حسام نايل: دروس التفكيك (الإنسان و العدمية في الأدب المعاصر)، مرجع سابق، ص، 35

⁴³ وهي مقولة سقراط جعل منها أنيسمنصور، عنوان الكتابة عن دار نفضة مصر للنشر

ينطلق دريدا من مقولة أساسية هي بمثابة مسلمة بالنسبة إليه "نعم" أنا " لا أمتلك إلا لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي، ويذهب دريدا إلى أبعد من ذلك "أنا أحادي اللغة (monolingue) وأحاديتي اللغوية هذه كانت وستبقى بيّتي هكذا أحسها، وهكذا اسكنها وتسكنني وهكذا ستبقى، إن الأحادية التي أنفستها هنا هي بمثابة العنصر الحاسم في حياتي... عنصر لا هو بالطبيعي، ولا هو يمثل شفافية الأثير،... بإقاراري بحضوره الدائم داخل ذاتي ذاتها... لكن إن نظرت من خارج هذه الأحادية.. فإنني وببساطة لن أكون أنا ذاتي كما كنت قبل، إنها تشكلني وتحملني إلى أعماق أعماق، كما أنها تمنحني وحدة تشبه وحدة الرهبان"⁴⁴ ليوضح العلاقة بينه وبين اللغة التي يعدها انتمائه الوحيد ناكرا بذلك غيرها، بالرغم من كونها ليست لغته الأم الأصلية وأنها اللغة المتبناة من طرفه، والتي يتوحد فيها فقد نذر نفسه لها لتكون هذه اللغة مصدرا لعذابه فيقول "من هنا يبدو أنك بدأت تتلمس بجلاء مصدر عذاباتي المتتالية ذلك أن هذه اللغة التي تخرقها من أقصاها إلى أقصاها هي مكمن آلامي، ورغباتي، وصلواتي بل هي الدافع لكل آمالي".⁴⁵

كل هذا بالنسبة لدريدا يوضح حالة الشتات التي يعيشها بحيث يجعل من اللغة ملكية خاصة تكون ذاته فيتماهى معها وفيها ولا أحد يستطيع إنكار هذه الهوية وما تفرضه على الأشخاص فهي حمولة ثقافية وليست ناقلا حياديا وبالتالي يتأسس عالم الأفكار من هذه اللغة ولذلك سعت فرنسا الاستعمارية على انتزاع ومصادرة لغة الشعوب التي احتلتها من خلال فرض اللغة الفرنسية لغة وحيدة للبلدان التي استعمرتها، غير أن الرد جاءها قوي و ثابت إذ يقول مالك حداد: (نحن لا نكتب اللغة الفرنسية، بل نكتب بها)⁴⁶ هنا يلغي مالك حداد أفضلية اللغة الفرنسية ويوضح أنها تنقل فقط أفكاره فهي مجرد وسيلة وأداة لا غير وأن معاناة "دريدا" و"مالك

⁴⁴جاك دريدا: أحادية الآخر اللغوية أو في التزميم الآخر، ترجمة: عمر مهيبيل، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2008، ص، 23

⁴⁵جاك دريدا: المرجع السابق، ص 24

⁴⁶واسيني لعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 79.

حداد" مع اللغة هي معاناة كل الشعوب المحتلة، التي عمل الاستعمار على تذويب لغتها، وإحلال لغته محلها فاللغة تحمل معها ثقافة الشعوب وتاريخهم بل تتجاوز ذلك لتحمل مستقبلهم ومستقبلها ولذلك كان هناك هاجس لغوي لدى المثقف الجزائري الذي يعاني من عقدة اللغة، إذ "أنّ الكاتب هو نتاج التاريخ أكثر منه نتاج الجغرافيا، فالجغرافيا احتمال أما التاريخ فلا. إنني أرى أن كل هذا الغموض، وهذه المعاناة في البحث عن تعريف، نشأت من مأساة اللغة، وهذه المأساة تأتي من التعبير الفرنسي لكتابتنا".⁴⁷ فالناريخ أوسع وأكثر ثباتا من الانتماء الجغرافي الذي يعد أقل استقرار .

وقد وضع الخطيبي⁴⁸ في تقديم أحد كتبه المخصصة للنحوض في الازدواجية اللغوية فيقول هذا الأخير "لو لم تكن هناك اللغة (كما هي الحال بالنسبة لأشياء أخرى) لو لم تكن هناك أحادية لغوية مطلقة، فإنه يبقى علينا أن نحدد ما معنى لغة أم (أو أصلية) "معينة" مأخوذة عبر تقسيماتها الفاعلة المختلفة، وما يمكن لهذه اللغة أن تحصله إذا ما طعمت بلغة أجنبية أخرى علما أن التطعيم هنا، هو مدعاة لتشرذم والضياع، إذ لا يمكن العودة لا إلى اللغة الأم (الأصلية) ولا إلى اللغة الأجنبية، وإنما إلى منزلة بين المنزلتين القائمتين وعنوانها اللابلاغية أو اللاتواصلية هذا الأمر ستكون محصلتها لغة هجينة في مستوى الكلام وفي مستوى الكتابة أيضا".⁴⁹ وهذا ما كانت تسعى إليه فرنسا الاستعمارية .

فيقول في ذلك جان بول سارتر في نصه "عارنا في الجزائر" هذا النص الذي سبب له بعض المشاكل في فرنسا ولعله كان سببا في حرمانه من الحصول على جائزة نوبل للأدب "ولما كان من مقومات القومية في أوروبا وحدة اللغة، فقد حرم على المسلمين استعمال لغتهم بالذات، فاللغة العربية تعتبر في الجزائر لغة أجنبية

⁴⁷مالك حداد، الأصفر تدور في فراغ، تر: أحمد منور، دار الأملية الجزائر، ط01، 2012، ص. 52.

⁴⁸عبد الكبير الخطيبي:روائي مغربي وعالم اجتماع، وأخصائي بالأدب المغربي..

⁴⁹جاك داريدا، مرجع سابق، ص30، . 31

منذ عام 1830، إنهم مازالوا يتحدثون بها إلى اليوم. ولكنها لم تعد لغة مكتوبة إلا بالقوة، لا بالفعل⁵⁰"
وهكذا جرد الاستعمار الجزائريين من حقهم اللغوي، يفرض عليهم لغته ما كان سببا رئيسيا في استعمالهم اللسان
الفرنسي في نصوصهم التي دافعوا من خلاله على وجودهم، وكيانهم وعن حقهم في الحرية، فهم لا يملكون غيره
وهو ما يوضح حالة اللغة بالنسبة للفرانكو - مغاربة الذين تهجن لسانهم ليفقدوا أصالة لغة معينة إذ
يرى إدوارد غليسون⁵¹ Glissant من أن عدم إتقان لغة مناسبة معينة يعبر في المقام الأول عن حالات
الاعتراب "الكولونيالي" (الاستعماري) "coloniale"، أو العبودية عبر التاريخ "و الاضطهاد
الاستعماري على مستوى اللغة يفقد الكينونة اللغوية الأصلية لهذه اللغة ما يخلق حالة من الاعتراب
الذاتي.⁵²

لتكون اللغة بمثابة منفى عزل الكاتب والمثقف الجزائري عن ذاته لتشكّل صراع داخليا يعوضه من خلال الكتابة
مستعيرا لسان غيره (بعبارة مالك حداد الشهيرة "الفرنسية منفاي" لم يكن يقصد بهذه العبارة الذائفة الشائعة
أن يُحاكم اللغة الفرنسية من حيث هي لغة مثل بقية اللغات البشرية، وإنما كان يشير إلى الطريق المسدود
الذي وجد فيه الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية بعامة والأدب الجزائري بخاصة، ولاسيما أنّ هذا
المنفى انتقل إلى قرائه).⁵³ بالرغم من أهمية نصوص ملك حداد وحمولتها الثقافية ذات الطابع الجزائري شكلا
ومضمونا وكذلك شاعرية وجمالية اللغة التي يكتب بها والتي أجهرت النقاد الفرنسيين غير أنه فضل أن يصمت على
مواصلة الكتابة بلغة لا يشعر داخلها بالانتماء على عكس داريدا.

⁵⁰ جان بول ساتر، عارنا في الجزائر، بدون مترجم، الدار القومية للطباعة والنشر، شارع عبيد، مصر ص 18

⁵¹ إدوارد غليسون (Edward Gleason): كاتب من المارتينيك، يعد من أهم الكتاب في بلده، عرف بمواقفه التحررية والإنسانية، ووقفه

إلى جانب المفكرين الجزائريين في نضالهم

⁵² جاك دريدا: المرجع السابق، ص 51

⁵³ أحمد يوسف: علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013، ص 172

ب - الدين: ويعد الدين رابطاً مقدساً يجمع البشر، ويوحد توجهاتهم وآفاقهم، حيث يحدد نظرهم إلى ذاتهم وكذلك إلى الآخرين من حولهم، كما يمكن اعتباره عنصراً قارراً لا يتغير فهو الأكثر ثباتاً على مستوى الزمان والمكان، إنه يوحد جماعات عديدة على اختلاف رقتها الجغرافية وكذا لغتهم، وله تأثير واسع على المشاعر الإنسانية، وذلك لأن الإنسان في حاجة إلى الإيمان بقوى تفوق قدراته، يعود إليها كلما وقف عاجزاً، خائفاً أمام عظمة الكون، ليرافق الدين وجود الإنسان، منتجا بذلك عديد الأساطير والملاحم التي شكلت تاريخه من خلال مزج الإنسان، مع الطبيعة وكذا تحكم الآلهة وأنصاف الآلهة في حياة الإنسان في مختلف الحضارات القديمة وصولاً إلى الحداثة وما بعدها.

ما جعله يستخدمه لأغراض مختلفة قد لا تمت للدين بصلة، في كثير من الأحيان، بوصفه رابطاً روحياً ومقدساً " إذ تعتبر الحماس أول ما يضيفه الدين للقانون، فتجعل المؤمن ينظر إلى الأخلاقي بنوع من الولاء والتقديس والمحبة، لا يقتصر دور الدين على تلقين الأوامر فقط بل يمنح المؤمن ما يجعله سعيداً بالحياة من أجله أو بالموت في سبيله⁵⁴ فكان ذريعة عند البعض للقضاء على الأقليات وكذا للاستحواذ الاقتصادي المادي أو الاستيطان، فاليهود اعتبروا أنفسهم شعب الله المختار (لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لتكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على الأرض)⁵⁵، وبهذه الصفة تجبروا و استحوذوا على الفلسطينيين وأرضهم وأسموها بالأرض الموعودة، ويقول مارتن بوير "أن روح الشعب والقداسة هي شيء واحد، والقداسة نفسها تسري على مؤسسات اليهود الدنيوية القومية كافة أو تحل فيها، إن نسل الملك داود مقدس، إذ أن الماشيح سيكون بينهم، والأويون مقدسون منفصلون عن بقية الشعب لأنهم من سبط الكهنة، ويوم السبت مقدس لأنه اليوم الذي استراح فيه الإله بعد خلق العالم في ستة أيام وهو

⁵⁴ وليام هارت، إدوارد سعيد والمؤثرات الدينية الثقافية، تر: قصي أنور الذبيان، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ط1، 2011، ص 25

⁵⁵ سفر التثنية. (14/2):

أيضا اليوم الذي خرج فيه اليهود من مصر ولذلك هو منفصل عن بقية أيام العمل العادية، واللغة العبرية مقدسة⁵⁶ " ومن هنا استقى اليهود هويتهم المفخمة المتعالية انطلاقا من الدين، أين تم محاولة استغلاله لصالحهم. كما يعتقدون أن لهم علاقة مميزة مع الإله، ونجد ذلك أيضا لذا الشعوب القديمة فقد مثل " المصريون والسومريون القدامى وقبلهم اليونانيون صورة العالم أو جغرافية الأرض على شكل طبق مسطح يطفو على سطح الغمر وصوروا مصر و سومر على شكل تلة أو قبة أو صخرة ناتئة تحتل موقع الوسط من الطبقة تدعى "سرة الأرض" وكذلك كان الأمر عند الفرس التي تتحدث الملاحم القديمة عن آلهة تنزل من عليائها لتساند شعبها أو أبطالها المفضلين، تماما كما يفعل يهوه⁵⁷ في التوراة⁵⁸ كما عبدوا آلهة غيره وقد كانوا يخونون آلهتهم على الدوام.

حتى أن البيوريتان⁵⁹ حينما انتقلوا إلى العالم الجديد نيو إنجلاند (أمريكا الحالية) شبهوا أنفسهم باليهود في خروجهم الأول في العهد القديم، وجعلوا من العالم الجديد، أورشليم الجديدة حيث سيطرت عليهم فكرة أنهم شعب الله المختار وكان زعيمهم جون وينثروب⁶⁰ ((JOHN WINTHROP بالنسبة لهم كني الله موسى عليه السلام وفيها "أطلقوا على أنفسهم اسم الحجاج⁶¹" فأبادوا السكان الأصليين واعتبروهم وثنيين وجب تصفيتهم، لتطهير الأرض بالرغم من أنهم فروا إليها بسبب الاضطهاد ليمارسوا ديانتهم دون تعسف الكنيسة إلا أنهم مارسوا ذلك على غيرهم.

⁵⁶ عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الجزء 8 مادة يهودية، دار الشروق، القاهرة، 1999، ص 37.

⁵⁷ يهوه او ياهو هو الإله خاص بالشعب اليهودي في التوراة وهو كائن له صفات البشر، يأكل ويشرب ويغضب، يحب ويغضب ولكن ليس بشري.

⁵⁸ فراج عفيف، اليهودية بين حضارة الشرق الثقافية وحضارة الغرب السياسية، دار الآداب، بيروت، ط2002، ص 1، 45.

⁵⁹ اسم مشتق يعني الطهر والنقاء وهم البروتستانتالذين طهروا كنيسة إنجلترا قبل انتقالهم إلى العالم الجديد.

⁶⁰ جون وينثروب : محامي تطهيري إنجليزي ثري وأحد الشخصيات الرائدة في تأسيس مستعمرة خليج ماساتشوستس وحاكما لها.

⁶¹ فوستر وفوك: ثلاث قرون من الأدب، ترجمة يوسف الخال وآخرون، دار مكتبة الحياة، بغداد ط1، دت، ج1، ص 25.

فقد كان الدين المسيحي في العصور الوسطى وسيلة للاستحواذ على السلطة والمال فاستغله الكهنة أبشع استغلال، وصولاً إلى صكوك الغفران التي يبيعها الكاهن بمبلغ كبير مقابل أن يضمن للشاري مكاناً في الجنة، وراحوا يقتلون العلماء والمفكرين ليضمنوا بقائهم واستحواذهم فأحرقت كتب فولتير، ليجعلوا من حياة الأشخاص جحيماً دنيوياً في رعاية الباباوات، وهذا ما جعل البعض منهم ينشقون عن الدين منحازين إلى العلم، وأطلق عليهم اسم المنتورون⁶² أين كانت هذه الفئة سبب في نشوء الحركة العلمانية التي تسعى لفصل الدين عن الدولة، باعتبارها بديلاً عن الحياة الدينية التي تسيطر على الفرد، وإن كبح جماح الفرد تحت مظلة الدين، خارج عن طبيعته وعن حاجة المجتمع لهؤلاء الأفراد، غير أن هذه الحركة ظلت نظام يشمل بعض الدول الإمبريالية دون غيرها .

فالإنسان يحتاج للإيمان بأي قوى خارجية ليعطي سبباً مقنعاً لوجوده الإنساني، و أن نفس الدول التي ادعت العلمانية، قادها إيماناً إلى القيام بأشياء لا تمت بأية صلة للإنسانية، كالحروب الصليبية التي كانت لنشر الدين المسيحي فأغرقت الدماء تحت لوائها، وقطعت الأعناق حتى اختلطت المياه بالدماء . واعتمده الاستعمار الفرنسي لإغراق المجتمع الجزائري في الخرافات والتفاهة في محاولة استغلال إيمان الشعب " إذ أن الإدارة الفرنسية قد صادرت دين العرب لكي تعمل على تفتيتهم وانتزاعهم من جوهرهم العربي. وهي تختار رجال الدين الإسلامي من بين عملائها، وقد احتضنت أحط أنواع الخرافات التي تؤدي إلى سيادة التفرقة.⁶³

ولم يبق المسلمون بمعزل عن ذلك في العصر الحديث، حيث أنه وباسمه تم التشكيك وتكفير حتى فيمن يوحدون الله ويحملون نفس الهوية الدينية ويعبدون الإله نفسه ويمارسون الطقوس نفسها، ويزورون نفس أماكن العبادة غير أنهم كُفروا لأسباب سياسية أكثر منها روحانية، أطلق عليهم واسيني الأعرج اسم "حراس النوايا"⁶⁴،

⁶² والتنوير هو عكس العتمة أو الظلام، وهو تيار عقلي حرك أوروبا كلها في ق 18 وامتد إلى أمريكا، مستمداً مبادئه من جون لوك .

⁶³ جان بول سارتر: عارنا في الجزائر، مرجع سابق، ص 18

⁶⁴ عبارة استخدمها واسيني الأعرج في روايته، ينظر واسيني الأعرج: سيدة المقام (الجمعة الحزينة)، دار ورد للطباعة والنشر، دمشق، ط 1، 2006، ص 38

"حيث أصبحت الظاهرة الدينية الخالصة غير موجودة، فهي ظاهرة اجتماعية واقتصادية ونفسية وبالطبع ظاهرة تاريخية"⁶⁵ ما للدين من تأثير على الحياة عامة، فقتل الأخ أخاه باسم الدين وهذا التعصب المفرغ من محتواه هو في حقيقة الأمر ما سماها أمين المعلوف "بالهوية القتالة"⁶⁶ فيقول: "بسبب المفهوم الضيق و الحصري والملتزم، التبسيطي الذي يختزل الهوية كاملة إلى انتماء واحد ينادي به بغضب "هكذا يصنعون" السفاحين"⁶⁷.

إن محاسبة الآخر لعدم امتلاكه لهويتي هو ضرب من اللامعقول، فلا يوجد استنساخ في الهوية، و هي قابلة للتنوع ما يخلق تفردا في الهويات، وقد قال الله عز وجل في سورة الحجرات الآية 13 {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} ⁶⁸ فالاختلاف سنة كونية في الحياة، وقد تنصل عديد البشر من الهوية الدينية في العصر الحديث بما يسمى بالعلمانية، وهنا لا يؤمنون بغير العلم كحقيقة لاشك فيها وجعلوا من "الدين أفيون الشعوب"⁶⁹ بقول كارل ماركس، فاصلين إياه عن الدولة ومؤسساتها.

إن التنكر التام للدين أمر مستحيل بإجماع علماء الأديان "الإنسان اللامتدين في حالة النقاء هو ظاهرة نادرة حتى المجتمعات المعاصرة الأكثر تجردا من القداسة، إن غالبية "من لا دين لهم" مازالوا يتصرفون دينيا بلا علم منهم ولا يتعلق الأمر فقط بكتلة "الخرافات" و "الطابوهات" الإنسان العصري والتي لها بنية وأصل سحر-ديني، ولكن الإنسان الذي يشعر بنفسه ويدعي اللاتدين مازال يتصرف بميثولوجيا كاملة

⁶⁵ ميريسيا الياد: المقدس والمدنس، ترجمة: عبد الهادي عباس، ط1، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، سورية 1988، ص . 148

⁶⁶ أمين المعلوف: الهوية القتالة (قراءات في الانتماء والعولمة)، نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1999

⁶⁷ المرجع السابق: ص 10

⁶⁸ الحجرات، 13

⁶⁹ محمود عباس العقاد: أفيون الشعوب، مؤسسة هنداوي للتعليم الثقافي، مصر، 2012 ص 7،

مموهة بطقوس مختلفة⁷⁰ فالدين جزء من الذات الإنسانية وهي تبحث عن الوجود الإلهي انطلاقاً من ذاتها، فلا بد للإنسان أن يؤمن بشيء ما حد القداسة.

لا يمكن أن نلوم الدين عن سوء فهم واستعمال البشر له، فالدين الإسلامي قد جعل من القبائل المتناحرة العصبية، أمة إسلامية واحدة بحدود شاسعة غيرت خريطة العالم لقرون من الزمن كما أنه رسالة إنسانية جمعت الإنسانية في توحيدها لله إذ يقول عز وجل بعد بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁷¹. ما يجعل الهوية الدينية تتوسع على غيرها، لتنصهر فيها الحدود الجغرافية واللغوية.

مما سبق يمكننا أن نشير إلى تعدد مكونات الهوية الإنسانية إذ تنسج الحدود السيكولوجية للجماعة عبر شبكة متكاملة من العلاقات بين الدين واللغة والتاريخ والرقعة الجغرافية التي ولد فيها والتي يعيش فيها، والنمط الثقافي والاقتصادي والسياسي، الذي يعيش تحت لوائه أي شخص. ما يجعل من الهوية هويات، هوية ثقافية وهوية لغوية وهوية دينية وأخرى سياسية لتنصهر معا في تكوين الهوية الشخصية الفردية لكل إنسان، وهي ما تعني حقيقة إحساس الفرد بتفرده أي أنه هو نفسه وليس غيره، كذات متكاملة بعيدة عن حالات الفصام.

وإن الاختلاف بالذات هو الذي يجعله يتعرف على ذاته. فهي "نتيجة عملية لغوية مزدوجة بين ما يحقق فرادة أمر ما أو شخص مقارنة بشخص آخر أو أمر آخر: الهوية هي الاختلاف. والثاني هو العملية التي تحاول تعريف المشترك في فئة من العناصر، المختلفة كلياً عن فئة أخرى. الهوية: هي الانتماء المشترك، هاتان العمليتان أساس مفارقة الهوية: الفريد هو المتشارك. ولا يمكن عرض هذه المفارقة، إن لم نأخذ

⁷⁰ كليفورد جيرتر، تأويل الثقافات، ترجمة، محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط2009، ص1. 291

⁷¹ سورة سبأ، 28.

بعين الاعتبار العنصر المشترك للعمليتين: مماثلة الآخر والمماثلة عبر الآخر.⁷² و من هذا المنظور فان الهوية لا تكون إلى من خلال الآخر، ومع الآخر. ويمكن أن يتمثل الإنسان ذاته من خلال اختلافه عن الآخرين ما أسماه ريكور: "الذات عينها كآخر"⁷³ "SOI-MEME COMME UN AUTRE"⁷³ ويتحقق ذلك التمثل في الزمن وفي الموقف التاريخي ليجعل من السرد أحد أهم مكونات الهوية .

ج - السرد:

يعد السرد عنصر مهم للتعبير عن الذات وهي ميزة إنسانية محضة، فهو يجسد خبراتنا وذاتنا من حيث إنها مفكرة ومخبرة، أخذت من العالم ما يكفي لتعبر عن وجودها في حيز مكاني، وفي فترة زمنية معينة فهي شكل لمعرفة الذات والعالم من حولنا .

السرد قدس قدم الإنسان نفسه مرتبط بوجوده ككائن بشري مارس الحكي لينقل حركة تواجهه في الزمان والمكان إلى من هم حوله ، غير مرتبط بوسيلة نقل الحكي، وقد ظهر هذا المصطلح في القرآن مرة واحدة بعد بسم الله الرحمن الرحيم {أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} ⁷⁴، وقد فسر في هذا المضمون ب"الخرز في الأديم، والثقب كالتسريد فيهما ونسج الدرع، واسم جامع للدروع، وسائر الحلق، وجودة سياق الحديث، ومتابعة الصوم، وسرد، كفرح صار يسرد صومه."⁷⁵ أما في لسان العرب "أن السرد مقدمة شيء إلى شيء تأتي به متسقا بعضه في إثر بعض متتابعاً"⁷⁶ ،ومن خلاله تتحقق مماثلة الذات عبر الآخر و بالآخر.

⁷²كلود دوبار: أزمة الهويات (تفسير، تحول)، ترجمة: رندة بعث، المكتبة الشرقية، ط1، لبنان، 2008، ص . 18

⁷³ينظر بول ريكور: الذات عينها كآخر. مرجع سابق

⁷⁴الآية 11 منسورة سبأ

⁷⁵الفيروز ابادي: القاموس المحيط، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان، (د ت) من مادة سرد

⁷⁶ابن منظور: لسان العرب، تحقيق عبد الله لكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، 1979، مادة سرد

لتكتسب الهوية حيويتها وفعاليتها فتخرج من حدود الرمزي إلى المجال العملي أي الفعل بالإنتاج سواء الفكري المكتوب أو المادي الجسد كالمعماري وغيره وهي لا تختلط مع الهوية بقدر ما إنها تجسد الهوية لتترك أثرها وتؤكد تفردا أو تدعمها وتوجهها، "إذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك فإننا سنقرأ الهوية بوصفها سردا، بما أنها لا تتحقق إلا في السرد و بواسطة السرد وهي الهوية التي يسميها بول ريكور "الهوية السردية " أي ذلك النوع من الهوية الذي لا يتحقق إلا بالتأليف السردية وحده، حيث يتشكل الفرد والجماعة معا في هويتهما من خلال الاستغراق في السرديات والحكايات التي تصير بالنسبة لهما بمثابة تاريخهما الفعلي".⁷⁷

حيث تجمع بين السارد والزمان والمكان، يتآلفان في وحدة كلية، يبرز من خلالها الحضور الفعلي للإنسان، و هو الأثر الذي يتركه بعد موته فهوية الإنسان لا تكتمل إلى بعد موته كما يقول الجاحظ" قالت الفلاسفة لا يستكمل الإنسان حد الإنسانية إلا بالموت لأن حد الإنسانية أنه حد ناطق ميت"⁷⁸ كما ذهب لذلك الوجوديون فذلك هو حد الإنسان الذي يكتمل بعد موته، لتكتمل هويته، كما أن "التخييل السردية يحاكي الفعل البشري من خلال مساهماته في إعادة تشكيل وصياغة بنياته، وأبعاده بحسب التشخيص المتخييل للحبكة. والتخييل يملك هذه القدرة على إعادة صنع الواقع العملي في الحدود التي يستهدف فيها النص أفقا جديدا للواقع أسميناه عالما"⁷⁹ فتفتح النصوص على التأويل الذي يبحث عن تفسير لمعنى النص وعلاقتها بالحياة، ليعطي لنص حياة أخرى تبدأ مع قراءها.

أين يقتضي سؤال الهوية أن لا تكون شيئا آخر غير نفسها من خلال صيغة لغوية تحقق تناغما وانسجاما أو تطابقا فيفرضي بنا إلى نظرية الأدب ودراساته، "إن نصوص الأدب هي التي تكتب حد الإنسان، بمعنى

⁷⁷ نادر كاظم: الهوية والسرد، دار الفراشة للنشر والتوزيع، ط2، الكويت، 2016، ص 9

⁷⁸ أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: المحاسن والأضداد، مكتبة الخناجي، القاهرة، ط1، 1324، ص 255

⁷⁹ مجموعة مؤلفين، فلسفة السرد: كتاب فلسفة السرد، المنطلقات والمشاريع، مسائل فلسفية، بيروت: لبنان، ط1، 2014، ص 92

أنها موضوع انكشافه أمام نفسه وفي الوقت ذاته موضوع شهادته عن ذاته⁸⁰ وهو الجانب النحوي للإجابة عن سؤال ماهية النصوص وحقيقة تواجدها من خلال الجانب البلاغي الذي تحدث مارتن هايدغر عنه في قوله "إن الاستعاري يوجد في قلب الميتافيزيقا" أي أن ما وراء المعنى يسكن في ما وراء الطبيعة⁸¹ وهو على صلة وثيقة بالكينونة فعبه ينكشف وجود الإنسان من حيث كونه حقيقة وحضورا ومعنى ويشي بتجربة إثبات سالبة أو موجبة ذلك هو محلّ حدّ الإنسان، المحل الذي يفضحه المنطق والتعقل والاحتراس، من خلال التأويل، فيعبر عن لحظات الجنون والموت والحرية، المشاعر والحب والكره شدة الهوى .. وغيرها.

والارتباط الكينونة بالجانب الميتافيزيقي للإنسان، وجب التفكير في هذا المعنى لغويا فاستند بمجموعة من المعاني "الكينونة" وكل ذلك من خلال السرد. فلا يمكن إنكار العلاقة بين الحياة والسرد بوصف هذا الأخير صورة للحياة المعاشة ولا يمكن حصر السرد في الخيال، فالذات توجد دوما داخل التاريخ والكاتب لا يمكنه إلا أن يلقي من روحه وهو يحكي، لا ينفصل عن ذاته، حتى في متخيله، لذلك يجمع السرد بين الواقع والمتخيل.

كما أنّ السرد لا ينفصل عن الحياة لذلك وجب قراءة النصوص داخل التاريخ الذي أنجب هذا النص، القراءة النقدية من الجانب الجمالي، للنصوص يفرغها من روحها، يقول في ذلك إدوارد سعيد "ينبغي علينا أن نقرأ النصوص المكنونة العظيمة [...] باذلين الجهد لاستخلاص ما هو صامت أو موجود هامشيا أو مقمومعا عقائديا"⁸². وهي ربط العلاقة بين النصوص والعالم الذي أنتجت فيه، الظروف العامة لإنتاج تلك النصوص هي المادة الأولية التي صنعت هذه النصوص.

⁸⁰ حسام نايل: مرجع سابق ص . 36

⁸¹ م بول ريكور ومجموعة من الكتاب، الوجود والزمان والسرد (فلسفة بول ريكور)، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب ط1، 1999، ص15 من مقدمة السعيد الغانمي عن الكتاب

⁸² إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبوديب، دار الآداب بيروت، ط03، 2004، ص126

ومن خلالها يستقى المخفي والمكبوت، وخاصة في الكتابات الكولونيلية أو النسوية أو حتى الزنجية على حد سواء، لأن حدود الحرية فيها ضيق أو معدوم فهي تحمل من المضمرة ما لا تحمله من الظواهر، ومن جانب آخر فهي بمثابة تاريخ تلك الشعوب، التي تروي معاناتهم، وآلامهم صراهم وكذا تطلعاتهم، لتكون علاقة جدلية بين الكتابة من التاريخ والقراءة داخل التاريخ، ليخرج النقد السردي من الإطار الضيق الشكلي الجمالي إلى المقاربة الثقافية، وذلك أن "العوامل النصية على درجة كبيرة من التركيب والتعقيد، فهي تتصل بالعوامل الواقعية وتنفصل عنها في الوقت نفسه، تتصل بها لأنها تؤدي وظيفة تفسيرية لتلك العوامل حينما تضع تحت الأنظار نماذج متناظرة عبر الصوغ السردي، تتوافق مع السنن الثقافية التي يعتمد عليها المتلقي في إدراكه وفهمه، وتنفصل عنها لأنها تشكل نفسها من عناصر تخيلية مخصوصة تقوم بتمثيل رمزي".⁸³

يتم السرد من خلال نقل الحكيم إلى تمثيل الحدث من مجرد حكاية حتى وإن كانت واقعية إلى جعلها تمثيلية من خلال النقل والروي مستعينا في التمثيل على تأويل الحدث حيث يحاول الراوي في كل مرة إكمال المشاهد التي تنقصه من حكاية ما وبحسب الغرض من وراء هذه الحكاية، حيث يستعين في نقله للحدث بالخيال وهو يقوم "بملء البياضات وينسي منذ تلك اللحظة أنها كانت بياضات وفراغات، فما اعتقد انه رآه بات يعتقد أنه رآه فعلاً"⁸⁴ وهكذا يرتبط الواقعي والمتخيل فيمتزجا ليكونا نصاً أهم ما يسأل فيه الراوي نفسه، هو سؤال لمن اروي والغرض من الرواية ليحبك أحداثها .

ولأن السرد هو محاولة تمثل الذات عبر الآخر كان لابد للكتابة النسائية أن تعبر هذا المعبر، لتقول أنها موجودة لا كشاهد على التاريخ بل كفاعل في هذا التاريخ، وقد مارست المرأة الحكيم، فقد عبرت شهرزاد عن

⁸³ عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة كتنفيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأ، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط2003، 1، ص63

⁸⁴ جون ميشال آدم: السرد، تر: أحمد الورداني، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط2015، 1، ص23 .

وجودها، محاولة الحفاظ على هذا الوجود مستعملة في ذلك الحكي، تجعل منه وسيلة للبقاء وبالتالي وسيلة للحياة، ومن هذا المنطلق يكون السرد هو وسيلة لتواجد الفعلي لذات وفرصة لتغلغل في الآخر.

3- الكتابة السردية النسوية وفعل الكينونة:

إن الكتابة النسوية نوع من أنواع المقاومة، مقاومة سردية، وذلك لما تعرضت له المرأة من التهميش الثقافي ومن سيطرة الرجل الذي جعل التاريخ والمستقبل في خدمة الرجولة على حساب الأنوثة كمجتمع بطريكي "أبوي" يضع قوانين تخدم حاجياته، لا يختلف في ذلك عن الاستعمار وأفعاله بالشعوب المستعمرة ولا بالزنجية وحالة الاضطهاد الذي عانى منها السود في مراحل سابقة في الولايات المتحدة الأمريكية، وبالرغم من تغير المعطيات ونوع الاستعمار واستغلال الرق إلا أن هذا لا يعني زوالها وإنما تغير شكلها لذلك كان لابد من تغيير أشكال المقاومة أيضاً، تنبثق الحركة النسوية من حركات الما بعد ، ما بعد البنيوية وما بعد الاستعمارية كرد فعل ينسجم مع ما بعد الحداثة.

لتنهار الحدود الفاصلة ما بين الحقيقة والوهم وكذلك الواقع عن الخيال، ليستقط جدار الوهم الذي بناه الرجال لدهر من الزمن، واقتنعت المرأة بذلك الدور، الذي أعطاها الرجل حدوده، لتظهر الحركة النسوية "كحركة نقدية تقوم على مراجعة ونقد وتعديل النظام السائد في البنيات الاجتماعية، القائمة على مركزية ذكورية، والتي منحت للذكر السلطة المطلقة على المرأة، مشرعا لما يجب أن تكون عليه المرأة، ومن منظور الهرمية الاجتماعية، التي رسمها الذكر، لا تمثل المرأة أكثر من جنس ثان، لا تأثير له على مجرى التاريخ، بل وظيفته الوحيدة أن يكون في خدمة الذكر."⁸⁵ والذي عبرت عنه سيمون دي بوفوار (Simone de Beauvoir) بالجنس الثاني "على اعتبار أن المرأة لا تنتمي إلى الجنس البشري بل إلى جنس آخر أقل إنسانية من الجنس البشري.

⁸⁵ ينظر: رياض القرشي، النسوية قراءة في الخلفية المعرفية لخطاب المرأة في الغرب، دار حضرموت للدراسات والنشر، ط2008، ص1، ص25

وقد كانت بوفوار متأثرة برفيقها سارتر والفكر الوجودي، في تصورهما للإنسان كمشروع للكينونة أساسها الحرية والمساواة "لترى أن حبس المرأة في خانات الأم والزوجة والحيبة، دون أن يؤخذ في عين الاعتبار ليس فقط سعادتها وإنما حريتها وكرامتها، يعني جعل الرجل كائن غير جوهري، غير فاعل دونيا و امتثاليا، مقابل الرجل الكائن المتجوهر العلوي المتعالي، فالمرأة هي الآخر متمثلة في الآخر الجوهري، في مقابل الذات الرجل، في حالة صراعية بين الذات والذات الأخرى التي تسعى لمصادرة غيرية للآخر".⁸⁶ وهو ما يؤكد جدلية العبد والسيد، وكيف يتم تبادل الأدوار بين السيد الذي يصبح غير قادر على الاستغناء عن العبد بل أكثر من ذلك إذ يصبح عبدا له .

ومن المؤكد أن المرأة كافحت طويلا لرفع الظلم، إذ أنه حيثما وجد الظلم وجدت المعارضة والمقاومة، وهذا ما أثبتته، الاضطهاد عبر التاريخ، والحركة البطريقية قديمة قدم التاريخ نفسه، أين تحولت المجتمعات من النظام الأمومي إلى الأبوي منذ المجتمعات الأولى، أين كانت النساء تمارسن الصيد، كما تحكمن القبائل غير أن تحويل النظام الغذائي لزراعة جعل الأمر شاقا بالنسبة للمرأة التي تحمل صغيرها لتسعة أشهر، يتغير الدور المناط بها، فيتغير معه نظام الحياة، فيضع الرجل قوانينه، التي حرمتها من أبسط حقوقها.

ففي الديانة السابقة للإسلام يحرم على المرأة أن تحمل الكتاب المقدس فهي نجسة ، أو مصدر للخطيئة فقد ربطت بها الخطيئة الأولى لسيدنا آدم و أمنا حواء ، والتي تعد الخطيئة الأصل التي تنبثق منها كل الخطايا الإنسانية يقول تعالى في كتابه الكريم {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى⁸⁷} غير أن الكتاب المقدس "العهد القديم" وفي سفر التكوين جاء بتفاصيل أدق عن الخطيئة الأولى والتي تتحدث عن إغواء الحية التي كان في جوفها الشيطان ، لحواء والتي بدورها أغرت آدم بارتكاب تلك

⁸⁶حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2007، ص. 112.

⁸⁷سورة طه، . 121_120

الخطيئة فقال آدم عليه السلام: "المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت"، فقال الربُّ الإلهُ
للمرأة: «مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ».⁸⁸

ومن هذا المنطلق أصبحت تشبه المرأة بالحَيَّة، ومصدر الخطيئة الأولى، لتكون مصدر كل إغواء، وحتى اللغة
اقحمها الرجل في معركته، «فبالإضافة إلى تاء التأنيث التي تميز بين المذكر والمؤنث على مستوى البنية
الصرفية، يمنع التنوين عن اسم العلم المؤنث كما يمنع عن إسم العلم الأعجمي سواء بسواء. في هذه
التسوية بين المؤنث العربي والمذكر الأعجمي نلاحظ أن اللغة تمارس نوعاً من الطائفية العنصرية لا ضد
الأغيار فقط بل ضد الأنثى من نفس الجنس كذلك، وهذا أمر سنلاحظ امتداد له على مستوى الخطاب
السائد المعاصر⁸⁹.» وليست اللغة العربية وحدها من تمارس التمييز والعنصرية، فهي تشترك مع غيرها من
اللغات في الانزياح للمذكر فيلغي وجود ذكر واحد مجموعة لا متناهية من الإناث . فيقول ابن جني "إن
تذكير المؤنث واسع جداً لأنه رد إلى الأصل"⁹⁰ ليكون التذكير هو أصل التأنيث.

ليتم إلغاء مشاركة المرأة في الحياة السياسية، والثقافية والفكرية، وحتى التعليم وحددت لها فروع خاصة
كتمريض دون الطب، لتبدأ الحركة النسوية في الدفاع عن حقوقهن، من خلال الكتابة، وذلك "فعندما عاد
الفيلسوف الإنجليزي الشهير «توماس بين» إلى بلاده تعرفت عليه امرأة لعبت دوراً مهماً في قضية تحرير
المرأة هي «ماري ولستون كرافت» (1809 - 1898) فقد قرأت بإمعان كتابه الرائع عن «حقوق
الإنسان» (1891 - 1892) وتأثرت به، فأخرجت كتابها الشهير «دفاع عن حقوق المرأة» عام 1892
، فلاق معارضة عاصفة؛ فهو يعتبر أول كتاب مهم في الحركة النسوية في إنجلترا. وكانت صاحبه:

⁸⁸ سفر التكوين، 3.

⁸⁹ نصر أبو حامد ابوزيد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة، المركز الثقافي العربي، ط2004، 3، ص. 30.

⁹⁰ ابن الجني: الخصائص 2/415، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب، بيروت، 1975.

تتوقلأن ترى التمييز على أساس الجنس قد تلاشى تماما..». كما أنها نادى بالتعليم العام المختلط، فضلا عن حق النساء في العمل بالتجارة والحرف، وقالت إنه « يمكن للنساء أن يدرسن فن العلاج، ويكن طبيبات، كما أنهن ممرضات..!».⁹¹

ولم يكن الأمر بالهين فقد منحت السلطة لنساء إنجلترا الحق بالمشاركة في الانتخابات سنة 1911 ثم نرعت عنهن هذا الحق في العام التالي، فقممن من خلالها بمظاهرات صاحبة، حيث حطمتنوافذ المؤسسات الحكومية، فسجن الكثيرات منهن، ليقمن بعد ذلك بإضراب عن الطعام، وتستمر المواجهات العنيفة لسنتين قبل أن تصبح لها الحق في الانتخابات انطلاقا من سن الثلاثين فما فوق، لتسير على طريقها النساء الفرنسيات ومع الانقلاب على الإقطاع من قبل المتنورين، الذين ضاقت بهم سلطة الكنيسة، والامتيازات التي يحتص بها الملك وبعض من قومه على حساب الأغلبية، فثارت النساء، لأخذ حقهن في وسط المطالبة بالحقوق، وطلبن المساواة بالرجل في الحقوق والأجور وكذا رفع الظلم الممارس عليهن في البيوت، فكانت الحركة نوعا من المطالبة بالحقوق المشروعة، غير أنها ارتقت بعد ذلك إلى أبعد من ذلك للتأثير في مناهج البحث الحديث.

وتعد أحداث فرنسا 1968، أي حركة الطلاب، نقطة تحول مهمة في الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية في فرنسا وكذا في تغذية الحركة النسوية لتصبح نقدا نسويا "والتي كانت تمردا عن سلطة الأب السياسي، واحتجاجا عارما كاد أن يقوض مؤسسات سلطة النظام الأبوي، وقد اعتمدت في مسعاها هذا على أطروحات كل من "داريدا" و"لاكان"⁹² فقد أخذنا عن "التفكيك" كسر مبدأ الثنائيات وهدم التضاد، يحولن من اللغة التي كانت أداة طبيعة في يد الرجل إلى وسيلتهن لكسر المفاهيم الثابتة وإيجاد طريق ثالث لا يعترف بالثنائيات المتقابلة، وأخذن من "لاكان" اللغة الذي كان يعتمد عليها كوسيلة للعلاج النفسي.

⁹¹سوزان ألس واتكنز، مريزا رويدا، مارتا رود نجويز، الحركة النسوية، تر: جمال الجزيري، المجلس الأعلى لثقافة، ط2005، 1، ص10

⁹²حفناوي بعلي: المرجع السابق، ص 113

لم يخرج النقد النسوي عن هذه الوسيلة المهمة، في علاج أمراض المجتمع، من خلال الاعتماد على التعارض بين الخيالي والرمزي، ليكون أسلوبهن في الكتابة، والذي يعتمد على الرمز، في محاولة تشفير اللغة، وجعلها أداة غير متاحة للجميع "وهو ما استثمرته الناقدة جوليا كريستيفا (Julia Kristeva)، في عملها حيث تقوم بتوظيفه داخل السياق الجديد على نحو خاص، فتقترنه بالهامشي، وتنسبه إلى ما يوازي خيال "لاكان" وكانت هيلين سيكسو (Hélène Cixous) تتردد به إلى خارج مناطق الهيمنة النظرية، وتشير إلى قيامه خارج المطلقات المؤسسة، أي بين ثغراتها المظلمة بقانون الأب".⁹³ اهتماما بالحقائق المهمشة من المنهج التقليدي، وكسر خرافة الأصل، أو النقاء النوعي.

لكي يسمع الصوت المقموع، كان لابد من الصراخ، وكانت الوسيلة هي الكتابة حيث كتبت "فرجينيا ولف (Virginia Woolf)" "غرفة خاصة بالمرء وحده" "حينما طلب منها أن تكتب عن "النساء والكتابة" معبرة عن الخصوصية والقدرة على التأمل، التي يجب أن تتحلى بها المرأة وأنها قبل البدء في الحياة الثقافية أو الكتابة كما قالت: "إذ أرادت امرأة الكتابة فعليها أن تمتلك غرفة تخصها وحدها وبعض المال"⁹⁴ وبرغم من بساطة هذه الجملة إلى أنها تحمل في طياتها الكثير إذ لا تستطيع المرأة أن تمارس الكتابة، دون أن تتمتع بالخصوصية في حياتها لتأمل، لتقرر ما تود أن تكون عليه في كتاباتها، وان الاستقلالية النفسية والعقلية لا تكتمل إلا مع الاستقلالية المادية، وبعد أن تأخذ هذا الجانب من الحرية والاستقلالية يمكنها فقط البدء في الكتابة تصف في كتابها ما تعيشه المرأة من قمع سياسي واجتماعي وثقافي بل حتى في ابسط الحقوق كالحرمان من دخول الجامعة، والمكاتب، وكل هذا لن يكون إلا في صالح الرجل، وهذا ما يقوم به الاستعمار مع الدول المستعمرة حيث يمنعها من الحق في المعرفة التي تبقى خاصة به كنوع من السلطة والقوة، التي تميزه. وتقهر معنويات الأنثى وتحطمها

⁹³المرجع السابق، ص ن .

⁹⁴فرجينيا ولف: غرفة تخص المرء وحده، تر: سميه رمضان، مكتبة مدبولي، ط2009، ص1، ص24

ويقول بير بورديو (Pierre Bourdieu) عن ما كتبه فرجينيا "أنها أولت تقديم رؤية أنثوية بالرؤية الذكورية، أي فرض لغة المرأة وذوقها ونكهتها في الكتابة، وإرساء مفهوم الجملة النسائية، والأسلوب النسائي، وفي تصوير سمات الرجال ودخائل النساء، بطريقة ثورية رافضة التسليم بالقوالب الجاهزة، وذلك بتأصيل بناء تقليد نسائي، راسخ في الكتابة.⁹⁵ وكأهاً بذلك تؤسس لرؤية نقدية جديدة التي تظهر في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية وابتداع نمط سردي خاص بالأنثى يلغي الأنماط السردية التي مارسها الرجل قبلاً.

فالكتابة ثورة على النظم البالية، وفرضا لكيونتها كذات مفكرة تعي العالم من خلال وعيها بذاتها، تستخدم في ذلك كريستيفا لغة مشفرة يصعب فهمها مجارية في ذلك صعوبة وتعقيد المجتمع ما بعد الحداثة في كتاباتها، وذلك من خلال "إعادة النظر في الجانب الملتبس والمتناقض داخل ذواتنا وكيوناناتنا، بين أجسامنا ومشاعرنا، عبر طيات هذا الاختلاف المفصلي؛ حيث يعيش الناس غرباء عن أنفسهم، عن مشاعرهم وأجسادهم، وذلك لحرصهم في الكلام والحديث و الثقافة على لغة الاستهلاك والعرض⁹⁶ وهي كغربة الذات عن نفسها حيث لا يكون ما يرد، وإنما ما يجب أن يكون عليه، وذلك لأن كل الأفعال والأقوال خاضعة لرقب الذاتي، وهو الضمير الذي ينشأ وفق رغبة المجتمع، أين تخلق حالة من التعارض والتضاد بين ما يريده الشخص وما يجب أن يكون عليه، ما يؤدي إلى نشوء فصام في الذات، (انشطار الذات) تخفى فيه الشخصية الحقيقية للإنسان ويعيش تحت رحمة أخرى وهذا ما يرر دعوتها إلى الكتابة اعتماداً على المجاز، الذي يكون بديلاً عن الحقيقة، لتفتح الباب على مصراعيه للتأويل لبدأ النص حياة جديدة مع قارئه، أين يجب أن يمتلك هذا القارئ تقنيات ووسائل يلج من خلالها إلى خبايا النص مثل استخدام حفريات (ميشال فوكو)، أين

⁹⁵بير بورديو: السيطرة الذكورية، ترجمة أحمد حسان، دار العالم الثالث، 2001، ص. 63

⁹⁶محمد بكاي: الكتابة وتأنيت الخطاب رؤية في النقد النسوي عند كريستيفا، مجلة أبوليوس، العدد 8، جانفي 2018، ص33

الأفكار تدور في فلك واحد حيث لا يمكن الفصل بينها أو تجزئتها كبنية واحدة متكاملة واستخراجها ليكون معطى أولي أين يجب التنقيب في النصوص، للوصول إلى فحواها.

وقد عارضت كريستيفا بوفوار في مقولتها المشهورة "إن المرأة لا تخلق أنثى بل تصبح أنثى" بقولها بذل ذلك ينبغي القول "نحن نولد إناثا ولكن نصبح ذات متلاعب بها"⁹⁷ وبهذا تؤكد كريستيفا

رؤيتها أن على المرأة إلا أن تبقى على طبيعتها، دون التشوهات التي أحاطها بها المجتمع، وكذا المطالبين من النسوة بعزل المرأة عن أمومتها هاته التي تعد جزءا مهما في أنوثتها حتى لا يتم عزلها عن ذاتها، كأنثى وعن أمومتها لتتهم كريستيفا بالجانب الآخر للأمومة ألا وهو الرعاية أو الطفولة فترى أنه يجب تقسيم الواجبات. ومع كريستيفا تبدأ مرحلة جديدة في الكتابة والنقد النسوي على حد سواء، لا تكون فيها الأنثى إلا ماهي عليه ليكون الاختلاف الجسدي، أساس كل اختلاف لا من مبدأ فرويد حول الفحولة، الذي تطرقت له في رسالة "الدكتوراه التي وضعتها كيت ميليت (Kate Millett) بعنوان (السياسة الجنسية) والتي بينت من خلالها الفرق بين الجنس البيولوجي، والجنس البسيكو ثقافي."⁹⁸ أي بين الجنس والجنسانية.

تستهجن عقد النقص التي طرحها فرويد فيما يخص المرأة. وتضع "سارة جامبل" أربع أنماط اعتمدت عليها الكتابة النسوية هي البيولوجي، واللغوي والتحليل النفسي، والثقافي حيث أكدت أن ما كتبه المرأة هو دائما نسائيا، غير أنه يصعب تحديد ما هو نسائي حق.⁹⁹ فقد اعتمدت النسوية في أوروبا على علم النفس في تحليل الذات النسوية وعلاقتها بالمحيط، لتكون اللغة هي من يضع الفواصل بين الجنسين، فتعبر

⁹⁷المرجع السابق: ص44

⁹⁸كريس بولديك، النقد والنظرية الأدبية، ترجمة خميسي بوغرارة، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة قسنطينة دار الهدى، الجزائر،

2004، ص214

⁹⁹ ينظر: سارة جانبل، النسوية وما بعد النسوية، (دراسات ومعجم نقدي)، ترجمة: أحمد الشامي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2002، 1،

المرأة عن جسدها المختلف بكسر كل الأنماط الذكورية من خلال اللغة، التي هي كنظام رمزي، أبوي أساساً، من خلال تقويضها أو تفكيكها، وذلك باستخدام لغة الجسد وتضمينه في الخطاب السردي في محاولة لخلق هوية أنثوية خاصة، إنّ الكتابة النسوية لا تشير فقط للمعارضة الثنائية بين الذكور/الإناث، من خلال اللغة، إنّما بـ: "المكان المناسب لإعادة بناء هوية"¹⁰⁰ أين لا تكون فيه المرأة شاهدة للأحداث وإنما محرّكة، مشاركة في صنعها، لتدخل النساء المعجم الثقافي وكذا الفعل الثقافي، وقد أثّرنا بعض الأمثلة عن أهم من مثلنا الحركات النسوية في كل من فرنسا، إنجلترا وكذا أمريكا إلا أن القائمة طويلة لسنوات من النضال الشرس في سبيل تحرير المرأة ورفع الظلم عنها.

ولم تكن النساء في العالم الثالث بعيدات عن المشهد الثقافي التحرري فقد عانين من تأثير الاستعمار الفعلي من المحتل الأجنبي، وكذا الحيف الاجتماعي والفكري التي عانت منها النساء في العالم على حد سواء، فقد كتبت الهندية (غاياتريتشكرافورتيسيفاك Gayatri Chakravorty Spivak) في مقال بعنوان "الحركة النسائية الفرنسية في إطار دولي" أن تحليلات الخطاب الكولونيالي توضح في المقابل أن التاريخ ليس إنتاج الحقائق المجردة من الأهواء وحسب، بل إنه عملية من "العنف الإبيستيمولوجي"¹⁰¹ حيث أن الاستعمار سجل التاريخ الذي أراد أن يكون لا ما هو كائن حقيقة، من منطلق المركزية الغربية الإمبريالية، ليتم التعقيم عليها في المقررات التعليمية، ليكون الآخر المستعمر، مستلباً في خدمة الغرب لترى أن تاريخ الهند مكتوب ليكون في خدمة المشروع الإمبراطوري لبريطانيا العظمى، لتطرح سؤالها الشهير هل "تستطيع الخانعة الحديث"¹⁰² فيتحوّل السؤال هنا إلى المرأة، أين تربط العلاقة بين الاستعمار والسلطة الأبوية وعلاقتها بالتاريخ والامبريالية، وقدرة المرأة على إنتاج الخطاب.

¹⁰⁰ Josefina BUENO A LONSO, Femme, identité, écriture dans les textes francophones du Maghreb, Thélème, Revista complutense de estudios Franceses, 2004, p11

¹⁰¹ روبرت يانج، أساطير بيضاء (كتاب التاريخ والغرب)، تر: أحمد محمود، المشروع القومي للترجمة القاهرة، ط2003، ص 01، ص 325.

¹⁰² لونيس بن علي: إدوارد سعيد في نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الكولونيالية، مرجع سابق ص 82

ولهذا كان التحدي لذا نساء العالم الثالث، يفوق ما واجهته النساء الغربيات ذلك لأن الاستعمار الأول خلف الجهل والخرافات وهدم مختلف القيم الإنسانية ، وأساء للنساء قبل الرجال، ليفسد مستقر الأسرة، فالمرأة في الإسلام هاجرت مع النبي، شاركته الحروب، وكذا لها نفس العقاب والثواب، مع الرجل وإن التساوي في العواقب والإجازات يعني التساوي في العمل و التكليف والتشريف، غير أن الرجال يستعينون بالنص القرآني الإثبات تفوقهم لتعاليمهم عن الأنثى من خلال مقطع في الآية الكريمة من سورة عمران (وليس الذكور كالأنثى ط
○)

والأصل هو أخذ الآية كاملة أين يقول الله تعالى في كتابه الكريم { فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۗ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) }¹⁰³ وهذا قول زوجة عمران أم مريم وليس قول الله فالله يعلم بوضعها والحكمة من كونها أنثى .

كما أن المجتمع الذي كانت تعيش فيه زوجة عمران مجتمع أبوي لا تقوم فيه الأنثى بأي دور في خدمة الكنيسة وقد تحدثنا عن ذلك سابقا وكيف أن الديانة المسيحية واليهودية تعتبر المرأة نجسة، فأخذ الرجل من هذه الآية مقطعا واحدا وهو توظيف لا يمت للدين بصفة فالله سبحانه وتعالى أقسم في سورة الليل "بالذكر والأنثى" ولو كان الذكر أحسن من الأنثى لأقسم بالذكر دون الأنثى في قوله تعالى

{ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (4) }¹⁰⁴ إلا

أن السعي شتى وهنا يعود الاختلاف، للفوارق بين البشر عامة وقدراتهم وإمكاناتهم، وتوجهاتهم بين الخير والشر

¹⁰³سورة ال عمران الآية 36

¹⁰⁴سورة الليل، الآية 04

لنعود إلى نقطة البداية حيث يستغل الرجل النصوص الدينية إضافة إلى اللغة، ليؤسس إمبراطوريته الخاصة وقد تصدت "نوال السعداوي" لتلك المؤسسة الرجالية فقد كتبت العديد من النصوص التي تقف فيها وجهها لوجه مع المجتمع المصري ومختلف سلطته الأبوية، ففي كتابها قضايا المرأة والفكر والسياسة، الذي يحوي العديد من المقالات، تعرض فيه أفكارها عن طريق الحكيم وهي تربط الحاضر بالماضي، في مجموعة من التساؤلات الطفولية البسيطة التي تخفي ورائها معاناة المرأة، وكيف يهيئ المجتمع البنت منذ طفولتها الأولى أن لا تكون خارج حدود المطبخ "يحتاج الحلم إلى خيال وأمل وإصرار على تحقيق الحلم، لكن الإنسان لا يمكن أن يتخيل شيئاً لا يعرفه، وإن لم تعرف الطفلة أن لها عقلاً مثل أخيها الولد وأنها يمكن أن تكون كاتبة مثله أو مثل أبيها فإنها سوف تعجز عن الحلم بما لا تعرف، فكيف تعرف الطفلة أن لها عقلاً مثل أخيها الولد؟!¹⁰⁵ تعتمد على معرفتها الجيدة ب "علم النفس" في تحليل الرغبات الإنسانية، عند المرأة وكيف تتحول الأحلام إلا كبث مخفي في الأنا العميق من الشخصية، بعد تغلب الأنا العليا المتمثلة في زيف الأنا الاجتماعية، التي فرضها المجتمع من خلال التربية والتعليم، الذي يفرض على المرأة تقبل هذه الذات المعطاة من السلطة الإلهية دون أي نقاش، وأنه على المرأة أن تسير منح العبيد في الثورة التي لا تكون إلا من خلال التمرد الذي هو صفة ذكورية مرتبط أساساً بالفحولة، والقوة والذي ينقص من أنوثة المرأة، باعتبارها مجتمعية طاغية لم يفدها التعلم ولا علم النفس والفن في كتابة تاريخ عن معاناة النساء، بل عكس ذلك وظف كل شيء ضدها، فترتبط الأنوثة بالطاعة والخضوع التي يمارسها المجتمع باسم الدين، ليتغلب "الأنا الأعلى" على "الأنا الأسفل" بعد مقاومة مريرة للمرأة في طفولتها وقبل طغيان الأنا الأعلى عليها، "تتحول الطفلة إلى زوجة خاضعة يحكمها قانون الطاعة، وإلى أم مثالية ضحية من أجل أطفالها وأسررتها، تملأ الرفوف في بيتها بالمساحيق والكتب التي تشيد بالأنوثة الكاملة والأمومة

¹⁰⁵نوال السعداوي: قضايا المرأة والفكر والسياسة، مؤسسة هنداوي سي آي سي، 2018، ص 20

العظيمة، تردد ما تقوله أمها والنساء من حولها.¹⁰⁶ ولأن الطفولة هي الأصل والفطرة قبل أن تصقل بمبادئ المجتمع المزيف.

تتوغل (السعداوي) في الحديث عن الإبداع واللذة، كحالة قسوة من الشبق الذي يكون من خلال الكتابة و بما فقط يمكن تحويل الضعف إلى قوة واليأس إلى أمل... فيكتمل من خلالها حد الإنسانية "إن لذة الإبداع مثل لذة الحياة تبلغ ذروتها هنا والآن".¹⁰⁷ ليرتبط الإبداع بالزمن الحاضر فهو في تجدد دائم، لتخوض معركتها مع المقدس والمدنس، ومع الطريق الذي أراده الرجال لنساء وكيف لرجال أن يرى المرأة كجسد فقط مسلوب الإرادة، والعقل على حد سواء ليعريها أو يحجبها بحسب إرادته، دافعت نوال بشراسة عن كل مبادئها دون تجزئة، بين ما كانت عليه في الماضي في الحضارة المصرية الإلهة الأنتى، مصدر رمزا للمعرفة والصحة والعدل، وكيف أصبحت لا شيء.

وهناك العديد من المراجع التي ترصد هذه الحركة غير أن اختيارنا لهذه الأسماء لم يكن اعتباطيا وإنما لإبراز التطور الفكري، الذي ساير هذه الحركة وكيف أن هذه الحركة تشبه الحياة الاجتماعية للإنسانية، من البدائية إلى الحداثة وما بعدها من تعقد الفكر وسقوط الحواجز الوهمية للمعرفة من العام إلى الخاص، ثم العودة مجددا إلى التعميم، والمطالبة بأبسط الحقوق، إلى المشاركة في البناء الثقافي الفكري ونقد النقد، ككل متكامل بين السياسة والفلسفة وعلم النفس والانفتاح على الفنون، لما بعد النسوية، فكانت الرواية الجنس الأدبي الذي يمكنه أن يلتم بكل ذلك دون قيد أو شرط، ليساير مرحلة ما بعد، "فدون كيشوت"¹⁰⁸ أثبت أن عالم الكتب هو عالم مزيف، لا يربط الحقيقة بالواقع، فهو الجنون الذي اثبت للعالم، قيمة سؤال الجدوى، والحدود الفاصلة بين

¹⁰⁶المرجع السابق، ص 21

¹⁰⁷المرجع السابق، ص 28.

¹⁰⁸(دون كيشوت) دون كيوخوتي دي لامانشا هو بطل قصة للأديب الإسباني ميغيل دي ثيربانتس سايدرا، البطل النبيل لذي يقا تل طاحونة الهوا

الكلمات والأشياء، وأهمية المسافة بينهما ليكون إنسان التمثلات في الرواية، لتجيب الرواية عن الأسئلة، التي ظلت عالقة في الفلسفة حيناً ومزيفة في كتب التاريخ حيناً آخر .

ليعيد السرد إحياء الإنسان الذي قتله نيتشه، من خلال إخراج اللاوعي من الصندوق المخفي، ولأن المرأة تملك قدراً كبيراً مما تخفيه في صندوقها العجيب، وجدت في الرواية والسرد ما يتسع لذلك القدر الكبير، لتروي لنا بأساليبها الخاصة، دهرًا من القهر والمعاناة، مستخدمة اللغة كجسد يضاهاى فحولة الرجل، استخدمت المرأة الكتابة بالجسد كرد فعل على ضعفها الجسدي مقابل الرجل، لتحول من ذلك الجسد مصدراً لقوتها، داخل النص في عالمها حيث تنتج ما تريده، لتحول ضعفها إلى قوة بين الصامت والصائت حيناً، وهذا ما ستجيب عنه نصوص مليكة مقدم ، من خلال عديد النصوص التي كتبت بتقنيات مختلفة، لتسير منحى الكتابة النسوية الجزائرية باللسان الفرنسي، أين تسير على خطى سابقيها بالرغم من اختلافها في الأسلوب والطريقة، غير أنها كانت ضمن قائمة طويلة، لكفاح المرأة باستخدام السرد والحديث عن الذات التي قررت أن تكتبها للعالم.

الفصل الأول: الهوية السردية لكتابات مليكة مقدم

توطئة

أولاً: السيرة الذاتية وتكشف الذات عند مليكة مقدم

ثانياً: حفريات الذات عند مليكة مقدم

ثالثاً: تحليلات المكان والزمان في كتابات مليكة مقدم

رابعاً: تعدد الهويات في كتابات مليكة مقدم.

خامساً: الآخر في كتابات مليكة مقدم.

خلاصة الفصل

توطئة

يعد السرد وسيلة إنسانية لتواجد والتغلغل داخل التاريخ، والذي من خلاله يعبر عن هوية الشعوب، ونظرتها إلى ذاتها وإلى الآخر، مهما كان الجنس الأدبي المستعمل في السرد، فكل كتابة هي انتقال إلى الآخر، أين تعبر الذات عن هواجسها، لتستخدم مليكة مقدم الرواية تعبر من خلالها عن ذاتها، غير أنها تعمل على تضليل قرائها، من خلال استخدامها لتقنيات عديدة، للتحويل الكتابة من "سرد الهوية" إلى "الهوية سردية"، برغم من تصريحها في عديد المقابلات على أنها تسرد ماضيها، وأنها قررت العودة إلى تلك المرحلة من حياتها، لتواجه ذاكرتها مستعينة بالكتابة، كوسيط روحي تعود من خلاله إلى وطنها الذي هجرته مرغمة في بحثها عن ذاتها.

أولاً: السيرة الذاتية وتكشف الذات عند مليكة مقدم:

تعد السيرة ذاتية فنّ من الفنّون التي تكتب تاريخ البشرية وحقيقة تواجدها لا تقل أهميتها عن كتب التاريخ، غير أن السيرة تجعل هذا التاريخ حياً دائماً، وإنّ أهم ما تتسم به كتابة السيرة ذاتية هو جرأة البوح وتعريّة الذات وهذا ما جعل الكتابة عن الذات من أصعب ما يمكن أن يكتبه المرء وخاصة المرأة في مجتمعات لازالت تنظر إليها كعورة وجب إخفائها، وقبل الخوض في ملامح السيرة ذاتية، ودوافعها وخوض مقدم في حديثها عن ذاتها ارتأينا أن نضع بعض التعريفات لهذا الفن الذي يصعب تجنيسه، ذلك لتداخله فنياً وتاريخياً، برغم من قدمه إذ يصعب الحكم على الأعمال أنّها سيّرة عن الذات لأنه لا يخلو سرد من لحظات بوح، يلفظ فيها الكاتب ذاته نحو العالم، يمتزج فيها الخيال بالتاريخ واختلاطه ببقية الفنّون. ومع تعدد الترادفات واختلاف التعريفات غير أنّها تصب جميعاً حول أنّها سرد تاريخ الحياة الشخصية للأفراد.

التعريف اللغوي للسيرة:

لسان العرب لابن منظور من مادة سير: والسيرة الطريقة، يقال سار بهم سيرة حسنة، والسيرة الهيئة وسيره سيرة، وحدث أحاديث الأوائل، وسائر الكلام والمثل في الناس بمعنى شاع. ويقال هذا مثل سائر، وقد سير فلان أمثالا سائرة في الناس وسائر الناس بمعنى جميعهم.¹⁰⁹

أما معجم الصحاح فمن مادة سير: سار، سير، سيرا ومسيرا تسيارا، و سايره، أي جاره فتسايرا¹¹⁰. وهذا ما يعني ان المعجم قد فردة المصطلح بنفس المعنى من كلمة السير، وهو الهيئة، والطريقة، والنقل.

¹⁰⁹ ابو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مج4، دار صادر، بيروت، ط1، ص 390.

¹¹⁰ اسماعيل بن حماد الجوهري الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1990، ص 691.

إن معجم نقد مصطلحات الرواية يعرف «السيرة Biographie كتاب يروي حياة صاحبه، أو حياة غيره، أما وقائع السيرة فقد تكون حقيقية، أو تختلط فيها الحقيقة بالوهم»¹¹¹ فلا يشترط أن تكون إستنساخا للواقع كما هو بل يمكن أن تختلط بالخيال فيضيف أيضا في المعجم نفسه بأن «السيرة تقدم كشف عن حياة مكتملة تقريبا، عن فترة الطفولة أو الشباب، أو نشاط ظاهر الأهمية في حياة فرد، وهي وسيلة مختارة لمعرفة الذات».¹¹² ما يجعلها محاكاة لحياة ماضية لا تخلو من خيال.

أما القاموس الفرنسي Larousse يفرد لمعنى السيرة La Biographies هي «قصة حياة شخصية»¹¹³، و السيرة الذاتية Autobiographies تعني «حياة شخص مكتوبة من طرفه»¹¹⁴. يمكن تلخيص ما يدل على مصطلح السيرة الذاتية Autobiographies بقول: Auto | "الشخص نفسه الذات"، Bio "حياة الشخص"، Graphic "وصف / كتابة"؛ أي تعني كتابة مرتبطة بحياة الشخص نفسه .

و قاموس أكسفورد الإنجليزي فقد عرف السيرة ب "قصة حياة شخص كتبها بنفسه"¹¹⁵ مؤكدا على الطريقة التي تسرد فيها الذات من خلال الكتابة، ليكون التعرف في القاموس نفسه تعريفا لغوي من الكلمة اليونانية المركبة autobiographie .

تعني "auto" الذات، ما يخص المرء بذاته، المستقل أو بشكل مستقل¹¹⁶. ولا يختلف المعنى اللغوي عن الاصطلاحي فكلاهما يصب في النبع ذاته.

¹¹¹ لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية (عربي. إنجليزي. فرنسي)، دار النهار للنشر، بيروت لبنان، ط1، 2002، ص110
¹¹² المصدر نفسه، ص 111.

¹¹³ Larousse, dictionnaire de français: plus de 60000 mots, définitions et exemples, Maury-Eurolivres a Manchecourt, France, avril 2003, p 43

¹¹⁴ Ibid p 30.

¹¹⁵ جينز بروكمبير، دونالد كرو: السرد والهوية (دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة)، تر: عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2015، ص416

¹¹⁶ المرجع السابق، ص417.

التعريف الاصطلاحي للسيرة:

- يعرفها صاحب الميثاق السيرة ذاتية الناقد الفرنسي فيليب لوجون ((Philippe Lejeune بقوله " حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك حينما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة."¹¹⁷ وعلى أهمية هذا التعريف غير أنه محدد جدا يلغي من ذلك كل حالات البوح الغير مصرح بها، حيث يمكن تحديد من هذا التعريف خصائصها بالنقاط التالية:

- التطابق بين السارد و الراوي والشخصية الرئيسية.

- لغته محكي نثري لما وقع في الزمن الماضي.

- خاصة بحياة شخص، تروي وجوده الخاص .

وقد وضع لوجون في ميثاقه طريقة لتحقيق التطابق (المؤلف، والسارد، والشخصية)¹¹⁸ ويمثل هذا الميثاق بمثابة عهد بين راوي السيرة والذي هو نفسه كاتب السيرة وقارئها على الالتزام بالخصائص هذا الفن .

- فجورج ماي بعد عديد الدراسات في هذا المجال يؤكد على "صعوبة تشكّل مذهب نقدي خاص بالسيرة الذاتية، وأنه لا يزال في طور النشأة، فلا ينبغي أن يأخذنا العجب من عدم اتفاق النقاد المنظرين بعد على تحديد مقبول للموضوع المدروس."¹¹⁹

أما السيرة من منظور (آلان روب غاربه) (Alain Robbe-Grillet) في مؤلفه المرأة التي تعود (1984) تخون الواقع بانتقاء وقائع دون أخرى، وإعطاء لبعضها الآخر قيمة لم تحظ بها على أرض الواقع، كما أنها تنزع إلى تنظيم خاص وفق منطق سببي.¹²⁰ ما يجعل السيرة تنبئ عن التطابق مع الواقع المعاش وبالتالي

¹¹⁷ فيليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم عمر حلي، بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1994، ص22

¹¹⁸ ينظر: فيليب لوجون، المرجع السابق، ص27.

¹¹⁹ جورج ماي: السيرة الذاتية، تر: محمد القاضي، عبد الله صولة، بيت الحكمة، قرطاج، 1992، ص14

¹²⁰ محمد الداوي: الحقيقة الملتبسة (قراء في أشكال الكتابة عن الذات)، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط2007، ص1، ص162

فالأحداث مختارة، كما أنها تقع وفق رؤية الكاتب لهذه الأحداث، وسيقدم أحكامه عليها، ويتفاعل القارئ مع هذه الأحداث وفق ما قدمه صاحب السيرة، ووفقا لتجاربه الخاصة .

ولم تكن دراسة السيرة الذاتية في العالم العربي أوفر حظا، إذ بالرغم من وجود عديد ممن اهتموا بهذا الفن إلى أنه هناك خلط مصطلحي بين السيرة والترجمة .

أما عبد القادر الشاوش فينظر في المشاكل النظرية للسيرة ذاتية "من حيث صعوبة الوصول إلى مصدر أصلي قد يكون بداية منطقية، اعتبارا لشروط وتطورات معينة لهذا الضرب من الأدب"¹²¹

وليذهب في حل معضلة التقاطع في التعريفات صاحب كتاب "البلاغة بين التخييل والتداول" محمد العمري يقول: " بضرورة التخلص من التصلب والتجمد المفرط، بمفهوم أكثر مرونة وهو مفهوم النزعة، وحتى الإغراء حيث يقال تنزع السيرة ذاتية لأن تكون عملا نشريا، وهذا حتى لا يتم إقصاء، السيرة ذاتية الشعرية، وحتى في الحكم على العمل بالصدق وقول الحقيقة أو الاختلاق فيقال: إن السيرة ذاتية تنزع لقول الحقيقة دون إقصاء إمكانيته التكتيم"¹²² واستخدام مصطلح تنزع يفتح التعريف على تقبل ما لم يذكر فيه فيتقبل بقية الاحتمالات.

1. إشكالية التجنيس

لتكون أغلب كتابات السيرة ذاتية هي كتابات روائية بعضها يظهر جنسه وانتمائه لسيرة ذاتية في حين يلتبس تحديد انتمائه إلى فن السيرة في غالب الأحيان خاصة ما تعلق بكتابة المرأة عن نفسها حيث تقوم بتضليل تجنيسي .

¹²¹ عبد القادر الشاوش: الكتابة والوجود: السيرة الذاتية في المغرب، الدار البيضاء، بيروت، أفريقيا الشرق، ص15

¹²² محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، المغرب، أفريقيا الشرق، ط2، 2012، ص141

أما فيما يخص موضوعات السيرة ذاتية تتمركز حول الذات لا من حيث أنها حدث مدهش وتضخيم الأنا وإنما لأنها حشد من التجارب التي لا بد من البوح بها، ليتم خلاص الذات منها. « حيث يصرح الكاتب بأن ما كتبه كتابة شخصية، وباعث الكتابة، له دور في تنظيم الذكريات بأن تكون إما ذاكرة انتقائية متشظية تخدم موضوع واحد، أو أن تكون تعاقبية ممتدة أو سيرة بشكل تقليدي»¹²³ وهذا راجع أن كتابة السيرة ذاتية مقصدية، قد تحمل مواضيع عدة حيث يتجاوز فيها الكاتب طرح سيرته، وتدوين ورصد سيرة الجماعة التي يرتبط بها، بأسلوب مباشر أو من خلال ذكرها عشوائيا فينتقل من سرد الذات إلى سرد النحن، بل يتجاوز ذلك إلى ربط وتحديد العلاقة بين الذات والآخر .

يربط حسن فهمي تطور السيرة ذاتية بالحضارة فيقول: " ثم دخل الشرق العربي دائرة الظل ودخلت أوروبا عصر النهضة، وهنا تجد تاريخا لسيرة ذاتية عند العرب يتوقف، بينما يتحرك في أوروبا بعد سكون، أوليس ذلك دليلا على ارتباط تاريخ السيرة الذاتية بتاريخ الحضارة"¹²⁴ وهذا ما يفسر تأخر ظهور هذا الفن الأدبي عند العرب فقد انشغلوا بالهموم الجماعية من مكافحة الاستيطان، والجهل، والتخلف على حساب الذات ومن أبرز من كتبوا في السيرة ذاتية من العرب طه حسين الأيام أحمد أمين " حياتي " ، حياة قلم" لعباس محمود العقاد "موسم الهجرة إلى الشمال" لطيب صالح.

أما عن كتابة النساء لسيرتهم الذاتية فكثيرة جدا غير أنه يصعب تطبيق ميثاق فيليب عليها انطلاقا من أنهن لا يصرحن في الغالب بأنهن يكتبن عن حياتهن، وقد تعدى الأمر ذلك إلى استخدامهن أسماء مستعارة في الكتابة

¹²³ أمل التميمي: السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر:،المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط2005، ص1، ص28

¹²⁴ ماهر حسن فهمي، السيرة تاريخ وفن، ط2، الكويت، دار القلم 1983، ص ص 238-239

ولأن النساء في العالم العربي عشن ظروف مختلفة، عن نظيرتهن في الغرب، فقد تأخر هذا الجنس الأدبي عن الظهور، كما كانت له سمات خاصة، ما يجعل صعوبة تمييز ما، كن يتحدثن عن سيرتهن أم أنهن يعتمدن الخيال في بناء شخصيات روايتهن.

2. دوافع كتابة السيرة الذاتية:

ولأن الأدب صورة لبيئته، فقد سائر هذا الفن حركة المجتمع من النظام الأبوي، إلى حركات تحرير النساء من مختلف، أشكال التعسف والاضطهاد الذي عاشته المرأة ومازالت إلى يومنا تعيشه، لتنتقل معاناتها وكفاحها في مجتمع يعتبر صوتها عورة كيفما كان، شعرا أم نثرا وكيف لها أن تتحدث عن ذاتها وهي مسلوبة ومجموعة من أبسط الحقوق هذا ما جعل مرحلة بداية الكتابة في العالم العربي عامة والجزائر خاصة تبدأ في العصر الحديث منذ أواخر القرن التاسع عشر حيث كان وراء ظهورها عوامل عديدة أبرزها ظهور الحركة النسوية الغربية ووعي المرأة لضرورة المشاركة في الخطاب السردية وكتابة الذات، الانزياح الثقافي من الاهتمام بالمركز إلى الاهتمام بالهامش، ظهور الدراسات الثقافية والدراسات الكولونيالية و ما بعدها خاصة .

وكان لكتابة السيرة ذاتية دوافع عدة نذكر ما ذكر جورج ماي إذ قسمها إلى قسمين "أما الطائفة الأولى فتظم المقاصد العقلانية المنطقية الرصينة إلى أبعد الحدود و بإمكاننا أن نصنف هذه المقاصد صنفين اصطلاحنا عليهما ههنا بكلمتي "التبرير" والشهادة" وأما الطائفة الثانية التي تضم دوافع أقرب إلى الانفعالات، والعواطف واللاعقلانية وأبعد عن الإدراك أيضا في بعض الأحيان، فلنا أن نميز فيها أيضا صنفين: صنفا يتصل بشعور الكاتب بمرور الزمن وقوامه التلذذ بالتذكارات أو الجزع من المستقبل وصنفا يتصل بالحاجة للعثور على معنى للحياة المنقضية أو استعادته، ونقصد بذلك اتجاه الحياة ودلالاتها معا" 125

¹²⁵ جورج ماي، مرجع سابق، ص48

تطبقها أمل التميمي في دراستها حول "السيرة الذاتية النسائية في الأدب المعاصر" ¹²⁶ حيث تعتمد التصنيفين السابقين لتحديد دوافع الكاتبات سواء من خلال اعتماد تصريح بعض الكاتبات عن دوافعهن أو من خلال الاستنتاج إلى دوافع عقلية وأخرى عاطفية.

- الدوافع العقلية والتي جمعت فيها كل من نبوي موسى، وليلى عثمان حيث كانت الأولى تعمل على تصحيح ما دار حولها من إشاعات أما زينب الغزالي في كتابها أيام من حياتي فقد تحدثت عن سجنها وكفاحها، وهو دافع عقلي بغرض الشهادة، أما ليلي العثمان فكان دافعها الثأر لنفسها من أعدائها وكذلك كان غرض هدى الشعراوي التي أرادت أن تكون شاهدة على وطنية والدها من جانب كما يظهر سردها لجوانب من التاريخ أن لها دافعا آخر وهو إبراز دورها في الحياة المصرية فقد لعبت هدى دورا مهما في الحركة النسوية العربية

- الدوافع العاطفية: والتي أراد بها جورج ماي شعور الكاتب والرغبة في استعادة الماضي حيث شملت كل من نوال السعداوي وفدوى طوقان وليلى عسيان .

وما يمكن أن نلاحظه هنا هو صعوبة الفصل بين ما هو عقلي وما هو عاطفي حينما يتعلق الأمر بالحياة الشخصية للإنسان ومحاولة إلقائها إلى الآخرين حيث تمتزج العواطف بالعقلانية.

وكتابة مقدم بتصريحاتها هي سيرة حياة قضتها بين صحراء الجزائر ومدينة وهران ومونوبولي، لتتحدث في روايتها عن سيرتها وحياتها الممزقة بين بلد تسكنه وآخر يسكنها حيث يفتح المكان مع أوجاع الذاكرة. فالذات هي الكاتبة والمكتوبة عنها، وإن الحديث عن واقع حياة الكاتبة يعطي نصوصها طابعا خاصا فالقارئ يهتم بتشارك خصوصيات الآخرين والاطلاع على حياة لم يعيشها إلا من خلال نصوص غيره، حيث تنأى عن المكاشفة بسرد حياتها، بين حنين طفولة لم تعيشها بسبب صعوبة أن تكون البنت البكر في مجتمع بطريقي أبوي، يسخر البنات

¹²⁶ ينظر أمل التميمي: مرجع سابق، ص 118-123

لخدمة إخوانهم من الذكور ولا يسعد الأبوين بخلفتهم من البنات إلا بعد أن يخلفن ذكر، لتعيش هذا الرفض مرة أخرى بعد أن أحببت ابن القبائل والذي لم تشفع لها دراستها في الطب ليتقبلها أهل الحبيب حيث تم رفضها بحجة أنها السمراء ابنة الصحراء، لتعيش الرفض ولا انتماء مرة أخرى بعد أن تخلى عنها والدها بسبب زواجها من غير مسلم، وتخلي زوجها بعد ذلك لممارستها الكتابة حيث أنه لم يتقبل مغازلتها للكلمات رغم أنه إعتاد انشغالاتها كطبية، وانغماسها في القراءة ما يجعل دافعها للكتابة دافعا عاطفيا وعقليا معا حيث تكتب للاستشفاء من العزلة التي فرضت عليها وهو دافع عاطفي بحسب جورج ماري.

أما الدافع الثاني فهي تريد مواجهة الرجال لغويا فراحة تعتمد لغة خاصة بها تتمرد من خلالها على أساليب اللغة والمجتمع على حد سواء، أين تستخدم التهجين اللغوي (métissage) كما أنها توظف مصطلحات عربية في خطابها الفرنسي كعنوان روايتها (نزيد) (N'zid) التي كتبتها سنة 2001 وهو مصطلح أقرب لدارجة منه إلى اللغة العربية وهي رواية كتبتها بعد روايتها "Des rêves et des assassins - أحلام وقتلة" سنة 1995.

فتحدثت في الأولى عن اغتيال حلم الحرية لذا النساء من طرف الأصوليين لتضيف لذلك في روايتها الموالية نزيد بأن تفقد بطلتها ذاكرتها بحثا عن أسئلة الهوية، مختارة اسم "نورا" لتبعث بصيص أمل في حياة النساء في الجزائر.

حيث يصبغ نصها طابع متفرد تتحدى فيه الأساليب القديمة في الكتابة فتعمل على مزج اللغات، والثقافات لتخلق لغة خاصة بنصوصها تجمع بين الجنوب والشمال، بين أوروبا وإفريقيا في نص واحد.

تواصل تحديها بكتابة رواية بعنوان "رجالي" فتقول "فأية وسيلة أفضل من مواصلة التحدي لهم بالكتابة عن الرجال الذين، عشقتهم بملء حريتي رغم الجميع؟"¹²⁷. ومواصلة التحدي هنا لتهديدات التي تعرضت لها من طرف "حراس النوايا" كما سماهم الكاتب الجزائري واسيني الأعرج، بعد أن قاموا بتهديدها بالقتل وهذا ما كتبت

¹²⁷ مليكة مقدم: رجالي، ص 22

عنه في روايتها المتمردة (La transe des insoumis) - سنة 2003 وخصصت له فصلا كاملا عنوانته بليلة الأجساد الراحلة"، تواصل تبرير ما تفعل كدافع عقلي فتقول "هل هذه عادة كمغتربة، وكمريضة بالأرق أن أحكي قصصا وحكايات ؟ هل خوفا من أن أضيع؟ هل من أجل تنويم تهديدات المجهول؟ وهل هي طريقة في التواجد على الرغم من كل شيء؟"¹²⁸ كل هذه التساؤلات هي إجابة صريحة لما يدفعها للكتابة من شعور بالقلق وشعور بالضيق، وإثبات وجودها وهويتها، في غربتها، غربه الوطن وغربة الذات عمدت إلى استرجاع الماضي بكثير من الحسرة والألم والتي جعلت كتاباتها وسيلة، لتستعيد لحظات طفولتها ومراهقتها بكل كثافتها وثرائها كما تقارن آلامها في وطنها وهي في قلب القبيلة مع آلامها في غربتها ووحدها؛ كتابات مقدم هي كتابة تجعل الماضي حيا دائما وأبدا بتفاصيله وهكذا تنسحب الحياة كلها في كل لحظات الحاضر صوب كتابة تسترجع الماضي كحاضر سبق عيشه وإن كانت تبدو ضائعة باستمرار .

يرى في ذلك بعض النقاد أنه لا أهمية في البحث عن الدوافع التي تبعث الكاتب إلى تدوين سيرته الذاتية، «لأن السيرة الذاتية، بوصفها نصا أدبيا، لا تحتاج إلى مبرر لكتابتها، يختلف عن المنبر الرئيسي للإبداع الأدبي بشكل عام، وهو التعبير عن الذات»¹²⁹. هذا لأن كتابة السيرة ذاتية هي كتابة عن الذات في مجملها ولا حاجة إلى دافع يبرر كتابة هذه الذات إلى الخارج لأنه ولا بد من ذلك بطريقة ما. « فإذا بلغت هذه التجربة دور التّضح، وأصبحت في نفس صاحبها نوعا من القلق الفني، فإنه لا بد أن يكتبها»¹³⁰، فهي حاجة ملحة ينفس بها الكاتب عن أوجاعه ويتشارك بها مع غيره، عن طريق « تخفيف العبء بنقل التجربة إلى الآخرين ودعوتهم للمشاركة فيها، فهي متنفس طلق للعنان، يقص فيها قصة حياة جديرة بأن تستعاد وتقرأ، وتوضح موقف الفرد

¹²⁸ مليكة مقدم، المتمردة، ص21

¹²⁹ صالح معيض الغامدي، كتابة الذات، ص 271

¹³⁰ إحسان عباس، فن السيرة، ص 95

من المجتمع...»¹³¹. فهي تحقق الغاية من كتابة الأدب كوسيلة للبوخ يعيش بها الإنسان إنسانيته. ويكمل بها حده الإنساني.

3. رحلة سرد الذات النسوية في الجزائر:

وأما عن الكتابة النسوية في الجزائر فقد سايرت الأوضاع الداخلية، لتكون بروح وطنية تعبر عن الأحوال العامة للشعب الجزائري ومعاناته بعد أن استؤصل من هويته الثقافية فلم تكتب النساء ولا الرجال عن حياتهم إلا في إطار الجماعة مع نهاية الحرب العالمية الثانية، لتبدأ رحلة سرد الذات النسوية، نبدأها بسيرة ذاتية لحياة الأديبة الجزائرية "فاطمة ايت منصور ام جان عمروش"¹³² موسومة ب (قصة حياتي) (-Histoire de ma vie) 1946 بما يحمله ذلك العنوان من وعي من قبل "فاطمة" بأنها تحاول التأريخ لحياتها بقلمها "وكأنها تريد إعادة الاعتبار لنفسها ولا تترك إصدار الأحكام المسبقة الأحد بسبب العار الذي لحقها منذ ولادتها، إذ هي ثمرة لعلاقة غير شرعية ولم يرد الوالد الاعتراف بها، اضطرت لمحاكمة المجتمع القبائلي بعاداته وتقاليده القاسية وحدها، فقررت أن تترك لابنها المفضل "جون" تركة معنوية يعرف لماذا هو "جون عمروش"، كما طلب منها هو نفسه أن لا تحذف أي ذكرى أو حادثة، كي يعلم باقي الناس حياة الفقر والحرمان وما ينتج عنها".¹³³

رغم المعاناة والانتهاكات التي مارسها الاحتلال الفرنسي بحقها، نشرت أيضا "طاوس عمروش" وهي ابنت "فاطمة" عدة روايات على شكل سيرة ذاتية مثل (ياقوت سوداء 1947- نهج الأبطال 1960-

¹³¹إحسان عباس المرجع السابق، ص 99-100

¹³² فاطمة عمروش: سيدة جزائرية قبائلية عاشت من نهاية القرن التاسع عشر إلى غاية نهاية الستينات تقريبا من القرن العشرين، هي والدة جان عمروش و طاوس عمروش. ينظر نسيم بن عباس، "السيرة الذاتية النسوية فاطمة أمنصور عمروش - ملتقى دولي الرواية النسوية، التلقي، الخطاب والتمثلات، 18 و19 2006، منشورات CRASC، 2010، ص 129، "

¹³³ نسيم بن عباس، "السيرة الذاتية النسوية فاطمة أمنصور عمروش، ص 130.

العشيق (1975)¹³⁴ كما تكتب "آسيا جبار" السيرة الذاتية في أغلب روايات بين إفصاح وإخفاء "الحب والفانتازيا L'Amour, la fantasia" عرف قلقها الدائم من الأوضاع التي تعيشها المرأة الجزائرية والتحديات المفروضة عليها، هي تكتب التاريخ بدءاً من الذاكرة «وهو الخوف من النسيان لتبقي الشخصيات التاريخية حية».¹³⁵ أين تمنح للتاريخ أهمية كبيرة في أعمالها الروائية . فيكون حاضراً في نصوصها باستمرار كما تكتب جبار تحدياً لرفع صوت النساء وباسمهن تكتب، ليكون «صوت النساء هو كتابة بوعي ذاتي، ومحاوله محضه لممارسة الحياة الأدبية كمشروع، وبداية لنهاية الصمت، أين تحول الكتابة جروح النساء إلى كلمات بأصوات الماضي، لتكون "أنا" الكاتبة معبرة عن "نحن" النساء»¹³⁶؛ كما تكتب (ليلي صبار) الكاتبة الجزائرية الفرنسية سيرتها في روايتها " لا أتكلم لغة أبي " (Je ne parle pas la langue de monpère)، مستخدمة ضمير المتكلم، وبكل جرأة وتحدي ليعبر النص عن حياتها وهويتها، وهمومها لما تعانيه، لانتمائها لوطن، لا ينتمي لها، وشعورها الدائم بالاغتراب هو مصدر عذاباتها، ومصدر كتاباتها أيضاً لتعيد النظر في الغياب.

تقول "الصبار": «أنا أكتب لشعوري بالمنفى في فرنسا، حتى وإن كنت أعيش بها، و برغم من أنني مواطنة بهذا البلد - فرنسا- أفترقد لغة أبي، وأنا أبحث عنه في كتاباتي»¹³⁷. لتحاول العودة إلى أصلها وجمع شتاتها بين بلدين هما مصدر آلامها، لتخلق عالم خاص بها، تقول: «سأواصل الكتابة طالما أنني لم أستوف مسألة كيفية حمايتها أفضل من الانفصال عنها» .¹³⁸

¹³⁴ الطيب بودريالة، من السيرة الذاتية إلى السيرة الروائية، كتاب الملتقى الدولي الرابع عبد الحميد بن هدوقة، مديرية الثقافة، برج بوعريش، ط1، 2001، ص 209.

¹³⁵ Fatima MEDJAD, Histoire et mémoire des femmes dans l'œuvre d'Assia Djébar, Synergies Algérie n°1

¹³⁶ Najiba REGAIEG, l'amour la fantasia d'Assia Djébar: de l'autobiographie à la fiction, revue Itinéraires et contacts de cultures, Paris, L'Harmattan et Université Paris 13, n° 27, 1 semestre 1999.

¹³⁷ - Karim BOULAHBAL, Identité imaginaire entre origines et exil dans "je ne parle pas la langue de mon père chez Leila Sebbar", Mémoire de magister, sous la direction du Dr. Logbi Farida, Université Mentouri Constantine. 2008, P4

¹³⁸ Ibid, p 21.

هو نفس التحدي الذي ترفعه "نينا بوراوي" لتفرض صوتها بعيدا عن التصنيفات العنصرية، وهي تسأل عن هذا التصنيف في روايتها "الفتاة المسترجلة" على لسان بطلتها ياسمين «كاتبة فرنسية، كاتبة مغربية اختاروا لي، أنا ضد هذا وهذا»¹³⁹. لتخرق "بوراوي" المؤلف وتمرد عليه «الصوت الفريد، المتمرد في خطاباتهما، التي تتمحور حول النفس، وتركز على ازدواجية الخطاب ليصبح العدوان تحرير الأدب النسوي في الجزائر»¹⁴⁰، لتحاول أن تطرح من خلال كتاباتها آلامها، ومشكلة الانتماء الثقافي لبلدين مختلفين.

4. أشكال التعبير الروائي عند (مقدم):

للتحدث عن سبب اهتمامها بالكتابة التي عدت بالنسبة لها ضرورة لتعبر عن أوجاع بلدها بعد أن صار الموت يترصد الجميع لتفتح ذاكرتها على معاناة هذا الشعب من ويلات الاستعمار وكأنما كتب على هذا الشعب أن ينزف حتى الموت بين ماض أليم، وحاضر ضائع ومجهول لتتحول الكلمات إلى شظايا تحرق من يقترب منها في محاولة منها للخروج من المنفى الذي فرضه عليها تحلي العائلة عنها، وكذلك تحلي زوجها بعد ذلك مستخدمة عديد الأساليب التقنية في كتابتها لسيرتها الذاتية حيث استعانت بالرواية في ذلك، للتخفي في شخصيات أبطالها، وتسرد سيرتها معتمدة العديد من الأشكال بين يوميات، مذكرات، الرسم الذاتي، السرد الذاتي ومع اختلاف في اسم الشخصية الرئيسية في كل مرة غير أن الذي لا يتغير عند مقدم هي أنا الشخصية الرئيسية دوما امرأة، تعيش حالة من الاغتراب والحنين تتمرد على مختلف الأعراف السائدة مشتتة بين فضاء الصحراء والبحر لترسم رهبة كليهما بين الحنين والخوف.

وسنقدم بعض تفاصيل الأشكال التعبيرية الروائية عند (مقدم) رغم يقيننا بأنه في دراسة الرواية لا أهمية لشكل فيها، حيث يجب أن تتعدد الأشكال والأساليب والتقنيات في النص الواحد، ما يفتح النص على تداخل

¹³⁹ Benaouda LEBDAI, Nina Bouraoui ou l'écriture iconoclaste, CRASC, Oran Alger, 2010, p 208

¹⁴⁰ Ibid, p208.

في الخطاب الروائي، وتكسر فيها الحواجز والقوالب التقليدية التي تفقد جمالية الفن الذي لا يجب أن يخضع للقواعد غير أننا سنقوم بعرض الأشكال مع تقنياتها السردية وكذا دوافعها بحثا في نظام اشتغال النص .

أ- المذكرات *les mémoires*:

تعد المذكرات «جنس تاريخي، يحكي فيه الكاتب وقائع الحياة العامة التي كان شاهدا عليها، أو كان له فيها دور ما. وتختلف عن السيرة الذاتية، لأن الكاتب على العموم لا يتحدث فيها عن حياته الخاصة، ومشاعره الحميمة وغالبا ما تكون الأهمية التي أعطيت للأحداث، والتاريخ في هذه المؤلفات أكثر من الأهمية التي تعطى لشخصية الكاتب»¹⁴¹؛ إذ يركز الكاتب على الأحداث الخارجية التي يعيشها والتي كانت جزءا مهما في تكوين حياته أو في مسار قراراته، فتكون بمثابة شاهدا تاريخيا حول مرحلة ما. ولم تتجاوز مقدم هذا الشكل من السرد سيرة ذاتية دون أن تخوض فيه، فهي تجدد في أشكال نصوصها محافظة على الأفكار العامة لنصوص التي اتفقت على أن تسرد حياتها، وحياة آلاف النساء في الجزائر، كما ارتبطت الكتابة لديها بالظروف العصبية التي مرت بالجزائر

وقد اعتمدت هذا الأسلوب في روايتها (المنوعة) "L'Interdit" 1994 الكثير من الدلالة ، بدءا باسم شخصيتها الرئيسية سلطانة أين تنصبها سلطانة في القصر، وشخصية "ياسين" في رواية "المنوعة" تمثل الآخر المنبوذ فهو من حزب وثقافة مغايرة للبلدية التي يعمل بها فيقول سائق التاكسي « لماذا جاء هذا لقبائلي؟ أولاد الصحراء أنفسهم حين يصبحون أطباء أو مهندسين ،يهاجرون نحو الشمال أو إلى الخارج...نحن أهل الجنوب لسنا في نظر أثرياء التل إلا عقابا أو سجن نفاية، لا يبعثوا لنا إلا حثالة البلد، الدليل أن الطبيب هذا من

¹⁴¹ ولاء حاج يحيى: الجانب التراثي والتاريخي في سيرة-ظل الغيمة- لحنا أبو حنا، الكلية الأكاديمية، بيت بيرل، 2012، ص10

الأرسيدى وقد مات منذ يومين...»¹⁴² وهنا يفرز النص ثقافة نبذ الآخر المختلف، الذي لا ينتمي لنفس الحزب السياسي والأصول الثقافية والجغرافية، برغم من انه الطيب الذي يعالج أوجاعهم .

لتحاكي زمن الغليان في الجزائر، أين تم فيه رفض الاختلاف ، كيفما كان هذا الاختلاف، ليتحول هذا الآخر في سياق آخر إلى الإنسان الأوروبي الذي لا نتفق معه في شيء ويرفض تسمية الأبناء بأسماء فرنسية مخالفة لأعرافهم، ثم تتحول مرة أخرى إلى ثقافة نبذ الأنتى فتقول سلطنة متحدية الإسلاميون «هم لا يخيفونني مهما كانت العمامة التي يتسترون تحتها اليوم، إنهم ليسوا إلا وجوه الحقد التي رعبت طفولتي، إن الأنظمة والأحزاب، تعيش، تهرم، تموت أما بغض النساء فيبقى لاصقا بالدهنيات، يتغذى بالهزائم، ويتقوى»¹⁴³ وهكذا يتضح موقفها الذي يرتبط بقضية أولية لا غنى عنها، وهي ما تعانيه النساء من تنمر مجتمعي أزمي لا يتزعزع بتغير السلطة التي ستظل دائما على اختلافها سلطة ذكورية ترفض ندية الآخر، وتتغذى من ضعفه، تركز مقدم في هذه الرواية في الحديث عن "الملتحين" فتقدم صور عديدة عنهم، تقول: «أراد ملتح أن أداويه دون حاجة إلى الفحص. كلمني بصراحة، مثبتاً عينيه في الجدار الذي فوق رأسي... أنت امرأة ما اتمسش. حرام...امالا أخرج من هنا.... برّا.»¹⁴⁴ وفي حوار هزلي بين الطبية سلطنة والمريض تحاول إثبات التناقض الذي يحمله فكر هؤلاء فهو يرفض أن تفحصه الطبية غير أنه يريد منها أن تعالجه عن طريق الحقنة، يحتقرها لأنها امرأة ويحتاج إليها ولا يخفي احتقاره،

تريد مقدم نماذج أخرى أقل عدوانية من سابقها، غير أنها في كل النماذج تظهر بعض الصفات التي توقعها على هؤلاء، غير أنها تحاول أن تظهر الارتباك الحاصل على المستوى المفاهيمي هؤلاء، لتعبر هذه الصورة عن القلق الناتج عن الخوف من الآخر وحالة اللبس التي غلبت على الحياة عامة في هذه المرحلة من تاريخ

¹⁴² مليكة مقدم: المنوعة، ص 15

¹⁴³ مليكة مقدم: المنوعة، ص 136

¹⁴⁴ المرجع السابق، ص 131

الجزائر. كما تفتح مقدم الحديث عن "القصر" المكان الذي ولدت فيه، وهو أحد أهم الأماكن التاريخية التي تم تهميشها، والذي تريد مقدم الحديث عنه لما يمثله بالنسبة لها أين هجره الناس وأصبح خرابا لتقول: «أن محيي القصر راسلوا منظمة اليونسكو. ولا أعرف إن كانوا سيحصلون على مساعدة ما».¹⁴⁵

ب- الرسم الذاتي Auto Portrait:

استخدمت مقدم شكلين في سرد حياتها في "رجالي Mes homme"، - اليوميات - والرسم الذاتي في آن واحد، حيث مزجت بينهما، لترسم أحداث حياتها من خلال الرجال الذين مروا بحياتها بدءا بالدها الذي تهديه الكتاب، أحوها، وكل من مر بحياتها تارك خلفه، بصمة جعلتها تعيش ما عشته من تحديهم ومحاولة التفوق عليهم إلى مغاللتهم وحبهم أحيانا أخرى، لذا اعتمدت الرسم الذاتي كشكل آخر في كتابة سيرتها، باعتبارها «رسم الملامح الذاتية التي يتصف بها الكاتب، وعليه تغلب الأوصاف في السرد، والأفعال عندما تسرد تؤكد هذه الأوصاف، والصفات قد تكون أخلاقية». ¹⁴⁶ تمكن القارئ من صبر ملامح هؤلاء الرجال؛ و ما يميز هذا الشكل في الكتابة «ميله إلى الاقتصاد في التعبير، فهو سيعيد تلك الاستطرادات الكثيرة التي نجدها في مؤلفات أخرى، ويتجنب تلك الحكايات الثانوية التي نقرأها في بعض السير الذاتية، ويكتفي السارد برواية الأفعال، والمشاهدات الضرورية التي نتقدم صورة محددة عن الذات الساردة».. ¹⁴⁷ إذ أنها أرادت أن تختصر ما يزيد عن ستة وخمسون سنة من حياتها بحديثها عن الرجال الذين أحببتهم بملء إرادتها حيث ترسم ملامح كل رجل على انفراد بين وصفه الجسدي ودوره في حياتها، فتتحدث عن سبب اختيارها عنوان (رجالي) فتقول "فأية وسيلة أفضل من مواصلة التحدي لهم بالكتابة عن الرجال الذين، عشقتهم بملء حريتي رغم الجميع؟" ¹⁴⁸

¹⁴⁵ المرجع السابق، ص 136

¹⁴⁶ محمد الباردي: عندما تتكلم الذات (السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص 163

¹⁴⁷ المرجع السابق: ص 164

¹⁴⁸ مليكة مقدم رجالي: ص 22

تصف مقدم والدها بكثير من الدقة باستخدام هذه التقنية (الرسم الذاتي)، بين تقاطع في الشكل الخارجي الهيئة والملابس وكذلك الطبع وملامح الشخصية فتقول: «أترصدك ألحك من بعيد أتوهم بأنك قادم من أجلي بكل عظمتك وجلال قدرك. تتحلق الأطراف الواسعة لقبعتك الريفية، المبطنة بأقمشة ألوانها من ألوان قوس قزح، حول وجهك كالهالة، وتعزز مرونة سروالك المشمر عن ريلتيك صلابة ساقيك...»¹⁴⁹، كما تصف مقدم هيئتها وبشرتها السمراء وشعرها المكشط وتوضح العلاقة بين الهيئة العامة لشخص ومكانته في المجتمع، وان هذه التصنيفات لا تخص العالم الثالث فقط، أين تغرق فرنسا في هذه الممارسات الغير عادلة .

ت- تقنية السرد الذاتي:

في روايتها أدين بكل شيء للنسيان " Je dois tout à ton oubli " سنة 2008 حيث السارد هو المتكلم والموجه لسير الأحداث وفي الوقت نفسه يتضامن مع الشخصية الرئيسية وهو يحاول أن يبرر ما حدث وما يحدث لها متفاعلا معها وقد تجاوز ذلك ممارسة التأويل مدافعا عن كل قناعات البطلة ، فيقول عن علاقتها بوالدها "فهو أصل التنكر الذي شكلها، وأصل العلاقة الخاصة بأمها، تلك العلاقة التي لا تمت بصلة إلى الخلافات المألوفة بين الأم وابنتها"¹⁵⁰ لتبين سبب دينها للنسيان والذي ساهم جزئيا في مسح الفاجعة التي عاشتها كطفلة بسبب ما فعلته أمها بذلك الرضيع الصغير، حيث أنساها فعل والدها خمسين سنة تعاودها الذاكرة كشيء من الخيال بعد مشاهدتها صورة العروس قبل وفاتها، لوجه الشبه بين القماطة وستان الزفاف.

فتعود بها الذاكرة إلى أدق التفاصيل التي عاشتها في طفولتها ، وتستثمر في التذكير والتداعي الحر والحلم، في نصوصها مستخدمة تقنية الزمن الاسترجاعي أو الفلاش باك لتنتقل بين الحاضر والماضي من حين إلى آخر كنوع من الهذيان تعيد من خلالها صور ظلت عالقة لسبب ما ، يفوق إرادتها يأخذها إلى طفولتها ، حيث

¹⁴⁹ المرجع السابق، ص13

¹⁵⁰ مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، 27

احتبرت الموت لتشعر في تلك السن برهبتها، وهي تشاهد والدتها تضع الوسادة على رضيع خالتها دون رحمة، غير أن الريح ساعدت على نسيان البنت لفعل أمها، غير أن الوسادة ظلت عالقا في رأسها "أهملت نفسها بالجنون، بالخزي اتجاه والدتها، وعادت إليها بالمشاهدة مع صرح النسيان"¹⁵¹ لتخوض مقدم صراعها مع الحياة من خلال الموت فتبدأ روايتها من قتل الرضيع، وتنتهيها بموت الأم وحضورها جنازتها، وكيف استولى عليها شعور أنها "تأخذ معها جسد أمها في موكب احتفالي ونص مقدس"¹⁵²

غير أن البطلة في روايتها "أدين بكل شيء للنسيان" ترفض إلا أن تكون ما تريد حتى في هروبها من أقدارها، منذ طفولتها الأولى، فتفجر عالمها، لتكون عوامل مختلفة لكل النساء في الجزائر. فبالرغم من وعيها بذاتها، غير أن هذه الذات ترى نفسها من خلال من حولها كصديقتها قومي شخصيات لها صوتها داخل النص تتحاور في ما بينها فالأفكار عندها تتوالد من خلال التحوار بين بطلة الرواية وبين بقية الشخصيات، في تجاذب بين الأفكار، "فالفكرة بمثابة الحادثة الحية في نقطة الالتقاء الحوارية بين شكلين أو أكثر من أشكال الوعي، والفكرة من هذه الزاوية، شبيهة بالكلمة التي تتوحد معها حواريا، وهكذا فهي تحتاج، شأنها في ذلك شأن الكلمة لأن تكون مسموعة ومفهومة، بأصوات صادرة عن أشكال وعي آخرين."¹⁵³

فبرغم من أن الرواية سيرة ذاتية حاولت الكاتبة أن تسرد بعض الأحداث التي كانت سبب في تكوين شخصيتها، موضحة سبب رفضها لإنجاب الأطفال مبرزة الأنا بكل ماله من وجود مادي على مستوى الفكر والمشاعر غير أنها تروم من ذلك أن تسرد مأساة العديد من النساء اللواتي لا يخرتن مصيرهن ويرضين بأي شريك، من أجل إرضاء القبيلة، وقد يتجاوز الأمر ذلك إلى قتل صغارهن، وهو سبب العلاقة الغير سوية بين الأم وابنتها،

¹⁵¹ مليكة مقدم : أدين بكل شيء للنسيان ، ص16

¹⁵² مليكة مقدم : أدين بكل شيء للنسيان ص 108

¹⁵³ ميخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، تر: جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، ط1، 1986، ص 125

فهي تحملها مسؤولية ضعفها وقبولها بوضعها، بل وكذا المشاركة في معاناة النساء من حولها وتبجيل الذكور حيث تتحول الأم من مصدر للحب والحنان والأمن إلى شبح الخوف والقتل ورائحة الموت .

ولا يمكن تجاوز أهمية المكان في تكوين سردي للخطاب الواقعي المعاش لروايتها التي تحددها بدقة بين الصحراء في مدينة بشار إلى وهران عودة إلى مونوبولي وهي نفسها في غالبية نصوصها.

تحتل الصحراء مكانة خاصة عند الكاتبة فهي بالنسبة لها تمثل الماضي بكل تفاصيله والتي تعود اليه لكي تنفس بيه عن همومها فتقول: "كانت عيناها مشدودتين إلى السماء بحثا عن زرقة الصحراء دون أن تعثر عليها، لم يكن ذلك حنيناً، ولن تعود سلمى لتعيش في الصحراء، مهما كان الأمر، ليس ذلك خوفاً من رؤية رشقات الماضي تنهمر عليها؟ " 154

فقد كانت الصحراء تعوض ما تفتقده مقدم من عواطف تسببت فيه العلاقة الغير سوية بأمها، حبات الرمل الدافئة كانت كل ما تملك وما لا تملك، لتكون الصحراء الاحتواء والضياع في الوقت نفسه أين شيعت جثمان والدتها والتي شعرت أنها تأخذه معها وكأنه ألم لانهائي ، لتكونا الصحراء كل من الإقصاء والملاذ والموت والحياة ، لأن الأماكن هي أيضاً إسقاط للمشاعر الحميمة لشخصياتها النسائية.

بين خوفها من الماضي لتدين للنسيان في عودتها لطفولتها بعد المأساة التي شاهدها والتي قتلت فيها الأمومة وحب الأم دون وعي منها ، لتنتقد مقدم كتابها هذا في مقابلة أجرتها فتقول: "لقد كان كتابا فضيحا بالنسبة لي أن أكتبه[..]سمعت عاصفة رملية بدلا من ترامونتانا(وهي رياح خاصة، كثيرا ما تهب في فرنسا) ورأيت هذا المشهد، عدت إلى الصحراء لمواجهة والدتي على أمل حتى النهاية أن تقول لي لا[..]كان الأمر غريبا جدا[..]في رأسي قلت لنفسني: أنت كاتبة ستفعلين ذلك وإلا كان ذلك جنونا، ربما هذا هو السبب

154 مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، ص11

في أنك بدأت الكتابة حتى تظهر هذه الذكرى على السطح و تفهمين شيء عن علاقاتك...¹⁵⁵ لتوضح العلاقة ما بين الكتابة وحياتها الخاصة.

ث- اليوميات الخاصة: (journal intime):

وهو أن تسرد حياتها في شكل يوميات لتتحدث عن أعمالها ونشاطاتها اليومية مع سرد تفاصيل دقيقة تكون لها دور مهم في حركة الأحداث وقد عرفها ناصر بركة في أطروحته " يخضع فيها عرض الأحداث، لسلطة الزمن اليومي، ويتقيد كتابيا بالظروف الزمكانية، والنفسية والاجتماعية، لكيفية اليوم الذي تسجل فيه كل يومية "¹⁵⁶ فهي أكثر أشكال السيرة حوضا في التفاصيل التصاقا بالواقع " ليس محكيا استعاديا إذ لا يتيح للمؤلف إمكانية اتخاذ مسافة مع الأحداث المروية ويكون متقطع و متشدرا على نحو لا يسمح بتطور الأحداث "¹⁵⁷ إذ لا تعتمد كثيرا على الذاكر في تسجيل أحداثها ليكون ذلك أي وهذا ما حاولت تقديمه مقدم في روايتها (المتردة) .

وهي تسرد الأحداث بين هنا وهناك حيث تقابل حياتها الحاضرة في مونوبولي بحياتها في صحراء الجزائر كما أنها لم تضع إسم لشخصيتها الرئيسية غير أنها تذكر إسم (مقدم) وهي تأخذ إحدى الجوائز، فتبدأ رواية حياتها من "هنا" "Ia" وهو ضمير إشاري يعبر عن المكان، البلد الذي تعيش فيه "فرنسا" معتمدة في تسجيلها على الزمن القريب " لقد غادر هذا الصباح "¹⁵⁸ لتبدأ ذاكرتها في العمل انطلاقا من حواسها "وحيدة هذا المساء في رائحتنا...ولكن الرائحة مازالت هنا في نسيج القماش في ذاكرة السرير في سبعة عشرة من جسدنا. من

¹⁵⁵ Faiza baiche: les techniques de roman chez Malika Mokeddem, Thèse de doctorat ès sciences, université les frères, constantine, alger, p7(ترجمتنا)

¹⁵⁶ ناصر بركة، أدبية السير الذاتية في العصر الحديث، رسالة دكتوراه، إشراف محمد منصور، جامعة باتنة، 2013، ص 3

¹⁵⁷ محمد الداوي، الحقيقة الملتبسة (قراءة في أشكال الكتابة عن الذات)، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007، ص 13

¹⁵⁸ مليكة مقدم: المتردة: ص 9

أنفاسنا المتشابكة"¹⁵⁹ لتعبّر عن ما يمكن للجسد من أن يحمل من ذاكرة تقاوم النسيان، وحتى في كتابتها "هناك " La Ba " رغم دلالة هناك إلى الزمن الماضي عودة إلى طفولتها إلى عمر 4 سنوات فهي تحوله إلى حاضر من خلال اعتمادها للأفعال المضارعة، "ونحن نتمدد الواحد بجانب الآخر... ننزلق تحت البطانية... أستيقظ مرات كثيرة.. أمقت النوم أتمنى لو أنني لا أنام أبدا".¹⁶⁰ في مناورة لغوية لجعل كتابتها عن الماضي في شكل يوميات.

لتقدم إشارية أخرى أكثر تعبيرا عن علاقتها بالجزائر وما يحدث بالبلد في محاولة إعطاء مصداقية لسيرتها من خلال ربطها بتواريخ واقعية في قولها "هذا المساء من بداية شهر مارس من سنة 1994"¹⁶¹ هذا التاريخ الذي يمثل بداية النكبة التي ألمت بالجزائر وذلك بإعلان الجبهة الإسلامية للإنقاذ "الحزب المنحل" الحرب بعد تكوين جماعة مسلحة ضدّ النظام الجزائري، وذلك بسبب نجاحها في الانتخابات البرلمانية حيث تم إلغاء الانتخابات مخافة فوز الإسلاميين، تعتمد كما في كل نصوصها على مصطلحات طبية توظفها في كامل نصها داخل المشفى وخارجه لتؤكد علاقة الساردة، بالشخصية الرئيسية وكذا بالكاتبة التي تمارس مهنة الطب "في النهار يتلعبني الطب والكتابة بشكل كامل، في النهار أعالج أجسادا أخرى، أو أعالج نفسي من خلال الكتابة عن الجزائر، و عن الغنغرينة الوجدانية".¹⁶²

تتحدث عن روايتها السابقة لتؤكد أنها تكتب سيرتها في كليتي الروايتين "أربع سنوات من عمل مجهد، من

أجل كتابي الأول الرجال الذين يمشون، أربع سنوات في تسمع الطفولة والمراهقة...".¹⁶³

¹⁵⁹ مليكة مقدم المتمردة ص 9

¹⁶⁰ مليكة مقدم المتمردة، ص 14

¹⁶¹ مليكة مقدم: المتمردة، ص 11

¹⁶² مليكة مقدم المتمردة، ص 17

¹⁶³ مليكة مقدم المتمردة، ص 65

تركز (مقدم) في كتب سيرتها الأولى على مرحلة الطفولة. وتحدث أيضا عن كتابها الآخر " كان كتابي الثالث (المنوعة) قد حصل للتو على استقبال مشجع في فرنسا... ولأنني قررت أن أحفر في الأجزاء المخفية من ماضي.."¹⁶⁴ لتواصل الحديث عن كتابها الرابع تقول: "أكتب حتى ساعة متأخرة، حتى الإنهاك، أكتب رواية-روايتي الرابعة هجائية حول الجزائر، أكتب طوال الوقت، وحتى بين استشاريتين طبيتين."¹⁶⁵ وفي محاولتها الاستشفاء من خلال الفن تحاول أن تعبر عن كل ما أخفي في صندوقها العجيب من ذكريات وحنين إلى الماضي مع العديد التساؤلات التي ظلت عالقة .

ج- الرحلة:

وهي كتابة خاصة متعلقة بالترحال وهو "نوع من محكي السفر **récit de voyage** يستعرض فيه السارد ما شاهده ووقع له في تجواله ورحلاته عبر قطر أو مجموعة أقطار. وهي قديمة قدم الإنسان، ويجمع هذا المحكي بين القيمة العلمية (عرض معلومات جغرافية وتاريخية دقيقة) و بين القيمة الأدبية (السرد، والوصف، والمشاعر البشرية)¹⁶⁶ تستخدم (مقدم) هذا النوع من المحكي في روايتها "نزيد" وكذلك "ليلة الساحلية" رغم أنها تدمج الخيال برحلاتها غير أنها تستعين برحلاتها في بنائها السردية، ففي رواية نزيد تنتقل البطلة نورا بين ضفاف المتوسط على متن الترامونتان (قارب صغير) تغادر أثينا لاستعادة القارب الذي تركته مع صديقها جان رولان، والذي كان ينبغي أن ترافقه إلى تونس، فتتوجه إلى سيراكيوز حيث من المتوقع أن ينضم إليها حبيبها (جميل)، بعد أن أنهى حفلته الموسيقية بوهران، أين تعرضت نورا لهجوم، فقدت الذاكرة فيه، لتستيقظ في قارب وسط البحر أين يساعدها شغفها بالرسم على استعادة الذاكرة.

¹⁶⁴ المرجع السابق، ص 27

¹⁶⁵ المرجع السابق، ص 29

¹⁶⁶ محمد الداوي، المرجع السابق، ص 13

تواصل رحلتها إلى بلدان أخرى. فتتحدث عن هذه الرحلات بكثير من الحنين خرجت ليلا: "لتنفحص الشوارع شديدة الانحدار، لتشعر بأحجارها أو حصاها تحت أحذية قماشية، لمشاهدة الحدائق المغلقة، الاستيلاء على مقتطفات من الجمل، ومزيج من الأغاني، وملاحظات التانغو ولفلامغو"¹⁶⁷

تهرب نور في رواية "ليلة الساحلية" من زوجها الجاهل، لكي تعيش بعيدا حياة من اختيارها، لتقودها خطواتها إلى قصر مهجور في وسط الصحراء، لتتعرف على رجل أعمى فتكون بمثابة النور الذي يعيش عليه ساسي في ظلمته أين تحول نور المكان المهجور إلى مكان سحري وجميلة بإنشاء مزرعة والاهتمام بأرض الأجداد، وأن بقاءها في القصر كان بمثابة رحلة أخرى تجاه الحرية المأمولة بعيدا عن البشر فتقول "عندما انتقلوا جميعا، قلت لنفسي أنه من خلال البقاء في عزلة القصر، فإننا نتجاوزهم، وهكذا، فإننا بالتأكيد سنجد بعض السلام-إلى أين؟ ليس إلى أي مكان".¹⁶⁸

تنتقل إلى رحلة أبدية لا عودة منها، أين تموت البطلة بسبب مرضها ويستمر ساسي في العناية بالحديقة، إن حب (مقدم) لترحال كواحدة من البدو كان ظاهرا في كل رواياتها حيث أنه لا توجد رواية إلى وفيها فكرة الانتقال بين عوالم مختلفة، لتعبر أيضا عن ثقافات مختلفة، ففي روايتها "قرن الجراد" يظهر سرد الرحلة في عديد من المواقف أين يسافر الأب محمود إلى الشرق ليتعلم ويعود إلى بلده محملا بثقافة شرقية، فقد أرادت والدته "أن يتم تعليمه على ذهابه للتعليم، أولا في مدرسة تلمسان ثم في الأزهر، أتمنى أن تتم إرادة والدك، يا بني اذهب بركتي معك"¹⁶⁹ هي التي أصرت أين ينشد أشعار عمر الخيام قبل أن يقرر العودة إلى وطنه. غير أن الرواية هي القالب العام للسرد وان (مقدم) تستخدم الحكيم من خلال الرحلة، كنوع من تثبيت هويتها كبدوية رحالة، من حيث استخدام الرحلة، كطابع فنية بدمج مشاهد مختلفة .

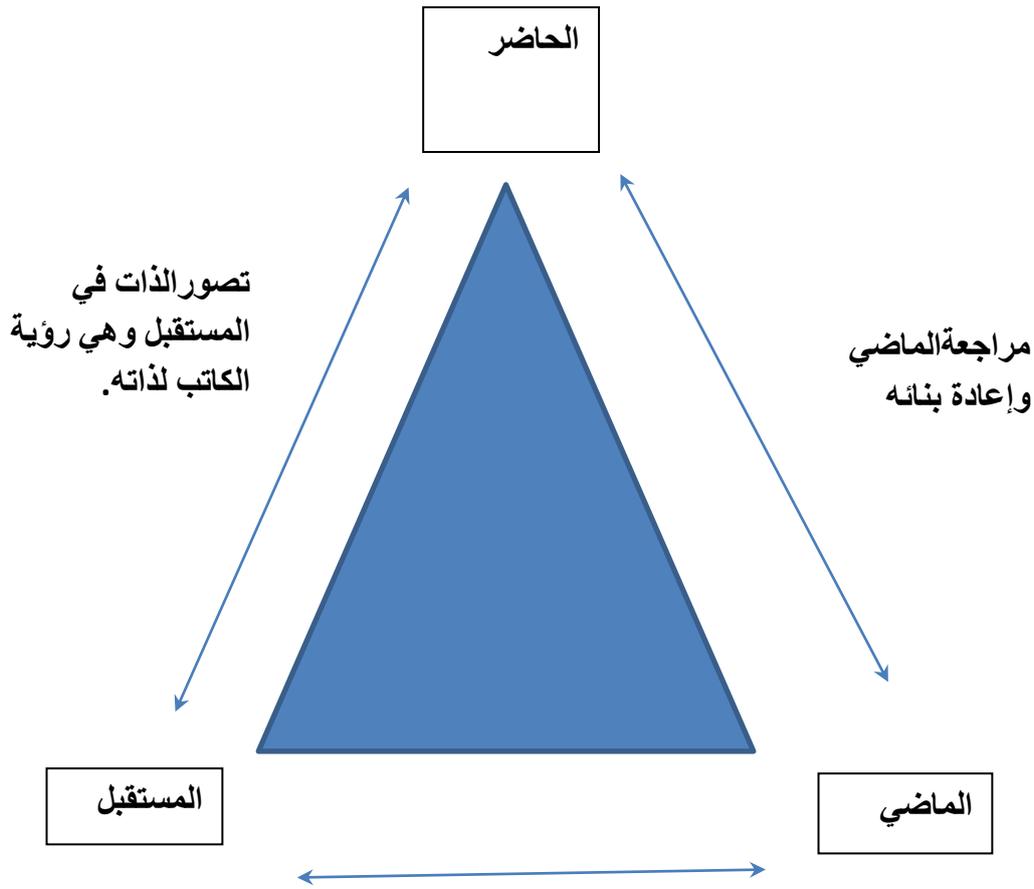
¹⁶⁷ Malika mokaddem ,n'zid, paris, Grasset, 2001,p 191

¹⁶⁸ Malika mokaddem, La Nuit de la lézarde ,paris,Grasset,1998,p201,

¹⁶⁹ Malika mokeddem,les siècle des sauterelles, ramsay,paris,1992p25

لا تتطابق كتابة السيرة ذاتية وواقع الحياة بالضرورة، فهي خاضعة لرؤية صاحبها بعيدة عن الموضوعية فهي خاضعة لذاتية صاحبها، وطريقة تقبله الظروف التي عايشها، فالذاكرة لا يمكنها سرد كل الأحداث كآلة تسجيل بل يمكنها أن تعتمد إحساسها تجاه الخبرات المختلفة التي عايشها الإنسان في موقف ما، لتبدأ النصوص حياة جديدة مع كل قارئ بل مع كل قراءة لنفس القارئ، أين يكمن دوره في البحث عن المضمّر في مختلف التفاصيل التي صرح بها الكاتب أو التي ظلت عالقة بين الأسطر، غير أن نصوص السيرة الذاتية توضح رؤية الكاتب تجاه ذاته وتجاه العالم الذي يعيشه وكيفية تصور هذه الذات في المستقبل، يبنى الزمن فيها ليس على أساس خطي، بل على شكل هرم لتكون نقطة الصفر هي رأس الهرم الذي يبدأ من الحاضر صوب الماضي حين، وصوب المستقبل حيناً آخر، في حين يكون كل من الماضي والمستقبل أساساً يشكل ذلك الحاضر.

سواء كانت ما تكتبه مقدم سيرتها الشخصية أم أنها رواية، غير أن المنفق عليه أنها لم تكتب عن ترف فقد فرضت الكتابة نفسها على (مقدم)، لتحاول مساءلة الماضي من خلال الكتابة، ورغبة منها في العودة بعد الاستئصال العائلي الذي عاشته، إلى الوطن، غير أن تكرار الكثير من الأحداث والتفاصيل في رواياتها يشي بحضور الماضي في كتاباتها.



رسم تخطيطي يوضح حركة زمن السرد في كتابات مليكة مقدم

إن انكشاف الذات في السيرة ذاتية، تعبر عن رؤية السارد للوقائع وتحليله لها، وكذا إحساسه بها، فإنه يمتلك سلطة ممارستها، وذلك من خلال تقديم معلومات حول الشخصيات وحركتها في الزمان وكذا في المكان باعتبار أن السارد مصدراً وحيداً لتلك المعرفة حيناً وتأويلها حين آخر، وإضفاء رؤيتها الخاص حولها. ما يجعل بناء الهوية السردية جزء لا يتجزأ من هوية الكاتب السارد، في محاولته المتكررة للإجابة عن تساؤلاته حول من أكون؟ ولما أكتب؟ ولما أكتب؟ ولم يخلو نص من نصوص (مقدم) إلا وضم هذه الأسئلة سواء بطريقة مباشرة، أو من خلال إجاباتها حول ذلك، ليقوم الكاتب ببناء هويته الفردية وبلورتها، من خلال الهوية السردية وذلك كنوع من إعادة ترجمة تلك الذات.

ثانيا الحفريات في الذات عند مقدم:

تكتب مقدم نصوصها من خلال الحفر في زوايا حياتها المخفية، لتكشف عن تخبطات هويتها بسبب علاقتها الغير سوية مع انتمائها إلى وطنها، وبجنتها عن موطن بديل يجمع تناقضاتها، وصراعاتها في الوقت ذاته، فلا مكان يحتوي هذه التناقضات خير من النص أين سنحاول الكشف أو الحفر في هذه الزوايا المخفية من حياة مليكة مقدم، رغم ما طرحته الحداثة من فصل النص عن بيئته وحياته وسيورته التي سلكها، لكي يكون على قيد الحياة، بل أكثر من ذلك إلى قطعه عن كاتبه وإعطائه حياة أخرى، غير أن الكتابات الكولونيلية أثبتت العلاقة الوطيدة بين النص وتشكلاته، الأكثر حميمية بدءا بظروف إنشائه، إلى لحظات تواجهه الأولى، فتقول في روايتها (المتردة) "كان كتابي الثالث(الممنوعة) قد حصل للتو على استقبال مشجع في فرنسا...ولأنني قررت أن أحفر في الأجزاء المخفية من ماضي.."170 فقد قررت مقدم النباش عميقا في ماضيها محاولة إعادة التوازن في حياتها.

وليست الحفريات التي نقصدها في كتابات (مقدم) أن نقيب ونبحث عما هو صامت أحرص فنمنحه صوت داخل النص، وإنما من خلال تحويل الأصوات الموجودة في النص إلى نصب تذكارية، أكثر حياة من سابقتها، فنصوص (مقدم) تصدر دائما من خلال الذاكرة، لتشي بحضورها ليس من خلال الآخر بل من خلال ذاتها نفسها لتنتقل من ذاتها في حديثها عن الآخر من داخل هذه الذات نفسها فهي تجربة حضور العدم في محاولة إثبات الكينونة من خلال الذات نفسها .

هناك أصوات عديدة في نصوص مقدم تحتاج إلى أن نستمع إليها، لنفهم من خلالها تشكلات الذات عند

مليكة مقدم.والتي نعرضها في هذه النقاط:

170مليكة مقدم، المتردة، ص28

1- السفر والعبور:

لطالما كان السفر والعبور إلى الضفة الأخرى تيمة، تميز كتابات العديد من الأدباء في التاريخ القديم والمعاصر، لما يحمل السفر من حاجة ملحة، لتترك المكان الذي كان سبباً في الشقاء، فيكون التطهير من خلال الابتعاد عنه، وقد كانت الهجرة رفيقة لما بعد الاستعمار، وذلك لما خلفه الاستعمار من جهل، وجوع وفقر، وانعزال، فكانت الهجرة سمت العصر الحداثي، وارتبط السفر والعبور بحياة البدو الرحل الذي كان جزءاً مهماً في حياتهم تأثرت به مليكة مقدم ورافق أمانيتها وأحلامها منذ الطفولة، فتقول: «ومن حسن الحظ أن بعض الرّحل كانوا يأتون، أحياناً، من جانبي كثيي ليوضحوا، بصفة محسوسة، هذا الماضي، ولكن بالرغم من أنني كنت أشاهد، بصفة حقيقية رحيلهم ووصولهم، فقد كان ينقصني ما هو أساسي: السفر والعبور إنه نداء يكبر في حياتي، وهذا النداء كان أحياناً من الحدة بحيث إنني لم أكن أرى شيئاً.»¹⁷¹

أين أصبح السفر والعبور هاجساً، يرافق أيام مقدم كما أنّها تتحدث عن سبب هجرتها في أغلب رواياتها، وتعمل على تهجير أبطالها، ففي رواية (قرن الجراد) يسافر الأب محمود إلى الشرق، ليواصل تعليمه، فيأتي الخلاص من الشرق، خاصة وان هذه الرواية كتبت مرحلة الاستعمار، فلم يكن الغرب إلى جرادا مستهلكاً لكل ما يجده في طريقه بدأ بالأحلام، وصولاً إلى الأشخاص، أين يهاجر الأب سعياً لطلب العلم من المشرق، ليحارب بعودته الزوايا، التي كانت سبباً في نشر الخرافات بدعم من الاستعمار، فيكون سبب السفر هو البحث عن الذات.

تواصل مقدم تهجير أبطالها، فسلطانة غادرت الجزائر لسنوات عديدة منذ سن الخامسة عشر، أما سلمى هي الأخرى فتعيش في مونبوليه وتعود إلى الصحراء لتواجه أمها، لتروي في كل من رجالي والمتمردة سبب رحيلها، حيث جاءت الروايتين دون ذكر اسم الشخصية الرئيسية، غير أن اسم مليكة يرد مرة في (المتمردة) بصيغة غير صريحة، فتتحدث عن نوعين من الرحيل الأول غير فعلي بسبب شعور البطلة بالظلم بعد أن قام الوالد بتكسير

¹⁷¹ مليكة مقدم، المتمردة، ص 85

حصلتها التي جمعت أموالها من خلال العناية بأخيها تقول: «بعد بضعة أشهر كسرت حصالي أثناء غيابي عن الدار لتسلبني مدخراتي القليلة؟ كرهتك في ذلك اليوم يا أبي، ولفترة طويلة سرقني، وحنثت بالوعد الذي قطعته لي، هذا كل ما كان بوسعي أن أتوقعه منك، أنا ابنتك. منذ ذلك اليوم، بدأت أرحل يأيي»¹⁷².

الرحيل لم يكن في بادئ الأمر من خلال السفر وإنما من خلال العزلة، شعور البنت بالوحدة والظلم، كان سببا في الرحيل الأول، ليتبعه بعد ذلك رحيلاً شبيهه بالقطيعة تصف مقدم ذهابها إلى المدرسة بالرحيل لأنها كانت تنتقل من منطقة إلى أخرى، فتقول: «فقد كان الرحيل، ومغادرة الدار، سعادة بحد ذاتها»¹⁷³ وقد اعتبرت مقدم الرحيل، سعادة لأنها تحررها من القيود العائلية من جهة وقيود المجتمع من جهة أخرى.

ما جعلها تفضل الرجال الأجانب وربطهم بما تسعى إليه من حرية تقول: «شخص أجنبي بمثابة المشارف الأولى للمنفي، المنفى الخلاصي. الآن، بثُّ مقتنعة أنّ وحدهم الرجال القادمين من بعيد، من أرض أخرى، بوسعهم أن يساعدوني على التحرر نهائياً من البلبلة الجزائرية... حاجة للهروب من الاستنطاق، والقسوة والتميز والغباء، والقمع الذي يمارسه المؤلف، وفك التصاقي بالعادات، ومحاكاة الجماعة.»¹⁷⁴ فكلمة الهروب تفوق السفر والرحيل لأنها تصبح حاجة ملحة وليست ترف، هذه الكلمة التي تتعدى في استخدامها النفي، والاغتراب، فالهارب يكون في الغالب طالبا لنجاة من شيء ما، فهي مقاومة للموت، تتحدث في روايتها الأخرى (المتمردة) عن سبب الهجرة «أفكر في الظلام، في قبيلتي التي ولدت فيها، لم أهجرها عن رفض، أو عن تذوق للمغامرة، لقد قطعت نفسي عنها كي لا أموت، اختناقاً»¹⁷⁵

¹⁷² مليكة مقدم، رجالي، ص15

¹⁷³ مليكة مقدم، رجالي، ص30

¹⁷⁴ مليكة مقدم، رجالي، ص72

¹⁷⁵ مليكة مقدم: المتمردة، ص17-18

تؤكد مليكة مقدم سبب هروبها، أين اختارت جحيم المنفى، على القرب العائلي الذي كان يخنقها، بسبب شعورها بالاختلاف عن أقرانها وأهلها من خلال الممارسات الاجتماعية التي عدتها بالقهرية وغير المنصفة في حق المرأة في مقابل الرجل أين تقول لنفسها: « لا مكان لثائرة مثلي في الجزائر إلا إذا انتهى بي الأمر في المقبرة أو السجن...» .¹⁷⁶ غير أن هذا الصوت يرتبط بأصوات أخرى كالحب والذي تعده مقدم « ليس إلا حالة عبور وننتهي دائما بأن نطرد منها»¹⁷⁷ فهو انتقال وسفر من حالة إلى أخرى وكذلك الموت والمشي والأم

2- صوت الموت:

إن أكثر صوت يصدر عن روايات مقدم هو "صوت الموت"، فالموت عند "مقدم" يشبه المشي أو الترحال من مكان إلى آخر، رغم أنها تفضي بعدم تصديقها لوجود حياة أخرى، بعد الموت غير أنها تعتبر الموت رحلة وليست الحياة هي الرحلة، لتحضر هذه التيمة في أغلب رواياتها بين موت الشخصية الرئيسية أو وموت الأم، وغيرها.

تموت الأم في رواية (قرن الجراد) في مقطع وتسافر بحثا عن الحرية في مقطع آخر من الرواية، نفسها التناقض في واقع الأمر هو إحالة إلى أن حرية المرأة تأخذ من خلال الموت، هذه الرحلة الأبدية التي تسافر إليها "نجمة" والدة ياسمين، ليلحق بها الأب في آخر الرواية بعد أن يفشل في الانتقام لقتل زوجته، غير أن ياسمين تخرج عن الصمت الذي وقعت فيه بسبب القتل، إلى الكتابة، ويلاحق الموت أبطال آخرين فوالد محمود يموت قبل ولادة محمود أين يقع شهيدا وهو يدافع عن أرضه، كذلك يموت أخ محمود ويأخذ هذا الأخير اسمه، الذي يعتبره كلجنة موت ترافقه

¹⁷⁶ مليكة مقدم: رجالي، ص73

¹⁷⁷ مليكة مقدم: المتمرده، ص107

يقول: «كنت قد عرّفت الموت بالفعل لفترة طويلة، دائما لقاءه لم يكن صدمًا لي، لا لقد استشعرت ذلك تدريجياً لأول مرة. لقد نشأ في داخلي مع الإدراك المبكر لاختلاف عن الأولاد الآخرين. ولدت بلا أب، الملامسة المستمرة لهذا النقص ميزني، نما الغياب المتوهج في طفولتي»،¹⁷⁸

ليكون الموت حاضراً في حياة البطل أين يفقد والده وأمه وبعد ذلك زوجته «وكان الموت قبل كل شيء هذا العيب في حياتي، ولدت منه مبتوراً، كما أن محمود الآخر لم يفاجئني على الأقل الذي ولد فقط ليرفض الحياة، ويلجأ إلى بطن الأرض»^[..] كنت فقط النصف الساقط نسخة شاحبة، رسم تم إلقاءه في الحياة [..]. لقد ناشدني سر الموت حينها، لقد كان المكان الوحيد كما أعتقد الذي لم يعد منه حتى البدو أبداً¹⁷⁹ لتجعل من الموت الرحلة الأبدية، التي تعد خلاصاً للإنسان.

فالموت مرحلة في حياة الإنسان أين تموت نور في رواية (ليلة السحلية) وقد حاولت كثيراً التواصل مع روح ميت في بيتها الجديد، لتحيا نورا في (رواية نزيد)، لتعمل مقدم على موت نور في روايتها كسبيل لإنهاء مأساتها وتعلقها بذلك الفضاء الذي عادت إليه مرغمة "الصحراء"، ذلك التعلق بالأرض جعلها تموت بسلام لكنها، تحيا في روايتها التالية تستيقظ في وسط البحر المتوسط (كانياس) في ملحمة (فرجيل) في الإنيادا الذي يهرب من الموت في طروادة ليعيش الحب في قرطاجة ثم يرحل ليؤسس أعظم دولة (دولة الروم) وهو انتقال رمزي من الجحيم إلى الفردوس عن طريق البحر ..

ليكون البحر بديل عن الصحراء، وفضاء للحياة والاستشفاء، لتنجو من موت أكيد، لتتعرف على ذلك من خلال رسالة تجدها في قاربها، بعد أن فقدت ذاكرتها ومع كدمة في الرأس، أين يصير الفضاء المطلق وطن، ليقوم البحر بعد ذلك بوظيفته، أين يمتص القلق والخوف، من ذات مضطربة لا تعرف من تكون، غير أن وجود وسائل

¹⁷⁸ Malika mokeddem, les siècle des sauterelles, p29

¹⁷⁹ Ibid. p29

لرسم أوصلتها إلى الاعتقاد أنها ربما تكون رسامة، فتعتمد على الرسم لإخراج الصور التي ظلت عالقة في ذهنها فهي لا تدرك هل هذه الصورة نابعة عن الخيال أم أنها مستوحاة من الذاكرة.

ويواصل الموت عبثتهفي شخصيات مقدم أين تقتل الطبيب ياسين بدون سبب للموت، فتعود سلطنة حبيته إلى الوطن بعد أن غادره هو وكأنما تريد من ذلك أن تقول أن الوطن ليس مكان لاجتماع الأحبة، وإنما مكان لتوديعهم، وفي نفس الرواية تقتل مقدم أم البطلة "سلطنة"، على يدي والدها، فلا تحمل الرواية أي ذاكرة للأم عدى الموت، هذه الأم الجميلة التي قتلها الوالد بالخطأ بعد أن كثر الحديث عنها من طرف الحاقدين، بسبب زواجها من رجل من خارج القبيلة، قادم من مكان آخر، لتحيل مقدم إلى إخمادها الدائم لصوت المرأة في نصوصها، وتعوضها من خلال بنت صغيرة، فهي تعطي الأمل لما هو قادم بدل ذلك الذي كان.

تعتقد مقدم أن ما تعيشه المرأة في الجزائر، هي سبب فيه، تقديس الذكر سببه المرأة أين تجيب عن ذلك في روايتها الأخيرة أدين بكل شيء للنسيان أن "الخير امرأة والشر امرأة".¹⁸⁰

وفي هذه الرواية(أدين بكل شيء للنسيان) أيضا يبدأ السرد انطلاقا من الموت، أين يتم قتل الرضيع، وتستعيد البطلة سلمى ذاكرتها من خلال الموت أيضا، بسبب موت مريضة لها، ومشاهدتها صورها بفستان الزفاف، فتشبه مقدم ذلك الفستان بالقماطة التي كانت تلف الطفل قبل موته، و التشبيه هنا يقود لفكرة ، تشابه رحلة الحياة والموت، بين الفرحة الغير مكتملة للفتاة بزواجها، وقدم المولود الغير مرغوب به، وقتله .

3- المشي:

يعبر المشي على التخطيطي، وتجاوز مرحلة إلى أخرى، لكن المشي بالنسبة لمقدم فهو يعبر عن ثقافتها البدوية وحياة الترحال التي حلمت بها في صباها، غير أن مرحلة الاستعمار واندلاع الثورة حالت دون تنقلات البدو،

¹⁸⁰مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ص55

وجعلتهم يستقرون، ولأن مقدم أحببت جدتها كثيرا، وأحبت حكاياتها عن الترحال، لم تكن ترى في جدتها العجز الذي كانت تراه في والدتها، فربطت مقدم بين الترحال والحرية، عدم الارتباط بالمكان يمنح الإنسان، القدرة على التعرف على الذات، وصقل هذه الذات، لتبدأ مقدم روايتها الأولى التي جعلت عنوانها الرجال الذين يمشون أو الرجال السائرون (Les hommes qui marchent) الذي تعطي فيه وفي أغلب نصوصها أهمية أو حياة لبعض الأماكن مثل الكتيب فتقول عند سفح الكتيبان عند بوابة إرغان الكبرى "Au pied des dunes, aux portes du Grand Erg" أين استقرت القبيلة لتصبح العجوز زهرة الكبرى، لا تنسى، رواية القصص وعماد الحكمة والتقاليد¹⁸¹ وكأما تسرد أسطورة من الأساطير، لتعطي الحكاية طابعا ملحيميا، فتحيل إلى ثقافتها الشفهية كواحدة من البدو الرحل، وهنا أيضا تسير مقدم لتنتقل من خلال الكتابة من بلد إلى آخر، لتعود إلى بلدها بعد غياب طويل لتكون العودة من خلال الكتابة ومن خلال روايتها (الرجال الذين يسرون) ، أين تعود مقدم إلى أسرتها من خلال الكتابة ، فقد واجهت مقدم ذاكرتها عن طريق الكتابة، أثر مشي البدو كان سببا لقيادة الكاتبة إلى رحلة لا نهائية من خلال الكتابة منذ أول سنة للكتابة في 1990 إلى 2013، ثلاثة عشرة سنة من الكتابة دون انقطاع أسفرت عن 12 رواية مترابطة بعضها ببعض ،وتحيل إلى بعضها البعض.

ولأن المشي هو التحرر والانطلاق، غير أنه يقود إلى أصل مقدم إلى البدو و الرجل الذين يمارسون المشي طيلة حياتهم، غير أن المشي ترافقه الحكايات المتنوعة لهذه التجربة الفريدة، أين تتجمع الثقافة الشفوية ، لهؤلاء البدو لكن مقدم، تمزج بين الكتابة و المشي لحفظ الذاكرة، من اختراقات الزمن، فتتحدث عن إحدى الشخصيات التاريخية، وهي "إيزابيل إبرهارة" في روايتها الثانية، (قرن الجراد) هذه المتحررة من جنوستها"عند ذكر هذا الاسم، فإن الحلم الجميل يشمل السبب في إحاطتها بهالة ذهبية، حلم أن تمشي المرأة وتكتب، رومية ترتدي زي البدو وتغمرها كل الشدود، لذلك تنكر في زي صبي وتحركها رغبة واحدة في تحديد الهوية، أين تتبع

¹⁸¹ Malika mokeddem, les hommes qui marche, la couverture

ياسمين، خطاها في نفس البلد".¹⁸² ليكون المشي حرية تريد (مقدم) أن تضيفها بحرية أخرى، وهي التخلي عن كونها أنثى بالتخفي في ملابس صبي، وأن ذلك يشبه حلم جميل يرافق الصبية ياسمين التي تسير على خطى الرومية.

تيمة المشي قوية كالموت تماما في رواية مقدم لترافق كل رواياتها دون استثناء فنجدها في "الممنوعة" ترافق ممنوعات مقدم، لتسير البطللة سلطانة إلى المقبرة أين يدفن رفيقها ياسمين، فمثلا هذا المشي ممنوع على النساء، أين النساء لا تسرن في الجنائز، فهي حكرا على الرجال، لتجيب من خلال صوت صالح وهو أحد أصدقاء ياسمين في حديثه مع رئيس البلدية:

«-رئيس البلدية - همس لي خالد- سيدتي،

لا تستطيعين المجيء. ممنوع.

شديني صالح من الذراع. ممنوع؟ ومن منعه؟

-لا تستطيع المجيء! الله يحرم ذلك!

- تصور بأن الله قال لها بأنها تستطيع المجيء. أتيت من بعيد من أجل هذا.»¹⁸³

فمن خلال المشي في جنازة صديقها تريد مقدم تحدي السلطة الذكورية، ليكون المشي حرة وانعتاق بالنسبة للكاتبة، حيث تلجأ إليه في روايتها "أدين بكل شيء للنسيان"، في محاولتها لتخطي فاجعة عودة الذكريات لها، وتذكرها ذلك الحادث الأليم، لقتل الأم، الرضيع ابن الخالة فتلجأ إلى المشي لتواجه به تشويش أفكارها. أما في روايتها المتمردة فتأكد على هذه الخاصية المميزة للبدو من خلال قول جدتها «إننا لسنا نخلات كي نحتاج إلى

¹⁸² Malika mokeddem, Les siècle des sauterelles, idid, p158

¹⁸³ مليكة مقدم، الممنوعة، مرجع سابق، ص22

جذور، نحن نمتلك سيقانا كي نتمشى ونمتلك ذاكرة، كبيرة جدا¹⁸⁴ «الارتباط بالمكان لا يكون إلا من خلال الذاكرة، لذلك يعد المشي والترحال، جزءا من الطبيعة الذاتية التي يعيش من خلالها هؤلاء

4- الأم:

تعد الأم في حياة مقدم نقطة الضعف التي جاءت منها كل علاقاتها، فهي لم تتقبل فكرة أن تكون والدتها مشاهدة صامتة، فهي لم تدافع عنها، وبالتالي فقد شاركت نوعا ما في العنف التي شعرت به مقدم كبت كبرى، في الصحراء الكبرى أين كان وجودها علة في حد ذاته، فتقول في روايتها رجالي "كنت أرى الأمهات يقترفن هذه التفرقة، ولكثرة ما راقبت وحشيتهن وانحرفهن، وحاولت إدراك دوافعهن، ترسخ لدي اليقين بأن خسة الأمهات وكراهيتهن للنساء، هي التي تؤهل الرجال لدور الأبناء القساة القلب".¹⁸⁵ تعتبر مقدم أن بداية التفريق بين الأبناء مصدرها تقديس الأمهات الأولاد حيث يسعين جاهدين لإنجاب الذكور، من أجل مواجهة العائلة والمجتمع، فتقول: "كن يجسدن، بسبب الإهمال الذي يتعرضن له منذ الولادة، عاهة جماعية لا يتحررن منها إلا بالإنجاب الأبناء الذكور"¹⁸⁶

ولذلك السبب تقابل (مقدم) إهمال والدتها ورفضها بإهمال مماثل له في كتابتها، حيث يتم اغتيال الأم في رواية "قرن الجراد" وكذلك في رواية الممنوعة حيث يقتل الأب الأم فلا تملك البنت أي ذكرى عن والدتها التي تحاول عبثا تذكر ملامحها في رواية "نزيد" أين تظهر مشوش في كل حين، غير أنها بعد ذلك العبور للمتوسط تصرح لجون لوي في رواية رجال بأنها عبرتها، وتجاوزت ذلك الجرح في حياتها فتقول بعد أن قطعت مسافة في البحر سباحة « لقد فعلتها، لقد عبرت البحر!». لم يعرف أبي أفكر في الأم بدل البحر». ¹⁸⁷

¹⁸⁴ مليكة مقدم، المتمردة، مرجع سابق، ص 97

¹⁸⁵ مليكة مقدم، رجالي، مرجع سابق، ص 12

¹⁸⁶ المرجع السابق، ص ن

¹⁸⁷ مليكة مقدم، رجالي، ص 133

هذا العبور جاءت بعده رواية أدين بكل شيء للنسيان أين تواجه فيه البطلة والدتها، أين تعيد الصدمة سلمى إلى الماضي للتذكر حادة أليمة كانت ام سلمى وراءها، أين يتم قتل صغير الخالة، لأنه ابن غير شرعي، لتشهد سلمى ما حدث من ثقب في الباب، غير الريح تحمي سلمى من هذه الذكرى الأليمة، وتمحوها، لتعود هذه الذكرى فجأة تقول: "ومر عندئذ الفيلم الصامت مرات. يد الأم، هجومها، قفزات الرضيع و استغاثة عيني زهية. سمر التعب سلمى في مكانها. كانت يد الأم تأخذ طابع العناكب الكبيرة التي تنسى بالريح الرملية".¹⁸⁸

لتكون لهذه الحادثة الأثر الكبير على حياة سلمى أين تتحدث الكاتبة عن الانقسام الذي تشعر به البطلة فتقول "سيساعد هذا الهدف سلمى، يجنبها الانهيار، انهارت حياتها في ومضة واحدة، للذاكرة ستنقسم من الآن فصاعدا من القبل والبعده"¹⁸⁹. ليرتبط الانقسام بين نسيان ذلك الحدث ، وهجومه على حياتها، فهي تدين للنسيان بحياة القبل المطمئنة، "واعت سلمى شيئا فشيئا ، ماهي مدينة به، لهذا النسيان، إنه أصل هذا التكر، الذي شكلها، وأصل العلاقة الخاصة بينها وبين أمها"¹⁹⁰

كانت حاجة سلمى للنسيان، كبيرة لكي تستمر، غير أن رغبة ملحة في مواجهة الأم بذلك الماضي، فتعود إلى مسقط رأسها بعد غياب أكثر من ثلاثة عشر سنة، "لكل واحدة منهما جريمتها وفقدان ذاكرتها"¹⁹¹ أين تظهر العلاقة المضطربة بين الأم والابنة في كل الرواية ، فالأم لم تقرر زيارة ابنتها إلى من أجل طلب المال لتزوج أختها، هذا المال الذي اعتبرته سلمى دية حريتها، أين تودعها في المطار بكثير من الحزن فيحاول شرطي في المطار أن يخفف عنها فيقول: « وهران ليست بعيدة! إنها تماما في الجهة الأخرى من

¹⁸⁸ مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، ص12

¹⁸⁹ مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، ص17

¹⁹⁰ المرجع السابق، ص27

¹⁹¹ المرجع السابق، ص68

البحر. ابتسمت له سلمى مكتئبة، كيف استطاع أن يخمن بأن المسافات الجغرافية لا شأن لها؟ الجهة الأخرى، بالنسبة إليهما هي الحب، هذا الجانب الحميم من الحياة حيث لن تلتقيا أبدا.¹⁹² هذا الفقد بالنسبة لها كان سبب في اضطراباتها المختلفة .

5- العودة:

تعود مقدم إلى الجزائر بعد غياب أكثر من ثلاثة عشر سنة من خلال الكتابة، بدءاً بروايتها الأولى، لتكون هذه الرواية أيضاً سبباً لعودتها لاستلام جائزة في الجزائر العاصمة بعد سنوات من الغياب. لتحمل كتاباتها هذه التيمة، أين تعود سلطانة إلى عين صفراء، الأرض التي شهدت فيها وفاة أمها، وهروب والدها أين تعرضت لمختلف أشكال الظلم، غير أن هذه العودة لن تكون إلى بعد وفاة، الطبيب الذي أحبها، والذي ذهب إلى عين صفراء ليبحث عن ماضيها، الذي خلفته وراءها تقول: «لم أكن أتصوّر أبداً بأنني أستطيع العودة يوماً إلى هذه المنطقة، ومع ذلك، لم أبتعد عنها بشكل نهائي أبدا. كل ما فعلته هو أنني ألحقت الصحراء والحزن الشديد إلى جسمي المهجر، وبقيت مجزأة بينهما¹⁹³» لتصبح تيمة العودة ضرورة، لمواجهة ماضيها التي تركته خلفها.

هذا ما فعله بطلتها نور في "ليلة السحلية" التي تعود إلى أرض الأجداد، وتسكن فيها وتموت، كذلك تفعل سلمى التي تعود بعد سنين عديدة من القطيعة بسبب ذكرى أليمة تحتاج فيها إلى العودة لمواجهة الذكريات المنسية، فتقول: «كأن الأرض التي شهدت كسوف النسيان، هي وحدها المؤهلة لإنقاذها، عليها أن تذهب»¹⁹⁴ أين تواجه ماضيها، والتي تشعر أنه سبب القطيعة بينها وبين والدتها، التي قامت بقتل رضيع الحالة، لتكون العودة حاجة ملحة، مثلما كان الحرب سابقاً، غير أن هذه الحاجة الملحة لم تظهر إلى بعد قطيعة تامة، فكان العنف الممارس على البلد وراء كتابة مقدم روايتها، وانبثاق الكلمات، أين تعتقد أن الكلمات لا

¹⁹² مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، ص72

¹⁹³ مليكة مقدم، الممنوعة، ص7

¹⁹⁴ مليكة مقدم أدين بكل شيء للنسيان، ص18

تملك القوة لرد العنف تقول: « الرغبة في تحويل الكلمات إلى شظايا. وفي ذهولي من إفلاس الكلمات، فهي لا تستطيع أن ترد، بشكل كلي، الهلع والألم.»¹⁹⁵ لتكون الكتابة محاولة منها للعودة ردا على سنين من الصمت الذي لزمته سواء وهي داخل الوطن أو خارجه، غير أن اللغة لا تساهم في إبعاد التقتيل والعنف الذي كانت تفوح بيه مدن الجزائر .

¹⁹⁵ مليكة مقدم، المتمرده، ص37

ثالثا تجليات المكان والزمان وتشكلاتهما في روايات مليكة مقدم:

1) تجليات المكان:

الكتابة هي الوجه الآخر للحرية والتعبير عن التواجد وعن الذات، والتي عبّر من خلالها الإنسان عن وجوده، فلا يكفي هذه الذات أن تكون مفكرة، بل يجب أن تعبر عن وجودها من خلال السرد، لتعبر كتب المنفيين عن حاجتهم لهذا البوح، بين حنين وعتاب لبلدانهم، و لوطنهم الأم، وبين حالة الاغتراب وعدم الانتماء التي يعيشونها في منفاهم، ما يجعل الهوية تعيش حالة صراع دائم، تزخر كتبهم، بالحديث عن المكان والزمان في محاولة لترويض وحشة الأمكنة، حيث يعيش الإنسان رهينة للمكان الذي ولد فيه، فترتبط حياته كاملة بمرحلة الطفولة، أين تعرف على ذاته؛ فهو العالم الذي يعود دوما إليه، وقد عبر عن ذلك غابرييل غارسيا ماركيز بقوله

" إن الإنسان غير منفصل عن فضائه، بل إنه هذا الفضاء ذاته".¹⁹⁶

تعد فترة الطفولة هي ما يشكل مستقبل كل إنسان، ذلك أن انطلاقه الأول، وتعرفه على العالم في مرحلة الطفولة يبيّن شخصية الطفل، لم تعد مقدم للبلد الذي ولدت ونشأت فيه إلى من خلال الكتابة وهذا ما تصرح به عن روايتها الأولى فتقول: " الكتابة هي عودتي الأولى للجزائر"¹⁹⁷ لتعود مقدم إلى بلدها من خلال الكتابة، غير أن كتابات مقدم تحمل فضاءين مختلفين أشد الاختلاف (فرنسا والجزائر) غير أنهما مرتبطتين تاريخيا مختلفين جغرافيا فقد شكلتا فضاء شخصياتهما الأثوية أو فضائهما الخاص على اختلافهما .

غير أن هذين المكانين الهائلين مثلا تواجهها وفي نفس الوقت عملا على شعورها بالغرابة نتيجة لشعورها بالاختلاف فكان عليها أن تهرب منهما لتعيش، ما خلق لديها إحساسا بالقلق والحبس الداخلي الذي كان وراء الحالة النفسية لبطلات رواياتها، فقد هجرت من الجزائر لفرنسا، ثم هجرت من فرنسا إلى الكتابة، لتبحث في

¹⁹⁶ حسن نجمي، شعرية الفضاء السردية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2000، ص1، ص25

¹⁹⁷ 1 MOKEDDEM Malika , Mes hommes, Alger, Editions Sedia, 2006, p. 158.

نصوصها عن انتماء، لنجد حالة التمزق طابعا يجمع كل بطلاتها، حيث أن بطلاتها لا ينتميان لا لهذا ولا للآخر، لا لفرنسا ولا للجزائر وإنما لمكان خاص بينهما ، والخلاص يأتي دائما من المدرسة كأفضل نتيجة طبيعية له، تنطلق من القراءة أولا ثم الكتابة بعد ذلك " حيث نرى أنه بفضل الطابع الإقليمي استطاعت شخصيات مليكة مقدم إيجاد مكان حقيقي ورمزي حيث أصبحت ذاتها، مكان يتضمن إبداعها أين تجد وتقول صوتها¹⁹⁸

1-1 الفضاء والمكان وتأثيرهما على الشخصيات:

يتجاوز المكان، وجوده المادي المحدد بجيز ما، كمجرد جغرافية يمارس عليها الإنسان حياته، ليصبح الحياة ذاتها، ما يجعل استخدامه في النص ليس تلقائي أو مجرد سرد لأحداث جرت في مكان ما ،ليعمل المكان على بناء شخصيات من خلال إعادة تموضعها في مساحة ما، فيعطي "كثافة مادية، ليس المكان مخلوقا ميتاً وجامداً أو مادة هندسية، بل هو جزءٌ أساسيٌّ ومتبدل من الحياة اليومية، مرتبط بشكل حميم بطقوس ونشاطات اجتماعية وشخصية".¹⁹⁹

يؤثر المكان على حركية الأحداث، وكذا على تفاعل الشخصيات مع واقعها، فالمكان ليس فضاءً محايداً، حيث يسكن الإنسان أماكن عديدة، غير أن الحقيقة أن الأماكن هي من تسكننا ،" تنعدي العلاقة الشكلية لأن المكان لم يعد إطاراً خارجياً جامعاً لحركية الشخصيات، بل إن المكان الروائي تجاوز وجوده السطحي المرتكز على البعد الجغرافي والفيزيائي، فقد أصبح يحدد سلوك الشخصية واتجاهها زيادة على أن تقاليد المكان وأعرافه تؤثر نفسية الشخصيات وممارساتها".²⁰⁰ كما لا يمكن إغفال العلاقة ما بين المكان الجغرافي

¹⁹⁸ Anne Aubry: Malika Mokeddem ,ou la recherche d'un espace où devenir soi-même .synergies chili n°12-2016 .p1

¹⁹⁹ Rendell, Jane. "Introduction: 'Gender, Space'." Gender Space Architecture: An Interdisciplinary Introduction.Ed. Jane Rendell, Barbara Penner, and Iain Borden. New York: Routledge, 2003,p 3.

²⁰⁰ أسماء شاهين: جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط2001، ص1، م، ص113.

كفضاء خارجي والفضاء الداخلي؛ لأعماق الشخصية وصراعاتها الداخلية، ليدخل المكان في جدلية مع الشخصيات " حيث يساعد إضفاء صفات مكانية على الأفكار المجردة على تجسيدها، فيتم التمثيل للقيمة بالمكان ". 201

ليغزو الفضاء كتابات مليكة مقدم بين هنا وهناك تكتب نصوصها، ويكون المكان هو مكون الفضاء الأساسي، حيث يؤثر الفضاء على حركة الأحداث في الرواية ويشكل جزءا مهما من منحنى الأحداث و حركتها.، حيث كتبت مقدم كل من الجزائر وفرنسا في روايتها (المتردة) بين عنوانين إشاريين "هنا" (فرنسا) و"هناك" (الجزائر) لتقابل بينهما وهي تروي أحداثا من حياتها، تدل هذا نوع من التقابل عن حقيقة تشتت الذات بين وطن تسكنه وآخر يسكنها، وهي الحالة التي تعبر عن حالة الاغتراب التي تعيشها الذات وهي مجزئة بين الاثنين، غير أنّها تبدي موقفها عن الاختلاف الموجود بين المكانين غير أن الذي لا يتغير في كل مرة هو الشعور بالوحدة التي تعيشها في الجزائر وكذا في فرنسا.

ما يجعل من المكان أمكنة في كل رواية تدخل جميعها في تشكيل الفضاء العام للرواية، حيث يميز النقاد بين الفضاء والمكان ليجعلوا من الفضاء أوسع وأكثر عمقا من المكان، الذي يمثل الحيز الجغرافي فيقول في ذلك سعيد يقطين "إن الفضاء أهم من المكان لأنه يشير إلا ما هو أبعد وأعمق من التحديد الجغرافي، وإن كان أساسيا، إذ يسمح لنا بالبحث عن فضاءات تتعدى المحدود والمجسد لمعانقة التخيلي والذهني ومختلف الصور التي تتسع لها مقولة الفضاء"²⁰² ليحمل الفضاء عبء الرموز والإيحاءات، والعلاقة التي تربط بين المتخيل والعالم الحقيقي، "ليساهم في تطوير العقدة...وفي بعض الأعمال قد يتجاوز وظيفة تأطير

²⁰¹ صابر الحباشة، غواية السرد، قراءات في الرواية العربية من (الصوص والكلاب) لنجيب محفوظ إلى (بنات الرياض) لرجاء الصانع

دار نينوى، للدراسات والنشر والتوزيع، 2010، ص148

²⁰² سعيد يقطين: قال الراوي "البنات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1997م، ص240.

الحدث ليصبح ذاته عنصراً بنائياً²⁰³ فيفتح الفضاء عن فضاء واسع رحب يحمل تحته عديد الدلالات وآخر فضاء مغلق يعبر عن شعور الكاتب بالضيق وعدم الرضى، فتميز أماكن مختلفة على مستوى البناء السردى، فيكون توظيف هذه الأماكن ليس اعتباطياً وإنما بحسب الغاية المرجوّ من النصّ، وكذلك القيم التي يفرضها المكان على النصّ وتميز في ذلك ما يلي:

أ- الأماكن المفتوحة:

اهتمت مقدم في نصوصها بالمكان الذي تزوج بين نقيضين ومكانين مختلفين على مستوى الواقع والرمز ليكونا عالم شخصياتهما سواء في كتاباتها عن سيرتها أم في روايتها .

ليشكل كل من الصحراء والبحر فضاء انتمائي، تضع نصوصها داخل هذا الفضاء، حيث أن الصحراء فضاء هوياتي بالنسبة لمقدم، فهو مكان أسلافها من البدو، إذ يعتبر نجيب رضوان وآخرون " أن الصحراء مكان تشكل هوية الكاتبة ".²⁰⁴ إنها تتحدث في روايتها (رجالي) عن ارتباطها بالأماكن بعد التقائها ببلال ، وهو إحدى شخصيات الصحراء التي تسميها - المصور - بينما يتعين عليه الخضوع لعملية جراحية في المستشفى حيث تعمل في مونوبولي ليسألها "هل تشترقين إلى البرقة؟ البرقة، تلة طفولتي ومراهقتي. سألي هذا السؤال بنبرة الأسئلة الملحة أجل، أشتاق إليها كثيراً كانت مقر أحلامي. للمرة الأولى، أعتزف بهذا الحرمان"²⁰⁵ وكأنها تدرك هذا النقص فجأة، غير أنه رغم ارتباطها بالصحراء فقد فرت منها لتعيش، مما خلق لديها إحساساً بالقلق والسجن الداخلي، الذي كان وراء ما كانت تشعر به كل بطولات رواياتها، كما أن روايات مقدم تنطلق من الصحراء أو تعود إلى الصحراء.

²⁰³ غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 1984، ص 38

²⁰⁴ Anne Aubry: Malika Mokeddem ,ou la recherche d'un espace où devenir soi-même .synergies chili n°12-2016 .P16

²⁰⁵ مليكة مقدم: رجالي ، ص117

تحمل الصحراء في روايات مقدم أبعاد مختلفة بين أن تكون سجناً يقيد حريتها من جانب ومن الجانب الآخر فهو السجن الذي لا تستطيع الفرار منه لأنها تعود إليه في كل حين لتقدم الصحراء مجالين مختلفين يمثل أحدهما الألفة والسكينة والراحة لدى مليكة مقدم أما المجال الآخر فهو مجال مختلف تماماً عن سابقه فعلى اتساع الصحراء فهي سجن مقدم التي فرت منه لتعود إليه من خلال الكتابة، في كل مرة تكتب فيها، تحضر الصحراء لتثير القلق في المتلقي أين يجد نفسه محاطاً بكثبان مقدم المتحركة في كل حين، تتساءل في روايتها الممنوعة على لسان البنت الصغيرة التي تحاول فهم العالم من حولها فتقول دليلاً لفانسان " أتجده كبيراً، فضاء الصحراء؟

-نعم جداً كبير. إنه أحد أكبر الفضاءات بعد المحيطات.

حدقت بي بحيرة، ثم واصلت: في رسائلها تقول سامية بأنها تمشي طوال الوقت في الشوارع. ينبغي أن تمشي، لتجد الفضاء؟ مثل الرجل؟²⁰⁶ فتبحث مقدم عن الصحراء من خلال المشي، تمارس عاداتها كأحد البدو الرحل الذين هم في حاجة إلى انتماء مكاني فتكمل على لسان دليله "وردة تقول بأن سامية هناك، لا تملك فضاء خاصاً بها لأنها أجنبية أينما حلت. وردة تقول أيضاً بأن كثيراً من الناس هم على هذه الصفة. هل هذا صحيح؟²⁰⁷ أين تعبر هنا عن حالة الا انتماء التي يعيشها المغترب، وما يمثله الفضاء المكاني بالنسبة لمقدم غير أنّها تبحث دوماً عن خلاص من هذا السجن، فتكون المدرسة الفضاء الثاني للخلاص والذي ساهم في فتح فضاء آخر لها هو "عالم القراءة" أولاً وثم "عالم الكتابة" بعد ذلك حيث تتوقف عن الفرار من البيت بعد أن صارت القراءة ملجأً لها لتتحدث عن ذلك في كل نصوصها فتقول في روايتها رجالي على لسان الرجل الذي ألهمها مهنتها "ولا بأس أن ترفعي رأسك عن كتبك بين الحين والآخر، وتنظري إلى العالم من حولك إنه

²⁰⁶ مليكة مقدم: الممنوعة، ص 39

²⁰⁷ مليكة مقدم، الممنوعة، ص 39

موجود كذلك، وبمشقات جملة...²⁰⁸. وكأنما تتورط مقدم بالقراءة هروبا من العالم الذي تعيش فيه بحثا عن عالم آخر بديل، وهي حقيقة ما تقدمه القراءة من فرصة التواجد في أماكن مختلفة وكذا أزمنة مختلفة وهو ما كانت تبحث عنه مقدم بين الكتب، فهي تشبه الصحراء بالفضاء الفارغ فتقول: «الفضاء الفارغ، هو الخارج هو الصحراء هو الموت»²⁰⁹

يتواصل الأفق اللانهائي عند مقدم في فضاء آخر، يشبه الصحراء من حيث عدم استقراره؛ فهو المكان الذي لا يؤمن جانبه، لتجعل منه الميثولوجيا رمز للغدر فيقال "البحر غدار" غير أن البحر هو الآخر فضاء مفتوح أمام التأويلات فهو مصدر من مصادر الحياة، كما أنه يمثل نسبة تفوق اليابس لذلك تجعل مقدم من البحر مكاناً أكثر حميميةً وهدوءاً واستقراراً، بالرغم من أن البحر هو فضاء متحرك وغير ثابت مثل الصحراء، ليكون البحر عند مقدم فضاء للوحدة ومكان للالتقاء تختفي فيه الخلافات، و الألم فالبحر الأبيض المتوسط بالنسبة لها هو بديل إبداعي حقيقي للسجن أو الصحراء فهو فضاء للمصالحة أين تلجأ إليه كلما شعرت بحاجة إلى الهروب "كنت أتقدم في الماء حتى يغمر عنقي. ثم أمشي بموازاة الشاطئ. تلك كانت سباحتي، ذلك التقدم المستقيم بمحاذاته. أعشق أن أشق الماء، مشرعة الذراعين، أن أشعر بمقاومته على صدري، على أطرافي، بانغلاقه في عناق حول ظهري، حتى الإنهاك»²¹⁰ كما أنّ عبور البحر بالنسبة لها يمثل الأم التي قطعته، فتقول لزوجها أثناء رحلتها بالقرب في روايتها (رجالي) لقد فعلتها لقد عبرت البحر، لم يعلم أنني أفكر بالأم بدلا من البحر²¹¹ إذ أن نطق كلمة البحر وآلام في اللغة الفرنسية واحد "la mère الأم et la mer وهو البحر .

²⁰⁸ مليكة مقدم رجالي، ص 48

²⁰⁹ مليكة مقدم، المتمرده، ص 111

²¹⁰ المرجع السابق: ص 131

²¹¹ المرجع السابق: ص 133

كما تذهب إلى أبعد من ذلك ففي روايتها(نزيد) تجعل من البحر مكانا للاستشفاء الروحي حيث تستيقظ البطلة في قارب وهي فاقدة للذاكرة، غير أنها تعيد بناء تاريخها وهويتها من خلال أسئلتها حول أصلها، ليكون البحر فضاء استشفائيا غير أن البحر لم يكن ليشفي (نورا) فقط، بل له القدرة ليجمع شمل الشعوب المتضاربة في العالم، كأنشودة توحد كل المشردين البائسين. "ينشأ البحر تعويذته، إنها شهوانيتها لتعلقها بأكثر الشواطئ حميمية، تعويذتها عندما تخجل أعين المشاهدين، إنها شريكته عندما تتدحرج وتدير وتحضن، في نفس المعانقة اليونان وتركيا، إسرائيل وفلسطين ولبنان وفرنسا والجزائر..."²¹² لتجعل نصها مكانا يجمع، أماكن لم تجمعها الجغرافيا ولا التاريخ يوما. في محاولة إنسانية لتجاوز الصراعات والخلافات لتجعل من البحر المكان الذي يحو الخلافات ويوحد الشعوب.

تساءل في روايتها عن العلاقة ما بين سباحة الجنين في بطن والدته وعن التواجد داخل البحر فهي تعتبر الأول فاقد للحرية لا يملك قرار نفسه ومحاصر أما التواجد داخل البحر فهو التمتع الكلي بالحرية. "مسلمات المجالات الطبية تعود لتصدم في رأسي الكليشييات التي تقارن ما بين النوم في قارب وسعادة الجنين في سخره"²¹³ غير أن البحر يمثل قصة الصراع الإنساني مع الوجود، ليكون دوما البداية التي ينطلق منها وهو وجه الشبه بين البحر و السخذ. فأول مكان يحس الإنسان من خلاله بوجوده هو رحم الأم، فالعلاقة قوية ما بين الأم والجنين بسبب هذا التموضع، أين تبنى العلاقة الأولية بين الطفل ووالدته، ومن خلال هذه العلاقة تتحدد حياة الطفل بعد ذلك، ولذلك تشبه السخذ بالبحر، فالبحر هو انتمائها الثاني والذي عوضت به رحم الأم ولذلك تنبعث في روايتها نزيد من البحر. لتذهب إلى فضاء آخر أكثر اتساعا من سابقه وهو الفضاء عبر الحلم

²¹²Malika Mokeddem: N'zid. Le Seuil.paris.2001.p36

²¹³ مليكة مقدم، المتمردة المرجع السابق، ص 91

فتقول دليّة «وردة تقول بأن الحلم هو أيضا فضاء. -آه هذا نعم بل إنه أكبر الفضاءات.»²¹⁴ فهو فضاء مفتوح ليس له حدود، فهو الفضاء المطلق.

ب- الأماكن المغلقة :

الأماكن المغلقة هي الأماكن المحدد في إطار مغلق، وتعبّر هذه الأماكن في الرواية عن حالة الضيق الذي يحس به الكاتب تجاه وضع ما، تستخدم مقدم بعض الأماكن التي تعتمدها أيضا في أغلب نصوصها

- غرفة النوم: إذ بالرغم حميمية غرفة النوم إلا أن (مقدم) لا تذكرها إلا بذكر حالة الأرق الذي تعيشه سواء كانت هذه الغرفة في الجزائر أم في فرنسا

- المستشفى: فهو لم يخرج عن إطاره العام كمكان لعلاج المرضى أين تزاوّل فيه مقدم وظائف عدة ففي طفولتها في كتاب "رجالي" تتحدث عن مساعدتها للرجل الذي ألهمها مهنتها فكانت تترجم للمرضى ما يقوله الطبيب وتكتب الوصفات للمرضى، فكانت بمثابة واسطة بين الطبيب ومرضاه بسبب استخدام الطبيب الفرنسي اللغة الفرنسية أما في روايتها "أدين بكل شيء للنسيان" كانت مختصة في أمراض القلب ليكون المستشفى المكان الذي تنطلق من الكاتبة في روايتها لتعود إليها ذكريات بسبب موت عروسة تشابه فستانها مع قماطة ابن خالتها الذي قتل في المهدي، ليكون المستشفى مكان لضيق والألم، فهو أيضا المكان الذي وضعت فيه جثة صديقها الطبيب ياسين في روايتها "المنوعة" ليحمل هذا المكان جزءا سيئا مخفيا من ذاكرة الكاتبة، ومرة أخرى كان المستشفى ككل الأماكن عند مقدم حاملا للمعنيين الإيجابي والسلبي، غير أن موقفها من هذا المكان ظل ثابتا فهو رغم أنه مصدر من مصادر الضيق والعسر والألم والموت فهو مصدر للفرح والانبعاث من جديد الانبعاث من خلال الألم، وهو ما تطرحه في كل رواياتها.

²¹⁴ مليكة مقدم المنوعة، ص 40

- البيت: يعد البيت أحد أهم الأماكن التي تبعث على الراحة عند الأشخاص، فهو عند غاستون باشلار: "يحيي أحلام اليقظة.. ويتيح للإنسان أن يحلم بهدوء... إن الأماكن التي مارسنا فيها أحلام اليقظة تعيد تكوين نفسها في حلم يقظة جديد"²¹⁵، لتعبر الكاتبة من خلاله عن انتمائها يوضح حالة الاستقرار والسكينة والألفة التي تعيشها الكاتبة، ويوضح شعورها بالانتماء، فتكتب مقدم عن بيتها في الجزائر وكذا بيتها في فرنسا، فتصف الأول مع حالة الحرمان على المستوى المادي بسبب الفقر، وكذا على مستوى فقر المشاعر فهي لم تشعر بالألفة في بيتها وكانت سعيدة جدا بخروجها منه أثناء الإقامة في الثانوية وكذا في الجامعة لتفر مرة أخرى إلى فرنسا.

غير أن المكان يأخذ بعدا آخر في روايتها (الممنوعة) وكذلك (ليلة الساحلية) تعود إلى بيت طفولتها لتتغير دلالة المكان فيكتسي جانبا إيجابيا، فمثلا في الرواية الأولى (الممنوعة) تعود إلى بيتها في القصر تواجه ماضيها، وبعد تلك المواجهة تعود مرة أخرى إلى رغبتها في الحياة، وتواجه كل من تسبب في هروبها قبل أن تقرر العودة مرة أخرى إلى فرنسا، أما في رواية (ليلة الساحلية) فمقدم تعود إلى القصر لكنها تختار بيت آخر لتعيش فيه بسبب ما يحمله ذلك البيت من روح الحب، أين شفق صاحب البيت نفسه من أجل زوجته، فتحاول إعطاء الحياة لذلك البيت من خلال إعادة ترميم البيت، وتزينه بالعديد من الرسوم والنقوش وتزرع حديقة تبعث على الحياة هناك، إلى أن تموت هنالك.

غير أن بيتها في فرنسا في روايتها (المتردة) و(رجالي) رغم جماله وعنايتها بنائه فقد كانت وراء اختيار مكانه وكل تفاصيل إنشائه غير أنه هو الآخر لم تشعر داخله بالألفة والانتماء، ولطالما كانت تلجأ إلى فضاء آخر وهو القارب، فكان القارب مكانا آخر للحلم.

²¹⁵ غاستون باشلار : مرجع سابق، ص 37.

- غرفة الفندق: تعبر غرفة الفندق على عدم الاستقرار، وعدم الانتماء فهي تحمل عديد المسافرين لتحمل أعبائهم، ثم يديرون ظهورهم لها فتغيب عن ذاكرتهم تقول في ذلك مقدم في روايتها المتنوعة على لسان فانسان « أحب أن أتواجد في غرف الفنادق المجردة، غرف بلا ذكريات، ممنوحة للحريات المتعددة، قاطعة أية صلة مع العادات. أحب أن أستيقظ في ظل غياب الأشياء اليومية، إن تقديس الأشياء كان دائما يبدو لي من بقايا الصنمية، من بقايا الطفولة أيتها الأشياء الجامدة، لم تملكي روحا أبدا»²¹⁶ وكأنما تريد بذلك أن تنسّل من ارتباطاتها بالمكان لذلك تلجأ إلى غرف الفنادق أين تختفي العلاقة المكانية فتثبت بذلك علاقتها ببقية الأماكن وارتباطهم بطفولتها.

- المدرسة: تعد فضاء تحريري استشفائي لما تقدمه المدرسة من تنوير للعقول تستعملها مقدم بوجهين المدرسة التي تعلمت فيها مقدم (قبل الاستقلال وبعده) والتي تعد بالنسبة لها فضاء تحريري أين كانت تهرب إليه فتنسى من خلاله أشكال العنصرية التي تعيشها في بيتها أين تعرفت على ذاتها وكونت شخصيتها، أما الوجه الآخر للفضاء فهي مدرسة الإسلاميين كما سمتها على لسان دليلية إحدى بطلات روايتها المتنوعة لتصف المدرسة بمدرسة المنوعات، والتي اعتبرتها "تقول وردة أن بأن المدرسة لم تعد فضاء للمعرفة، تقول بأنها أصبحت ورشة للبلهاء والإسلاميين الصغار. إسلاميون بلهاء. مثل إخوتي"²¹⁷. فقد جعلت من المدرسة مكانا للخوف "تطرد كل مخاوف التهديدات التي أعود بها من المدرسة".²¹⁸ لتختلف المدرسة في منظور مقدم بين المدرسة التي كانت ملجأ لها في مرحلة طفولتها والتي كانت سبب من أسباب تفتح مقدم على القراءة والكتابة، التان قاومت بهما حر الصيف في القنادسة، وجهل المجتمع في مرحلة الاستعمار،

²¹⁶ مليكة مقدم: المتنوعة، ص30

²¹⁷ مليكة مقدم: المتنوعة، ص93

²¹⁸ مليكة مقدم: المتنوعة، ص94

ومدرسة العشرية السوداء التي بنظرها أصبحت ورشة لصنع البلهاء، وبرغم من الظروف التي عاشتها البلاد إلا أن المدرسة الجزائرية لم تتخلى يوما عن وظيفتها.

1-2 أنسنة المكان:

تحاول مقدم أن تضيف صفة الإنسانية على الأماكن الحميمة بالنسبة لها لتجعل منها كائن حي تشعر وتحس وتتألم وذلك لشدة تعلقها بهذه الأماكن دون غيرها، وتعطيها قدرة على الحب والكره كأكثر صفات البشر إنسانية، تجعل للمكان جسدا ومشاعرا، أماكن تتعاقب بفضل البحر الأبيض المتوسط، هي نفسها الأماكن التي جعلت لها جسدا، ليدعم تواجدها في الزمان والمكان، فقد جعلت مدينة وهران " وهران الآهلة بالسكان، هذه المدينة الساخرة والضاحكة وغير المحتشمة"²¹⁹ السخرية والضحك صفات بشرية تلصقها مقدم بهذه المدينة، ولم تتوقف أنسنة المكان على الفضاءات الواسعة فقد جعلت مقدم من سريرها الواقف كما سمته بشريا هو الآخر، بالوقوف صفة إنسانية ولم تتوقف عند هذه الحد بل جعلته يتذكر ليشاركها لحظات حزنها وسعادتها "وحيدة هذا المساء في رائحتنا في نسيج القماش في ذاكرة السرير في سبعة عشر من جسدنا."²²⁰ ولأن روايات مقدم لا تعج بالشخصيات فهي تحاول أن تستعين بالأماكن لتدعيم شخصياتها الرئيسة من خلال بث الحياة في بعض الأماكن دون غيرها .

2) تجليات الفضاء الزماني:

يعد الزمن إحدى أهم مفاتيح الولوج إلى عالم الرواية فهو ضروري وجب ضبطه والتعرف على علاقاته التي تسمح بفهم حركية الأحداث، وليس الزمن في الرواية يقابل الزمن في الحقيقة الذي ينطلق من الماضي في اتجاه الحاضر، في شكل خطي.

²¹⁹ مليكة مقدم، المتبردة، ص 102

²²⁰ مليكة مقدم، المتبردة، ص 9

ماضي

حاضر

مستقبل



إذ يتبع الزمن في سيره منطلقا آخر متمثلا في الآن أي اللحظة عودة إلى الماضي حيننا وإلى المستقبل حيننا آخر.

الزمن لغة : "اسم لقليل من الوقت أو كثيره...الزمان زمان الرطب والفاكهة وزمان الحر والبرد...ويكون الزمن شهرين إلى ستة أشهر والزمن يقع على الفصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما أشبه وأزمن الشيء: طال عليه الزمان وأزمن بالمكان: أقام به زمانا"²²¹ كما يقال "أزمن بالمكان أقام به زمانا، والشيء طال عليه الزمن، يقال مرض مزمن وعلة مزمنة، والزمان الوقت قليله وكثيره ويقال السنة أربعة أزمنة أقسام وفصول."²²² ولأهمية الزمن وفاعليته السردية وتقاطعها مع عديد المجالات فقد أعطي عناية خاصة من طرف الفلاسفة والتقاد والباحثين .

الزمن اصطلاحا يعرفه عبد الوهاب الرقيق: "فالزمن مفهوم مجرد، يفعل في الطبيعة ويظل مستقلا عنها يؤثر في تجارب الإنسان الذاتية، وخبراته الموضوعية، دون أدنى اكتراث بما هو إلى ذلك سيلان لانتهائي، هارب يستحيل القبض عليه أو تمثله تمثلا محسوسا".²²³

وقد عمل بول ريكور على البحث عن علاقة الزمن بالسرد في كتابه "الزمان والسرد" الذي بحث فيه من خلال العودة إلى مفهوم الزمن عند أوغسطين Augustin في كيفية قياس الزمن والذي حاول هذا الأخير أن ينظر إلى الزمن من خلال الأبدية، والذي اعتبر أن الزمن يبدأ من "الآن" أي من الحاضر والذي جعل منه حاضرا ثلاثيا ما

²²¹ ابن منظور، لسان العرب مادة (ز.م.ن) تنسيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي،

²²² المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، القاهرة ، ط2،(د ت)، ج1، ص401

²²³ عبد الوهاب الرقيق: في السرد، دار محمد علي الحامي، تونس ط1998، ص1، ص27.

سماه بحاضر الماضي، حاضر الحاضر، وحاضر المستقبل مقارنة بتنظير أرسطو للزمان في كتابه "فن الشعر" والذي اعتبر الزمان تتابعا للأفعال السردية وتنظيما لها.²²⁴

يذهب بول ريكور إلى ربط طبيعة الزمان بالتجربة الإنسانية "إن الزمن يصير زمنا إنسانيا ما دام ينتظم وفق انتظام نمط السرد، وأن السرد بدوره، يكون ذا معنى مادام يصور ملامح التجربة الزمانية"²²⁵ يجعل من العلاقة السردية التي تتفاعل مع الزمن ما يعطي قيمة لحياة الإنسان، ليجعل من الحكيم وسيط، بين الوجود والزمن لتتكون ما يسمى الهوية السردية عند بول ريكور²²⁶ وهو ما حاول أن يبرهن عليه من خلال (اعترافات) أوغستين و(فن الشعر) أرسطو.

إذ يرى أرسطو " أن الزمن هو مقدار الحركة وهو ما يسمى بالنقلة إذ أن الزمان مرتبط بالمكان وهذه الحركة التي يتم بها الانتقال من مكان لآخر يتم بها عبر تحقيق الزمان وتغييره فالزمان يكون هو مقدار الحركة وهذه الحركة إنما تتواجد بتواجد المكان الذي يوجد بوجود الأجسام وأنه اعتباري نسبي وأن البدن البشري هو الذي جعل للزمان محدودية ووعاء بها يتلاءم مع مادية الجسم فإن الزمن ذلك الجزء الجوهري من العالم لا يمكن للبشر أن يشعروا بجوهريته إلا من خلال التجرد من المادة".²²⁷

ترتبط رؤية أرسطو لزمن من نظريته للمحاكاة، ليربط بين المكان والزمان والذي تنتج حركية الأحداث من خلال الانتقال من مكان إلى آخر باستعمال الزمن وهذا الانتقال لا يتم إلى من خلال الجسم الذي يتواجد في المكان هذه العلاقة هي ما يعطي لزمن حركيته التي تكتسب جوهرها بتجريدتها من المادة فتصير حسية .

²²⁴ ينظر: بول ريكور، الزمان والسرد(الحبكة والسرد والتاريخ)،ترجمة سعيد الغانمي وفلاح رحيم، ج1، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2006

²²⁵ المرجع السابق، ص 29

²²⁶ ينظر: المرجع السابق، الفصل التمهيدي .ص14

²²⁷ حمادة حسين صالح: دراسات في الفلسفة اليونانية، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 1426، ج1، 2005م، ج2، ص264 .

ليذهب أوغستين إلى البحث عن ماهية الزمن " ما الزمن إذن وإن تحليل الزمان يتركز على التأمل في العلاقات بين الأبدية والزمن مستوحيا ذلك من سفر التكوين "في البدء خلق الله... "حيث أن عزل تحليل الزمن عن التأمل يعني ممارسة العنف على النص"²²⁸ حيث عمل على جمع بين الزمن وارتباطاته فالماضي لا يعود إليه إلا من خلال الذاكرة أما المستقبل فإننا نبحث عنه من خلال التوقع أما الحاضر فيحتاج الانتباه إلى الماضي وكذا الانتباه إلى المستقبل الذي يكون الحاضر مهدا له فيترتب الذهن هذه العلاقات وينظمها .

ومما سبق فإن اعتماد الزمن كما ذهب إليه جيرار جينيت: "فإن للمفارقة الزمنية، أسلوبان الأول يسير باتجاه خط الزمن أي حالة سبق الأحداث والثاني يسير في الاتجاه المعاكس أي في حالة الرجوع إلى الوراء، وذلك قياسا بالنقطة التي بلغها السرد، و يصطلح على هذين الأسلوبين بالاسترجاع (Analépeze)) والاستباق (Prolepse"²²⁹)

● **الاسترجاع:** حيث يرتبط المستقبل بترسبات الماضي التي تظل تبرز في كل حين لتعلن عن وجودها، "ليكسر الراوي زمن قصته أو يكسر حاضر هذه القصص، ليفتحه على زمن مضى له وقد يكرر الراوي هذه اللعبة، فيكسر زمن قصته أكثر من مرة ويتجه إلى ماضي قريب حيناً وعلى ماض بعيد آخر."²³⁰ وهو ما تكتبه مقدم في روايتها بين الماضي والحاضر، حيث تسير الأحداث من الحاضر عودة إلى الماضي، فالزمن في روايتها يبدأ من الآن لتعود به إلى الماضي ففي رواية المتمردة تبدأ الزمن من الحاضر فتقول: "لقد غادر هذا الصباح، أنا وحيدة في السرير، وحيدة هذا المساء في رائيحتنا"²³¹. لتعود في كل حين إلى الماضي القريب ثم البعيد لتعيد مرة أخرى إلى الحاضر فهي تبحث عن إجابات لتساؤلات التي ظلت عالقة في الزمن الماضي.

²²⁸ بول ريكور: الزمان والوجود والسرد، ص24

²²⁹ عمر عاشور: البنية السردية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (دط) 2006م، ص106.

²³⁰ معنى العيد: تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنوي، دار الفارابي، لبنان، ط3، 2010م، ص113

²³¹ مليكة مقدم، المتمردة، ص9

وقد يكون الاسترجاع من خلال الانطلاق من الماضي مباشرة ففي رواية (أدين بكل شيء للنسيان) هي الأخرى رغم ديتها لنسيان إلى أنّها تنطلق من الماضي وتعود إلا المستقبل "يد الأم التي تستولي على وسادة بيضاء، تغطي بها وجه الرضيع الممدد على الأرض"²³² بالرغم من أنّها تروي تفاصيل حدثت في الماضي غير أنّها تعتمد أفعال مضارعة كنوع من التحايل على القارئ الذي توهمه بصدق هذه الأفعال، التي ظهرت في غير زمنها. ثم تعود لمقارنة أحداث وقت في زمن الكتابة "الحاضر"، بوقائع من طفولتها فتزوج في الرواية بين الزمن الماضي و الحاضر

أما رواية "رجالي" فتستحضر الماضي في حديثها عن الرجال الذين مروا بحياتها، من خلال استرجاع أحداثا وأقوالا عاشتها بدءًا بوالدها، حيث تتأثر شخصية مقدم بتلك الأحداث لتظل راسخة في حياتها مؤثرة على كامل مستقبلها .

ويمكن تحديد تقنية الاسترجاع في كتابات مقدم بأسلوبين مختلفين:

1- تقنية الاسترجاع بالعودة إلى الماضي من خلال الذاكرة، فتنتقل من الحاضر عودة إلى الماضي في كل من (الممنوعة) و(المتمردة) و(رجالي)،

2- تقنية الاسترجاع من خلال النسيان، فلا تمتلك البطلة غير حاضرها أين تفقد الشخصية الرئيسية ذاكرتها بسبب صدمة نفسية قوية غير أنّها برغم من ذلك تستعيد ذاكرتها في كل من القرن الجراد ونزید وكذلك أدين بكل شيء للنسيان، فتسرد تعدد الهويات لديها، وتعتبره ميزة وخاصة لا حالة مرضية .

ليجيب الاسترجاع عن تساؤلات القارئ، ويوضح تصرفات الشخصيات وحالاتها النفسية. وقد تتجاوز مرحلة العودة إلى الماضي إلى جعل الشخصية الرئيسية تفقد ذاكرتها فلا تتعرف على هويتها، إلا أنّها تشفى من خلال

²³²مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، ص 7

البحر وتسترجع أحداث حياتها وهويتها المفقودة شيء فشيء ، كنوع من الهديان لتتلاعب بالزمن فتحاول إبراز أهميته، وجعله جزء من ذات الإنسان في روايتها (نزيد).

● **الاستباق:** يكون من خلال توقع أشياء قد تحدث أم لا فالاستبياق يشبه تخمين الأحداث

وهو "القفز إلى الأمام أو الإخبار القبلي وهو كل مقطع حكائي يروي أحداثا سابقة عن أوانها أو يمكن توقع حدوثها، فهو القفز على فترة ما هي زمن تجاوز النقطة التي وصلها الخطاب لاستشراف مستقبل الأحداث والتطلع إلى ما سيحدث من مستجدات في الرواية." ²³³

لا تعتمد مقدم مثل هذه التقنية إلا في بضعة أسطر، في محاولة منها أن تبدو الأحداث أكثر واقعية، أين لا تبدي اهتماما باستشراف المستقبل بقدر اهتمامها بالتقليب في الماضي، فيما عدا بعض الأسطر التي جاءت تلقائية وليست وظيفية فتقول في الممنوعة عند دخولها إلى عين نخلة «لدي إحساس فظيع بأن لقائي بهذه المنطقة سيتحول إلى مواجهة عنيفة وأن ألف حنين يكون وقعها أخف بكثير من الواقع الجزائري» ²³⁴ أين تتشابه الأحداث وتقع مواجهات عنيفة بين مقدم وبعض الشخصيات من عين نخلة كرئيس البلدية وسائق التاكسي وغيرهم.

● **الانقطاع الزمني:** يكون " في كل مرة نترك مجموعة من القصص لنتقل إلى مجموعة أخرى، ينقطع الخيط،

...ذلك لأنه لا يستحيل علينا أن نروي جميع الحوادث في تسلسل خطي فحسب، بل أن نقدم أيضا

تتابع الوقائع في تسلسل زمني معين. ²³⁵ تجمع مقدم أحداث عديدة في مكان واحد لتحدث في كل مرة

عن حوادث مختلفة في مكان واحد ففي روايتها الممنوعة تتحدث عن دخولها إلى البيت الذي كان يقيم

ياسين به أين تجتمع لديها أحاسيس مختلفة لما تحمله لذلك المكان من ذكريات تقودها مرة إلى ياسين ومرة

²³³ محمد عزام: شعرية الخطاب الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د ط)، 2006، ص107

²³⁴ مليكة مقدم، الممنوعة، ص16

²³⁵ ميشال بيتور: الرواية الجديدة، ترجمة عبد الصبور، ص102

أخرى إلى شال ذلك الطبيب الذي منحها فرصة التقرب من المرضى بمساعدته بالمستشفى "... من بعيد، يأتيني رجل آخر، بول شال. مباشرة، بدأت أذناي تمتلئ بصدى أصوات لاكالاص، الأغاني الحزينة لشوبين وموزار. " ²³⁶

● تقليص الزمن: والذي يتم من خلاله الجمع بين الماضي والحاضر في بناء اللحظة الراهنة، "انفتح الباب، تنحى صالح جانبا ليسمح لي بالدخول استقبلتنا رائحة دهان هذا البيت... تحت تأثيره، اضطربت ذاكرتي بين الماضي والحاضر، خضع الزمن لتقلص، لتكثيف، ياسين هنا ماضيا حاضرا. " ²³⁷

ليعمل الزمن السردى على وتيرة السرعة والبطء من خلال مظهرين أساسيين:

-المظهر الأول: يعمل على تسريع حركة السرد ليغطي مقطع صغير أحداث زمنية كثيرة وقعت في فترة زمنية طويلة مستخدما تقنيات التلخيص والقص، " لم أعد إلى الجزائر منذ سنة 1977. غياب دام ثلاث عشرة سنة الأسباب لا يمكن حصرها: الأصولية وقطيعتي مع عائلتي... ولكن صدمة أكتوبر 1988 أعطت الحياة للبلد وحركت كثيرا من التطلعات ²³⁸"

- المظهر الثاني: يعكس المظهر الأول حيث تسير الأحداث ببطء ليغطي مقطع طويل أحداث متقاربة زمنيا أو تمثل زمنا واحدا، تستخدم تقنيات المشهد والمونولوج. فتحدث في روايتها المتمردة عن فترتين مرحلة الكهولة بعد أن تركها زوجها ومرحلة الطفولة في الجزائر "إلى متى تعود ذكرياتي الأولى عن أسرة الطفولة؟ من ثلاث سنوات ونصف إلى أربع سنوات، نعم ليس أكثر" ²³⁹ لتحاول أن تخوض في تفاصيل مرحلة الطفولة فتروي العديد من الأحداث المتقاربة زمنيا خاصة في رواية رجالى «النهوض في الساعة السادسة صباحا.

²³⁶ مليكة مقدم: المنوعة، ص43

²³⁷ مليكة مقدم، المنوعة، ص42

²³⁸ مليكة مقدم: المتمردة، ص104

²³⁹ مليكة مقدم، المتمردة، ص13

الانطلاق بالحافلة في السابعة. يفتح الحماس عينيّ على كامل اتساعهما قبل رنين المنبه، يقذفني مباشرة من المصطبة التي تصلح فراشا لي. أحسّي القهوة وقوفا. في سكينة الصباح...»²⁴⁰

هذان المظهران قد يتم الجمع بينهما في رواية واحد ذلك لأهمية سرد أحداث معينة مقارنة بأخرى.

إن التركيز على أماكن محددة وزمن محدد أيضا في أغلب روايات مليكة مقدم بين الجزائر وفرنسا، استحضار الطفولة حين، والعودة إلى مرحلة الكهولة حيناً أخرى يعبر عن حالة الشتات التي تعيشها مقدم وهي مجزأة بين الماضي والحاضر وكذا بين بلدين مختلفين «لأنك تشعرين بنفسك مفككة؟ نعم، أنا متعددة مشتتة. - ولكن لماذا هذا الإحساس. ربما بسبب ثابت اللا مقبول وشيء مكسر بداخلي. يفقد لك انسجامك. تتحول إلى كائنات عديدة غير محددة المعالم.»²⁴¹ شعورها بالتعدد جعلها تنقسم في رواياتها بين أماكن عدة و في أزمنة مختلفة.

²⁴⁰ مليكة مقدم، رجالي، ص30

²⁴¹ مليكة مقدم، المتمردة، ص108

رابعاً: تعدد الهويات في كتابات مليكة مقدم:

الهوية هي تطابق الذات مع نفسها، فأهم ميزة تتميز بها هي الوحدة، غير أن ما يميز النصوص التي يبحث أصحابها عن انتماء خارج عالم الكتابة، هو عدم ثبات هذه الوحدة في ما بينها، فهي ضحية تمزق جغرافي وانتمائي، بين بلد يسكنونه وآخر يسكنهم، ما يجعل هذه الهوية تعيش الصراع، وإن كان يحق لنا إطلاق مصطلح هوية حيث لا تتوفر بها أهم خاصية لها وهي "الوحدة"، فالأصح قول: "التعددية الهوياتية" أو التشظي الهوياتي ليعبر عن ذلك الانقسام في الهوية، الذي تحمله هذه الذوات، بفعل الاستعمار، الذي سعى جاهداً كي يحقق ذلك، ويبدو ذلك جلياً في كتابات مليكة مقدم، حيث تجمع نصوصها ذوات متعددة ضمن شخصية واحدة، هذه الذوات تتصارع داخل فضاءات مختلفة، ومتناقضة (فرنسا و الجزائر، الصحراء والبحر) ليكون الفضاء السردى متنوعاً ومختلفاً، فتكتب مليكة مقدم نصوصها من خلال مواجهة ذاكرتها وتعود إلى الطفولة في كل حين، أين تنبش عميقاً في تفاصيل حياتها في كل روايتها .

وما يهمنا هنا إظهار، تعدد الهوية لدى شخصياتها الرئيسية، من خلال إظهار الشخّ الهوياتي الذي تعاني منه بطالات مليكة مقدم.

1- التعدد الهوياتي في الرواية (قرن الجراد) (Lessièclesdessauterelle)

الرواية الثانية إصداراً، والأولى التي اتخذت طابع الرواية التاريخية، لتتحدث عن مرحلة مهمة في تاريخ الجزائر حيث لا تركز من خلالها، على سرد الذات بطريقة مباشرة وإنما تعرض الآمال الموضوعية، في الثورات بحثاً عن استقلال الأمة، وتحرير المجتمع، فالقصة مجزأة إلى أحد عشر جزءاً، لتعيد تجزئة هذه الأجزاء مرة أخرى لترمز لكل جزء برقم بدل عناوين، إن هذه القصص المجزأة جدا تحتاج إلى تفكيك وإعادة بناء، لإعادة ربط الأحداث فهي شبيهة بالفسيفساء ، حيث تروي هذه القصة هجوم الجراد من الشمال أي من البحر، وتعتبره أخطر من الجراد

الذي يأتي من الصحراء وهي ترمز في ذلك إلى الجراد الأخضر الذي أكل الأخضر واليابس منذ دخوله من شاطئي سيدي فرج، والذي دام قرن ونصف القرن، فالرواية تقودنا إلى العشرينيات من القرن الماضي 1832م، أما أحداث القصة فتبدأ مع قتل "نجمة" أم ياسمين من طرف مجهولين أمام أعين ابنتها ياسمين، لتعود في الجزء الثاني مع وفاة والد بطل الرواية محمود التجاني عام 1901، وهو يقاتل ضدّ الغزاة، بطل الرواية مختلف في هذه المرة فهو "رجل" "وابنته" أين يذهب "محمود" الى مستوطنة للمستعمرين بحثا عن عظام جدته، لتعبر الكاتبة عن ذلك الانتزاع الثقافي الذي عانى منه الشعب الجزائري، كمحاولة طمس الهوية الثقافية، أين تم تغريب الجزائريين في موطنهم حتى الرفاة لم يكن لها حظ أن تدفن في مقبرة، ليكون على عاتق محمود استعادتها بجمجمة وعظام جدته، التي كانت في أحد حقول المعمرين، ليستلم محمود رسالة والده الذي يخبره فيها، بضرورة أن يعمل على ما لم يستطع الوالد فعله، تقول: «أغلقت كلمات الأب محمود بنيرانهم الصامتة كلمات بدون صوت، ولكن أثرها محفور فيه إلى الأبد، الجراد! أكثر الجراد ضررا في تاريخنا لقد جاء دائما إلينا من البحر وليس من الصحراء»²⁴²

أين يحمل الأب ابنه مسؤولية البحث عن عظام الجدة ودفنها، يفشل محمود في إيجاد عظام جدته بسبب تغير في المكان لتحيل الدلالة هنا على المسؤولية التي ألقيت على عاتق ذلك الجيل، ليحرر الوطن، ويستعيد كرامته غير أنه يفشل في مهمته بسبب الظروف، تغير مكان شجرة الزيتون التي تدل بدورها على أصول الشعب الجزائري، رمزية أخرى عن تغيير الأوضاع.

في جزء آخر يفشل في العثور على قتلة زوجته التي ذبحت من طرف شخصين مجهولين أين يُطَارِدُ أولئك القتلة ليجد نفسه أنه هو المَطَارِدُ، إلى أنّها تتعارض إلى حد ما في جزء آخر مع قصة "نجمة" زوجته التي تهرب رافضة الاستسلام للأعراف،(إن هذا التقابل والاختلاف، كان المقصود منه توضيح اختلاف الرؤى في الجزائر ذلك التضاد بين الذكر والأنثى، الشيء ونقيضه في نفس الوقت) غير أن أغلب الحوار مبني ككل رواياتها على

²⁴²Malika mokeddem Les siécle des sauterelles ,p27

ضمير المتكلم، الذي يجعلك تستمع إلى صوت الشخصية مباشرة، لكنها تحاول إخفاء هويتها الحقيقية باستخدام تكاثر الأصوات في الوقت نفسه وبين التكرار والصمت، فيتم تزوير الكلمات الحقيقية لهذه الشخصيات، هذه الرواية تمحو كل الفواصل والحواجز بين الأنواع الأدبية، ليغدو نصا متعددًا على مستوى الشكل، وكذلك على مستوى المعنى، "هذا العبور، الذي لا يشكل خطورة يشهد بأكثر من طريقة على أن مقدم ليست راضية على تقديم قصص مسلية، بل على العكس من ذلك فهي تسلط الضوء على إحدى الوظائف الأساسية للأدب المعاصر الذي يقوم على الذهاب والإياب، العمل بين القديم والحديث."²⁴³

يترك الوالد ياسمينة عند الخالة كريمة، ويرحل هو الآخر ليوصل تعليمه في تونس ومصر أين يتمكن من تعلم كتابة الرواية والقصائد، راعبا في فتح مدرسة لإحباط ما تقدمه الزوايا، التي تعمل لحساب أجنيدات أجنبية كما يشجع بعد عودته ابنته على تعلم الكتابة كبديل عن الصمت الذي تعيشه البنت منذ وفاة أمها، فتريد مقدم من ذلك الإشارة إلى فضل الثقافة العربية في مقاومة سنين من الممارسات الاستعمارية الفرنسية، من أجل علاج صمت ما بعد الصدمة التي تعاني منها الطفلة،

غير أن الأب يشجعها من خلال حديثه عن "إيزابيل إبرهارة" فتطلب إليه أخذها إلى قبر تلك الرومية الرحالة، وبذلك يظهر تعدد الهوياتي عند مقدم التي تجمع ما بين الشرق والغرب في ثقافتها وتستند في نصها هذا على بعض أشعار عمر الخيام لتؤكد على هذا الجانب من ثقافتها، الذي لا شك في وجوده، أما "إيزابيل إبرهارة" هي الوجه الثاني لتلك الثقافة المتعددة والمختلفة. كما أن مقدم في هذه الرواية لا تصرح بالتعدد الهوياتي إلى من خلال ما تبطن فتتحدث عن هذه الشخصية الرومية التي عشقت الصحراء وتخفت من هويتها كامرأة بارتدائها ملابس رجالية، تتحرك في الصحراء بكل حرية، وبالرغم من الوجود الفعلي لهذه الشخصية في أرض الواقع التي ليست من نسج خيال (مقدم)، غير أنها تريد الوصول؟ إلى فكرة عبء الهوية الأنثوية حيث تسأل

²⁴³ Souad labidi :Les siècle des sauterelles de Malika mokeddem: une langue d'écriture a la croisée du pérégrinisme et du xénisme, Al' adab wa l lughat, lettres et langues, v5.n5 p179

والدها عن موقفه لو تشبهت أمها بتلك الرومية، "بابا، هل ستبقى أمي على قيد الحياة لو كانت، مثل إيزابيل إيرهارت، متنكرة في زي رجل"²⁴⁴ لتعبر هنا عن مقاومة المرأة العربية البدوية للموت، من خلال التنكر في زي رجل فإيزابيل جابت الصحراء وهي متنكرة، لتشير إلى ضرورة التخلص من عبء الأنوثة حتى لو غيرت ملابسها، فهي تقرر أن تسير على خطى هذه الرومية، غير أن الظلم لا يحيط بالنساء فقط، فقد تم قتل والدها من قبل الدرك، أين تكرس ياسمين حياتها للكتابة، كفعل للمقاومة.

2- التعددية الهوياتية في رواية (المنوعة): (l'interdite)

تخرق هذه الرواية الممنوعات لتخوض في المحظورات، حيث تقرر سلطنة العودة إلى الصحراء "عين نخلة" لمواجهة ماضيها، لتصادف هذه العودة موت صديقها "ياسين" الطبيب القبائلي الذي اختار الصحراء كبديل عن جفاء سلطنة وهجرها له، لتكون الصحراء فضاء تعويضي له، غير أن سلطنة العالقة في الماضي بين الكثنان، هي نفسها سلطنة المتحررة من قيود المجتمع و المتصالحة مع ذاتها، هذه التناقضات التي تحملها الذات، جعلت منها ذوات مختلفة لتعبر مقدم عن ذلك في العديد من المرات أين تحيل إلى ذلك الصراع الداخلي لبطلتها سلطنة تقول: "لم أكن أتصور أبداً بأنني أستطيع العودة يوماً إلى هذه المنطقة. ومع ذلك لم أبتعد عنها بشكل نهائي أبداً. كل ما فعلته هو أنني ألحقت الصحراء والحزن الشديد إلى جسمي المهجر، وبقيت مجزأة بينهما"²⁴⁵ ارتباط مقدم بالمكان كان سبب لكتابة، تصفية حسابات، كان يجب أن تعالج ذلك القطع من خلال الوصل بالكتابة، لذلك تكتب الصحراء في كل رواياتها حتى البحرية منها.

فهي تعترف بمويتها المهجينة وبتعدد الذوات لديها وهذا ما نجده في شخصية سلطنة مجاهد في قولها «وتجد سلطاناتي المتناقضات نفسهن منفصلات، متصدعات. عادت صاحبة الإرادة إلى هناك، في مكان ورشاتها.

²⁴⁴ Malika mokeddem, Les siècle des sauterelles, idid, p256

²⁴⁵ مليكة مقدم المنوعة، ص7

وتتكاسل تحت الشمس، كتاب غير نافع بين يديها، برغبة واهنة منطوية. وبقية الأخرى هنا، تراقب مثل القطة ألما صغيراً أو فرخاً تضعه تحت أسنانها. ولكن لا أحد يغامر بالاقتراب منمخالها المسننة²⁴⁶» تشبه مليكة مقدم نفسها بالقطة وذلك باعتبار تعدد الأرواح عند القطة "حيث يقال تملك القطة سبع أرواح" فهي تقول سلطاناتي، ذلك لأن الصراع الذاتي تجاوز الثنائيات لديها للتواصل الحديث عن تشكيل ذواتها « أن الزمن الذي يمر يتلوى ويتدفق في مكان آخر يصلها عبر خط مستقيم فيغرق انتظارها في سبات. يتغذى مكونا الواحد من الآخر وهما مفصولان، يصبحان بلا حيوية وبلا طعم، وأنا التي تعيش بفضل اتصاليهما اللصيق، المضطرب والمتجاذب، أجد نفسي بهذا الانشقاق، تائهة في هدوء منفصل عن الكل، متجمدا مسقط رأسي، حجة هلاكي»²⁴⁷. وترجع أسباب تمزقها إلى الوطن الذي لم يكن قادرا على احتضانها.

3- التعدد الهوياتي في رواية (المتمردة): (La transe des insoumis)

تكتب مقدم هذا النص من خلال استخدام تقنيات مختلفة تقابل بين فضاءين مختلفين لتسرد حياتها المجزأة بين بلد تسكنه وآخر يسكنها، أين تنفتح الذاكرة على تمزق الذات، لتحاول أن تتجاوز رشقات الماضي في كل حين، تكتب مقدم روايتها "المتمردة" بين فضاء الهنا (فرنسا) وفضاء الهناك (الجزائر) كتأكيد على هذا الانقسام الذي تعيشه بين الهنا والهناك .

حيث يعد هذا النوع من الصراع اضطراب في الهوية، فهو ركام ما بعد الاستعمار ليذهب إلى ذلك فرانس

فانون²⁴⁸ في كتابه بشرة سوداء، أقنعة بيضاء أين يفصل في حديثه عن مخلفات الاستعمار «ركز على ظاهرة

تبدد الشخصية **ladépersonnalisation** التي تفضي إلى الفهم في أن كل سياق كولونيالي يخلق نوعاً من

²⁴⁶ مليكة مقدم، المنوعة، ص84

²⁴⁷ مليكة مقدم المنوعة، ص85

²⁴⁸ فرانتز فانون (Frantz Fanon) ولد في جزر الأنتيل، تابع دراسته في جزر المارتينيك، درس الطب وعلم النفس في جامعة ليون، ينظر ديفيد كوت: فرانس فانون (سيرة فكرية)، ترجمة عدنان كيالي، مدارات للأبحاث والنشر، ط1، 2018.

تمزق الذوات الكولونيالية بمعاناة تنتاب الهوية السيكولوجية عاج فانون هذه الظاهرة كحالة باتولوجية سريرية وليس كحالة صحية»²⁴⁹ تسري الحالة النفسية على حياة الكتاب وعلى كتاباتهم، التي تكون مرآة دواخلهم، فتحاول الكاتبة صناعة العالم الذي تريده في الواقع، تمزج ريشتها بالخيال أين تصنع واقعها، فتقول: « أكتب. أسود صفحات كتابة غاضبة، كنت سأموت لو لم ألتجأ إلى الكتابة.»²⁵⁰ فتعد الكتابة ملاذا بالنسبة لساردة تعبر عن وضعها المتأزم في فرنسا مثلما كان في الجزائر.

ليكون الخلاص من خلال الكتابة « الكتابة ودوران الكلمات تحبط التباريح الشديدة، الكتابة وتسويد بياض جسد الورقة هو ربح صفحة حياة»²⁵¹ فالكتابة بالنسبة لمقدم علاج لكل الصمت الذي قهرها في طفولتها أين لم تكن لها القدرة عن الدفاع عن حقوقها ضدّ جحيم الشعور باللامساواة « تدافعت كلمات الصمت، كلمات كل أنواع الصمت. لطمتني بقسوة ناجعة.»²⁵²

فتتمرد مقدم على الهنأ "فرنسا" من خلال حديثها عن الوجه الآخر للحضارة الفرنسية بقولها: «هذه المرّة أحسست برغبة في التقيؤ من جراء حصولي على الجنسية الفرنسية، فرنسا هذه المنضوية في تحالف إرهاب الدول، تمنحني رغبة هائجة في أن أمحي من كل ما يحمل كلمة فرنسا. باستثناء اللغة [...] ولأن الجزائر موجودة فقد كنت أعتقد بأن فرنسا تخلت نهائياً عن جشعها وعن طمعها، التي بدلت سحتته، بصفة منافقة..»²⁵³ رغم اعتمادها على دور النشر الفرنسي لكن مقدم تقذف دائماً الكلمات، محاولة تعرية الواقع، ومسح عنه بريقه، غير آبهة بصدى تلك الكلمات .

²⁴⁹ وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة (مقالات في الآخرة والكولونيالية والديكولونيالية)، مرجع سابق، 24.

²⁵⁰ مليكة مقدم، المتمردة، مرجع سابق، ص 29

²⁵¹ المرجع السابق، ص 55

²⁵² المرجع السابق، ص 65

²⁵³ المرجع السابق، ص 77

كما تتمرد أيضا في نفس الفضاء "فرنسا" على الرجل الذي أحبته واعتبرته وطنها وذلك من خلال تجاهلها له وانهمامها بذاتها من خلال الكتابة، تقول "هو يقول بأن الكتابة تحملني معها في حين تتركه، هو في عين المكان، وقد أصبح بسببها كئيبا وحادا" اهتمامها بالكتابة جعلها تضع ما دونها جانبا حتى ممارسة المهنة التي أحببتها، فلم يقبل التهميش الذي طاله بسبب اهتمامها بالكتابة.

على الجانب الآخر في "هناك" تتمرد على العادات وتقاليد المجتمع « قذفت إلى الجحيم بكل محظورات الوالدين، محظورات القبيلة، كلها الأرق السماوي، الذي كانت تمثله الصحراء بالنسبة لي، كل أشكال الاستهجان والتجريمات الاجتماعية».²⁵⁴

كما تتمرد على والدها الذي كان يقف حاجزا أمام تكوينها الطبيعي كطفلة، أينحشرت في زاوية أن تكون مجرد أنثى وهذا لم يعني له شيء، فكان عليها أن تكافح لتخرج من تلك الزاوية فتقول «قبل العطلة المدرسية حضرت حقدي في سريري ليال عدة متوالية. كنت الأولى في القسم الدراسي وكنت فخورة جدا بأن أرى نقاطي لأبي. هذه الأرقام يعرف أبي قراءتها. كانت له هيئة جمل متساهل، أبعده دفترتي عن مجال رؤيته وقال بشفقة: لا داع لهذا التعب، فأنت لست ولدا، يا ابنتي! أحسست كل جسدي يتصلب ويتهيج. كان نظري أسود، اجتررت في رأسي هذه الفكرة: سوف ترى، سوف ترى، ولكني ظللت صامتا من الشقاء».²⁵⁵ لتتحدث عن انشطارها بصريح العبارات دون الحاجة لإخفاء هذا الانشطار تقول: «قتلت في دواخلي الجزائر، لفترة طويلة هناك في الصحراء».²⁵⁶ فكلمة دواخلي تحيل إلى تعدد الذات فتواصل حديثها قائلة «كنت أبلغ الخامسة عشر من العمر، ذات مساء في الفاتح من نوفمبر[.] كدت أعدم من دون محاكمة، فقط لأنني لم أكن محجبة، فانغلقت أكثر فأكثر على الكتب كي أحافظ على حياتي من

²⁵⁴ المرجع السابق، ص 60

²⁵⁵ المرجع السابق، ص 55

²⁵⁶ المرجع السابق، ص 75

الصّدّامات، وانشطرت إلى اثنتين، إحداهما تواصل القراءة والخداع والأخرى سمرها ألم صامت».²⁵⁷ هذا الانشطار الأول الذي كان سببه العنف والخوف الذي تعرضت له، دخل فضاء هناك، سواء كان سردها واقعيًا أم خياليًا، فإنه حقيقة ما تراه مقدم لنميز بين هويات انشطرت بين فضائين متقابلان، أين يتحكم الفضاء في تشكل هويات مختلفة عند مقدم

وهذا ما نوضحه في الجدول التالي

جدول يوضح ما يشترك فيه الفضاءان بالنسبة للمليكة مقدم

فضاء هنا	فضاء هناك	تعقيب
الزمن الحاضر: زمن الكتابة	الزمن الماضي: فترة الطفولة والمراهقة (زمن الصمت)	تتناوب في السرد بين الزمنين
المكان فرنسا: بلد الحرية	المكان الجزائر: سجنها الأزيلال الذي لم تتخلص منه حتى بذهابها إلى فرنسا	تتناوب في السرد بين المكانين
الشعور بالوحدة: تعيش وحيدة بعد تخلي الزوج لها	الشعور بالوحدة: تعيش وسط أهلها تعزل نفسها، بسبب اختلافها عنهم	تعري نفسها بالقراءة والكتابة
تمارس الكتابة: تتحدث عن كتاباتها وحاجتها للكتابة	تمارس القراءة: تتحدث عن الكتب وعن هروبها إلى الكتب	تعد القراءة والكتابة بالنسبة لمقدم تعويض عن حالة الوحدة والغضب واليأس
معاناتها من الأرق: بسبب الخوف من التهديدات،	معاناتها من الأرق: بسبب الحرارة والفرش اليابس، والتصاق الأجساد	الأرق حالة شعورية قصوى، لعدم الانتماء
التمرد من خلال فنيات الكتابة، تعتمد لغة الجسد ..	التمرد على المجتمع والعادات والتقاليد	إن فكرة التمرد تنطلق من العنوان، لتسيطر على كامل النص.

²⁵⁷ المرجع السابق، ن ص

لتتطابق الشخصية وإحساسها بين هنا وهناك غير أنه في هذا التطابق يحدث الشرخ الذي تحس به مقدم أين تجد نفسها مجزأة وضائعة بين هنا وهناك، لتحاول أن تنشأ مكان خاص بها بين الفضاء

4- التعدد الهوياتي في رواية (رجالي): (mes hommes)

تعود مقدم للماضي وتسرد علاقاتها بالرجال الذين مروا بحياتها، حيث تستخدم ضمير المتكلم، ولا تضع اسماً لشخصيتها الرئيسية، من منطلق أنها هي نفسها، المعنية بالسرد، وقد تكون هذه الرواية مستقرة في البنية السردية من حيث تسلسل الأحداث وانسجامها، وكذا في ترتيب الرجال الذين عرفتهم، في سرد الأحداث من خلالهم، لتعدد السارد.

تحاول مقدم استفزاز قرائها من الجزائر من خلال تجاوز كل قيود المجتمع، بدءاً بعنوان الكتاب، فالتعددية حق ذكوري، الحديث عن هؤلاء الرجال، يجعلهم محلاً لسرد أين يتحول الرجل إلى مفعول به بعد أن كان قوة فاعلة، وهذا ما تتحدث به مقدم، في روايتها حيث تسرد تفاصيل من حياتها، متقاطعة في بعض الأفكار والشخصيات مع روايتها المتمردة وهي تستحضر كلام أحد الصحفيين نور الدين عزوز، (وهو من أكثر الصحفيين الجزائريين نباهة، «يفرحني حقاً في كتاباتك أنك تضعين مجموعة من بورتريهات لرجال شقر طوال معذبين بالأحرى في مواجهة أسطورة المرأة الشرقية والمكتنزة التي ينقلها الأدب الغربي كم يروق لي ذلك!»²⁵⁸ فترتب له مقدم حياته، كيفما شاءت، وتجره متى شاءت، فتقول «أنا البنت العنيدة الحقود»²⁵⁹. لتصرح بما تحمله من ضغائن للمجتمع الذي ولدت فيه، ما يجعلها تشهر عن عداوتها في كل حين.

²⁵⁸مليكة مقدم، رجالي، ص188

²⁵⁹مليكة مقدم، رجالي، ص155

إن السُّلطة التي تمارسها (مقدم) على النَّص تظهر تعدد الهوية عندها، وصراعها الداخلي، فإنها تصرح مرة أخرى ب: «إنحرافات سلوكي»²⁶⁰ فهي تعلن هذه الانحرافات للتمرد على السلطة الدينية والأبوية غير أن هذا التمرد لم يكن طبعاً سلوكياً، وإنما قصدي الغاية منه أساساً مقابلة رفض المجتمع بالتنكر له، وتستلذ الاغتراب حيناً «أنا الغربية. ما أجمل ان أكون الغربية! بعيداً عن الإدانات الجزائرية أكتشف في باريس تلك الحيوانية الشبقة للحالة الغرامية.»²⁶¹ وتلعنه في حين آخر، تقول «الثغرات في الجزائر كانت ثغرات في شح الموارد والحرمان من عطف الأسرة، أما في فرنسا فالثغرات موجودة حتى في العمل والعلاقات مع البشر، لا تكف الثغرات تنتشر في حياتي.»²⁶²

لتعترف أن الغربية لم تحررها بقدر ما زادت الفجوات في حياتها، لجوء مقدم للكتابة كان ضرورة فرضتها هذه الثغرات، في محاولة خلق عالم خاص بها، فهي لفرط إحساسها بالظلم كانت تهتم بالمهمشين في فرنسا تقول «طوال ست سنوات، اهتمت بالمغاربة لأنني أكثر تعاطفاً وقرباً من محنتهم، لأن الكثير منهم لا يستطيعون حتى توضيح معاناتهم بسبب عدم تكلمهم الفرنسية.»²⁶³ فهي تحاول أن تكون وسيطاً روحياً بين المريض وآلامه، ففي الطب تتخلى مقدم، عن غضبها وعن احقادها وانحرافات السلوكية، تقول «أعود إلى الكلية الصناعية، إلى تطهير الدم لئلا أنزلق نحو التطهير العرقي»²⁶⁴. مهنتها لا تساعد مرضى مقدم من المشردين بسبب المنفى وحدهم، بل تطهر مقدم من الشعور بالذنب نحو الجزائر "فوجودي مع هؤلاء، وصراعي مع

²⁶⁰مليكة مقدم، رجالي، ص 17

²⁶¹مليكة مقدم، رجال، ص 81

²⁶²مليكة مقدم، رجالي، ص 92

²⁶³مليكة مقدم: رجالي، ص 216

²⁶⁴مليكة مقدم: المرجع السابق، ص 217

همومهم، كان يساعدي على نسيان سائر الأمور، كان مرضاي ينقضونني من المأساة في الجزائر.²⁶⁵ بين هذين الشخصيتين المتناقضتين تكتب مليكة مقدم رجالها.

5- التعدد الهوياتي في رواية (نزيد) n'zid:

إن كتابة رواية باللغة الفرنسية تحمل عنوانا عربيا بلهجة جزائرية، يعبر في المقام الأول عن هوية الكاتبة واعترافها الصريح بهذه الهوية، وهذه الحالة الهجينة التي تعيشها الكاتبة إلاّ أنّها ستفقدّها في بداية نصّها؟ أين تستيقظ البطلة في قارب في عرض البحر، وقد تعرضت لكدمات في جبهتها، محاصرة في عرض البحر ولا تعرف شيئاً عن هويتها، لتجد مذكرة وقد كتب عليها « لا خيار؟ سامحيني، تمكنت من إقناعهم أنك لا تعرفين أي شيء، وجعلهم يتركوك تعيشين، أترك لك في هذا الصندوق الأمامي: أوراق مزورة، بندقية، إلى اللقاء»²⁶⁶ ما جعلها تضطرب وتدرّك أنّها في خطر وأن ما يزيد الموقف صعوبة هو أنّها دون هوية بل بأخرى مزورة.

كان يجب عليها أن تبحث في طفولتها عن نفسها، «تحقق في البطاقة، لكن إذا كان عليها أن تختار، أن تمنح نفسها دولة، فأى بلد تختار؟ دائرة صغيرة مرسومة بالقلم الرصاص على الساحل الجزائري، تجذب انتباهها. الجزائر؟ مصر؟ إسرائيل؟ تتوقف هناك بين أسماء البلدان وترتجف. لماذا يفلت هذا السؤال؟ لأنها بداهة لا تفترض أبدا، ولا تدعم أي اختيار، إنها تفكر في حيرة أولئك الذين يحملون في داخلهم العديد من الأراضي الممزقة. كل من يعيش بين المطالب والتمزق»²⁶⁷ فهي لا تعرف من تكون؟ من أين أتت وإلى أين يجب أن تذهب؟ هذا الضياع الذي تعيشه البطلة وسط البحر، يعبر عن مليكة مقدم إلاّ أنّها تجد نفسها ولأنه لتدرّك هويتها جيدا كان يجب أن تفقدّها، أن تعود إلى العدم وتعيد بنائها بالعودة إلى الطفولة

²⁶⁵ مليكة مقدم: المرجع السابق، ص 216

²⁶⁶ Malika mokeddem, n'zide, p13

²⁶⁷ Ibid, p22

ليكون البحر رمزا للبعث والانفتاح، أحيانا يكون هادئ وأخرى مضطرب، وهكذا هي ذكرياتها، فيذكرها البحر بأفقه الواسع بصحرائها أين ترى من الحين إلى الآخر هجومها على البحر ...

تزر نوراً في رحلتها عديد الموانئ (صقلية، فولكانو، جزيرة اوسبتيكا، بونيفاسيو، كورسيكا- كاتالونيا) لتسمح لها هذه التوقيفات بإعادة شحن المادي والجسدي، غير أن الطبيب يؤكد لها أن ما تعانیه من فقدان ذاكرة هو صدمة نفسه لا عضوية، وفي رحلتها هذه لا تستند لتلك الوثائق المزورة التي بالنسبة لها تخبرها بأي شيء فهي تلجأ إلى اختراع هويات هجينة أخرى « فقد اخترعت عدة عائلات من اليونان وفرنسا، تونس²⁶⁸ » إنها تخترع هويات حسب حاجتها في المواقف والأماكن، « أنا إيفا... إيفا بولوس، إيفا بولوس، والذي كان يونانين... كانا؟ أب قبطي، وأم يهودية، ولدت في باريس، محض فرنسي-يوناني-يهودي-مسيحي-عربي-ملحد. إيفا بولوس»²⁶⁹ دائما ما تلجأ مقدم إلى هويات متعددة سواء تعلق الأمر بالشخصية الرئيسية أو بأصدقاء تلك الشخصية، تريد أن تذوب الفروقات العرقية والدينية، لتتخلص من هويتها الأصلية، غير أنها لا تتمكن من ذلك حيث تعود دائما إلى تلك الهوية التي تصارع باقي الهويات المختلفة، فعند لقاءها بلويس الملاح المغامر تقدم نفسها على أنها رسامة لبنانية عالقة في اضطراب الحرب الأهلية.

تستعير اسم من تراثها وهو "الغولة" فتقول: «الغولة لقب الطفولة، في العربية وهو يعني "ogersse" إني أحب تبنيه من أجل الرسم، وإنه يعوض اسمي ولقبني، إني أحب كثيرا الغيلان والشياطين، وانت؟»²⁷⁰ ليأخذ هذا الاسم طابعا رمزيا لتعرفها على ثقافتها وكذلك إلى ما تعرضت إليه في صغرها بالرغم من أنها لا زالت لا تذكر من تكون؟ وكأنما تحاول الذاكرة الحرب من مواجهة شيء ما في ماضيها، والذي يكون سببا في فقدانها

²⁶⁸ Ibid,p56

²⁶⁹ Ibid,p64

²⁷⁰ Ibid, p 49

لذاكرة ومحاوله عقلها إيجاد بدائل لهذه الهوية. تريد من خلال الغولة أن تبتلع كل شيء حتى الهويات والذكريات، كما أنها تستهلك قدرتها على التذكر.

تؤكد أنها لن تموت بعودتها إلى أصلها فهي ليست كسماك السلمون الذي يموت بعودته إلى وطنه الأصلي، إذا فهي تريد العودة، لأنها ستولد من جديد وأن عوائق الماضي قد زالت مع فقدان الذاكرة، فتقول: "أعود إلى البحر، لن أموت مثل السلمون عندما يجدون أخيراً مصدر ولادتهم، لكي ترى، وتشرب كل ألوانها الزرقاء، تحلم بأشجارها، تذيب الحدود، تغطي شقوق الحجارة، وتسمع صوت الطائر والورق والشاعر في صوتالماء"²⁷¹ فمقدم ترى أن العودة إلى البحر ضروري لعملية الولادة من جديد لحب الحياة خارج ذلك البحر، غير أن مكاملة نورا مع زانا أمها بالتبني هي التي تضعها في فلك الزمن، لتعيد إليها سيرتها الذاتية.

غير أنها توضح لها تعقيد أصولها « فقد تزوجت والدته، التي كانت جزائرية، من صموئيل كارسون وهو رجل شمالي من غالواي، كان إيرلنديا غاضبا.»²⁷² لتتعرف نورا على أصولها المعقدة من خلال أمها بالتبني وقد يلحنا هذا التبني إلى الأم الأرض، فنورا تملك أم بالتبني أي وطناً بديلاً، تحاول فهم هويتها المعقدة والمنسي من خلاله، للتذكر من خلال ذلك الطبيعة الاستثنائية في علاقة والديها، فتقول « كانت والدتي جزائرية، عندما ولدت، حاولوا العثور على اسم يناسب الجميع، يبدو أن البحث كان طويلاً جداً، مما تسبب في نزاعات هوميروس. طبعاً الاتفاق على كلمة واحدة، لم تمنع البقية، لم أفهم أبداً كيف يمكن أن يعيش هذان الشخصان معاً، تثير الحروب والنفي أحياناً من هذه المشاعر. لقد جاء من ضباب وأمطار الشمال، من اللغة الغيلية. أتت من الجنوب، من الشمس ومن العربية. لقد حطموا الفرنسية معاً²⁷³... بين هذا الاختلاف والتمازج تكمن

²⁷¹ Ibid, p193

²⁷² Ibid, p111

²⁷³ Ibid, p111

هوية نورا المتعددة، بين لغات وثقافات متعددة التي تقترب وتختلط بداخلها، إضافة إلى الفرنسية من أمها بالتبني، مما يؤدي إلى التوتر الشديد، هذا التهجين في الهوية.

إضافة إلى أن انفصال والديها هو رمز التفكك والتمزق والمعاناة « عادت والدتي إلى الجزائر، لم نراها مرة أخرى... إن نطق هذا الاسم "الجزائر" يتركها عاجزة عن الكلام، مهمة لوييس وهو يهز رأسه كان علي أن أعرف أن هناك قصة أم وراء ذلك، هناك دائما قصة أم في رؤوسهم المنهكة ». ²⁷⁴ لتبدو علاقة نورا بوالدتها تشبه علاقتها بوطنها الأم، فقد احتاجت نورا إلى أم بديلة تستكين إليها وتعوضها عن أمها الحقيقية، التي أنهكت نورا والتي تتعرف على أصالة عالم "أمها" من خلال أمها البديلة، التي تعتمد لغة وثقافة الأم الأصلية، للتقرب نورا إلى عالمها الحقيقي، إلى انتمائها من خلال حكايات الغولة، وجحا من خلال استخدام كلمتي «حاجيتك ماجيتك»: والتي تأخذ نورا أبعد من الحكاية ومن الخيال إلى عالم الحقيقة عن طريق الخيال» كلما انحرف الخيال عما نسميه بالواقع في اللغة والنظرة العادية، ازداد اقترابا من قلب الواقع، الذي ليس هو بعالم الموضوعات المتضاربة، بل العالم الذي قذفنا إليه عند ميلادنا قذفا، ونحاول فيه أن ننظم أنفسنا بإشتراع إمكاناتنا الداخلية عليه لكي نعيش ونسكن ²⁷⁵ وهنا من خلال الخيال تحاول مليكة مقدم صنع عالم بحري يحمل هوياتها المتضاربة من أجل إنهاء الصراع الداخلي الذي تعيشه من خلال بطلتها نورا .

²⁷⁴ Ibid,p112

²⁷⁵اليامين بن تومي وآخرون، كتاب فلسفة السرد، المنطلقات والمشاريع، مسائل فلسفية، ص 92

خامسا: الآخر في كتابات مليكة مقدم:

الكتابة هي الوجه الآخر للحياة، حيث تسرد تصورات الإنسان عن ذاته و كذا عن العالم المحيط به الذي يعد في واقع الأمر جزءا منه، ذات الإنسان موجودة من خلال الآخر، تظهر من خلاله كمرآة تعكس ما يقابلها بكل تفاصيله، إذ أن هذا الآخر هو الذي يوضح الصورة التي نحملها عن أنفسنا من خلال المواقف التي تظهر في كل حين نتواصل بيها معه، كما أن هذا الآخر هو الذي يشارك في تشكيلات الهوية التي يحملها كل فرد على حدى، حيث يتداخل الأنا والآخر في هذه الهوية" إذ أن كل طرف يلتقي في جوانبته بالآخر دوما، فحتى وإن كان كل طرف مهتما بنفسه و منكبا على مشكلاتها المخصصة، فليس بإمكانه أن يتغلب عليها، إلا إذا أولى في الوقت نفسه اهتماما لمشكلة الآخر".²⁷⁶ وهذا يرجع أساسا إلى العلاقة بين الأنا والآخر التي تكون في الغالب متداخلة فهي ليست بالضرورة مضادة أو مواجهة، رغم حالة الصراع التي تفرضها الحياة .

فرضت المركزية الغربية نفسها لسنوات على أنها مصدر للمعرفة والسلطة، لتسيطر على التاريخ والجغرافية على حد سواء، فشكلت صورة نمطية عن الآخر الغير أوروبي، لتجعل الثقافة الغربية من الذات أساسا ومصدرا لفهم الكون، وذلك من خلال اعتمادها على الفلسفة المتعالية، التي جاء بها ديكارت، حول الكوجيتو المتعالي للفلسفة الوضعية التي انطلقت من التفكير كأساس لوجود، والذي لا شك فيه وبالتالي يقابل الوجود الذات، فالأنا لا يقابل الآخر وإنما يقابل الوجود الإنساني لذاته، فلم تهتم هذه الثقافة بالآخر، إلا حينما يهدد وجودها، فمنذ حملات نابليون الداعية لنقل الحضارة الغربية إلى الشرق، والأمم تعاني من التخلف والانحطاط الذي ساهمت الثقافة الغربية في تسويقهما إليه، ليتحدث في ذلك فيلسوف اللاهوتي العالم الفرنسي، بليز باسكال (Blaise Pascal) (1623-1662): "للأنا خاصيتان، فمن جهة هو ذاته غير عادل من حيث أنه يجعل من نفسه

²⁷⁶ منذر الكيلاني: الاستشراق والاستغراب: اختراع الآخر في الخطاب الأنثروبولوجي، صورة الآخر العربي، ناظرا ومنظورا إليه، ص82

مركزاً لكل شيء، وهو من جهة أخرى مضايق للآخرين من حيث أنه يريد استعبادهم، ذلك لأن كل أنا هو عدو ويريد أن يكون مسيطر على الكل.²⁷⁷

فالأنا الغربي الذي لا ينظر إلى الآخر إلا من الجدلية الصراعية، ليتفوق عليه أو يستعبده وهذه النظرة كانت أساس الفكر الغربي، التي بنى من خلالها علاقته بالآخر "على قاعدة غالب ومغلوب، ومن دون هذه القاعدة يضمحل الآخر ويصبح عدماً"²⁷⁸ ولكي يستطيع تحقيق تلك الغلبة سعى لذلك كثيراً.

اعتماداً على الكثير من الدراسات الأنثروبولوجية، التي راحت تدرس الإنسان داخل الجماعة وكيفية ترويضه حيث نجد أنه تم استغلالها في العديد من المواقف والتي من أهمها أنها سعت لتسوق للعربي نظرتة إلى نفسه، والتي كانت من خلال هذا الآخر الذي وضع صورة نمطية عن العرب، ليجعل اللورد كرومر (Evelyn Baring, 1st Earl of Cromer) مثلاً: من الشرقي رجل يفتقد إلى الصفات الإنسانية، فيقول في كتابه مصر الحديثة "يفتقر إلى العناصر الأساسية التي تصنع منه إنساناً متحضراً، فهو يفتقر إلى النشاط، وتغيب فيه روح المبادرة وفي المقابل يجد متعته فيما يلقي عليه من مديح وتملق، ناهيك عن صفات المكر والقسوة"²⁷⁹ وقد صدق العربي ذلك. وبنا مفاهيمه على هذا الأساس "فالعنصرية الكولونيالية ترى في الآخر أساساً سلبياً لإدراك الذات لذاتها، لهذا فإن بناء شعب ما يتم انطلاقاً من إدراكه علاقته الجدلية بالآخر."²⁸⁰ بالبحث في العلاقة الجدلية بين الأنا الغربي في مقابل الأنا الشرقي لم تكن يوماً علاقة متوازنة أو متقابلة ولا حتى متضادة، فهي لا تنظر إليه، وبذلك لا يمكن أن تكون مرجع في إصدار أحكام على هذه الذات، غير أن عدم تكافؤ القوى، جعل استعباد الآخر والسيطرة عليه أمراً طبيعياً، بل قد تجاوز الأمر إلى حيونته ليسهل ترويضه.

²⁷⁷ أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات بيروت-باريس، ط 2، 2001، ص 824

²⁷⁸ دلال البزري، الآخر المفارقة الضرورية، صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، تحرير الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، ص 103

²⁷⁹ لونيس بن علي: إدوارد سعيد في نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الكولونيالية، ص 112

²⁸⁰ لونيس بن علي، المرجع السابق، ص 278

وفي المقابل نجد نصوص كتبت عن الغربي من خلال بعض المهاجرين في تسجيلهم تنقلاتهم من الشرق إلى الغرب على غرار توفيق الحكيم، طيب صالح وغيرهم فيقدمون صورا إيجابية عن المجتمعات الغربية ولم يكن الكتاب الجزائريين أقل انبهارا بالثقافة الغربية، وهذا ما سيبدو جليا في كتابات مقدم من خلال تجربتها مع الآخر المختلف عنها، خاصة إذ ارتبط الأمر بالآخر الأوروبي، غير أنا في هذه الدراسة نسعى لنضع الأنا الغربي في مواجهة الأنا الشرقي من خلال كتابات مقدم ونظرتها لكليهما.

إذ أن هذا الآخر كان حاضرا في كتاباتها على الدوام، ليكون السرد وسيلة لتمثيل الآخر والتمثل من خلاله، أين تضع الكاتبة تصوراتها عن الآخر، لتوضح هذه التصورات والمواقف التي تتبناها الكاتبة من الآخر ويوضح في الوقت ذاته، الطريقة التي أصبحت عليها هذه الذات وكيف وعت ذاتها "فالذات لا يمكنها بتاتا أن تتعين من تلقاء نفسها، لأنها في احتياج متزايد، يكون جدليا في كثير من المرات، إلى الآخريّة".²⁸¹ وهذا ما نوضحه من خلال مواقف مقدم من الآخر.

1- صورة الآخر الجزائري:

تقدم مليكة مقدم صورة نمطية عن المجتمع الذي جاءت منه وبالأخص المجتمع الصحراوي، ولا تخرج عن هذه الصورة التي تقدمها عن الرجال في الصحراء وذلك من خلال تجارب ظلت عالقة في رأسها لتسقطها على كل رجال الصحراء، فالعقل يعتمد دائما على صور من الذاكرة في تقديم أحكام كلية من خلال الجزئيات ، فالصورة التي تحملها مقدم عن الآخر من بلدها لم تكن إلا حمولة العنف الذي عاشته في مرحلة الاستعمار وغداة الاستقلال ثم العشرية السوداء بعد ذلك، و التي جعلت من الريبة والشك مصدرا لكل تصوراتها، "لم أرى الربيع أبدا. تقول سامية بأن ربيع الصحراء ليس إلا عواصف رملية. تقول أيضا بأن ناس هذه المنطقة لا يتغيرون لأن كل سنة، تأتي الرياح الرملية وتدفنهم في حين يعيش الآخرون ريبعا جديدا. تقول بأن الرجال لا يمكنهم أن يجبوا النساء

²⁸¹ وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة، مرجع سابق، ص39

والبنات في أرض لا تعرف أزهار الربيع.²⁸² لتقدم مليكة مقدم صورة عن العلاقة المتوتر بينها وبين الرجل الجزائري، وأنها فقدت الأمل في تغير هذه العلاقة بسبب الظروف الطبيعية للمنطقة.

لنحاول تفكيك أول علاقة طبيعية بين البنت وأبيها ، لتكون هذه العلاقة سببا رئيسيا في العداوة التي تشهها مقدم في كتابتها من الحين إلى الآخر، لنعود إلى الآخر القريب من مقدم المتمثل في الأب الذي من خلاله تسقط نظرتها على ما دونه من الرجال والذي تهديه كتبها الأكثر تمردا متحديا السلطة الأبوية التي تغرق حياة النساء في الجزائر والصحراء على حد سواء "كنت تخاطب أمي فتقول لها "أبنائي" عن أشقائي، و "بناتك" عني وعن شقيقاتي. تلفظ أبنائي دائما باعتزاز، ويعتري نبرتك الترق والهزء والبغض، والغضب أحيانا وانت تقول بناتك".²⁸³ شعور الرفض من والد مقدم كان أساسا في بناء ذاتها وشخصيتها، فتشكل نظرت الأب الراضة لتواجدها عدوانا على ذاتها وانتماءاتها لما قد يمثله الأب في حياة أطفاله، ما جعلها تتمرد بعنف، "كنت أعصي أوامرك، أي في أغلب الأحيان، بدافع التمرد ولأنها طريقي الوحيدة للنيل منك".²⁸⁴ ولأن ذات الإنسان موجودة في التاريخ، فتصبح هذه الذات صورة عن التراكمات التي ظلت عالقة بها، مؤسسة لعالمها الخاص ، لتقطع مقدم كل صلتها بماضيها من خلال الهجرة إلى أوروبا، غير أن هذا الماضي يعود من خلال السرد لتواجه به ما فرت منه لسنوات .

توضح ملكة في كتابها رجالي هذه العلاقة تقول: "أترصدك، ألحك من بعيد، وأتوهم بأنك قادم من أجلي بكل عظمتك وجلال قدرك... كنت أتمالك نفسي لئلا أهرع صوبك يا أبي"²⁸⁵ تتبع مليكة وترصدتها تدل على أهمية والدها في حياتها، حيث تذكر تفاصيل عن طفولتها مع كثير من القهر والشعور بالدونية وبعدم الحب من

²⁸² مليكة مقدم، الممنوعة، ص 102

²⁸³ مليكة مقدم، رجالي، ص 11

²⁸⁴ مليكة مقدم، رجالي، ص 12

²⁸⁵ مليكة مقدم: رجالي، ص 13

طرف والدها، يتجاوز الأمر ذلك إلى شعورها باليتم رغم وجود والدها، "لا حقاً، حينما بلغت السادسة أو السابعة من العمر، توصلت إليك أن تشتري لي دراجة هوائية كانت دارنا تقع خارج القرية، وتبعد كثيراً عن مدرستي... ولكني لمحتك ذات يوم، لدى عودتي من المدرسة على شفير الإعياء، تجر دراجة فارغة تربع عليها بكر أبنائك. كنتما تفهقها، أنا ابنتك البكر، ابنك لم يتجاوز الرابعة، ولا يفارق الدار. انعقد لساني، وتمتت هذه المرة لو تموت يا أبي، بكل جوارح غضبي و أحزاني. لوددت لو تموت على الفور لشدة ما لم أتحمّل ذلك الإحساس باليتم." 286 تعد الحاجة إلى الانتماء أول الحاجات النفسية للإنسان، وأول انتماء للإنسان يكون الوالد "الأب"، وقد افتقدت مقدم لهذا الانتماء في مرحلة مبكرة من الطفولة .

وإن من خلال هذه العلاقة تأسست علاقاتها الأخرى فتزد في نفس النص على ذلك فتقول: "فارتقتك لأتعلم الحرية، الحرية حتى في عشق الرجال، وأدين لك بأني لطالما عرفت كذلك أن أنفصل عنهم" 287 توضيح الاضطراب وعدم التوازن النفسي الذي تعيشه الكاتبة في علاقاتها، عدم الارتياح والاستقرار راجع أساساً إلى الخوف من التبعية والخوف من الحاجة إلى شخص ما، بسبب عدم الثقة بين البنت وأبيها، لتوضح لاحقاً أن علاقاتها المتكررة كانت بحثاً عن الاختلاف عن الأب فهي لم تكن تبحث عن شبيه لوالدها بل العكس: "أحببتهم في اختلافهم لأبقيك غائبا" 288 لتسقط مقدم نظرتها لوالدها على أغلب رجال المنطقة التي جاءت منها، هذا ما أسس لصورة سلبية أطلقتها في روايتها على الرجل الصحراوي الجزائري، إذا ما قارناه بصورة الرجل الغربي.

غير أن الصورة السلبية لم تقابل كل المجتمع الرجالي الصحراوي في روايتها، ففي رجالي مثلاً تتحدث عن بعض الشخصيات التي كان لها أثر بارز في حياتها مثل: المصور الذي أنقذها يوماً من الرجم بالحجارة، وأنقذته

286 مليكة مقدم، رجالي، ص15

287 مليكة مقدم، رجالي، ص20

288 مليكة مقدم، رجالي، ص21

بدورها من الفشل الكلوي، وكذلك موص كما كانت تلقبه مشتقة هذا الاسم من المدينة التي جاء منها الأصنام (الشلف)، وهو أحد أصدقائها المقربين، وآخر صاحب المكتبة بشار الذي كان يعيرها الكتب قبل بيعها وقد أحببت كل من: نورين وسعيد، وغيرهم ففي كل روايات مليكة مقدم تقسم هذه الصورة إلى جزئين صورة سلبية تكون سببا في معاناة الشخصية الرئيسية بصفة عامة، و آلام النساء بصفة خاصة، وأخرى مساندة وداعمة لهؤلاء النساء، غير أن الصورة الأولى (السلبية) تكون هي الغالبة بنسبة أكثر من الصورة الإيجابية التي تمثل عدد أفراد أقل.

كذلك في رواية الممنوعة" نفسها تتحدث مقدم عن ياسين" تعلمنا أن نرى معا، أو أن يرى كل واحد عبر الآخر، مثل مريضين كبيرين، يعودان إلى الحياة، ببطء، عبر نفس النظرة. الآن أو من بذلك فعلا . منذ تلك الفترة، وإن كان الآخر دائما بعيدا، إنه دائما قريب، بالعناية نفسها موجهة فقط لتعيش اللحظة المحررة. منذ تلك الفترة، ومن أعمق أعماقي مخاوفي، أراقب العالم عبر ضوء عيني ياسين²⁸⁹ لترى العالم من خلال الآخر، فهو جزء لا يتجزأ منها، غير أن ياسين وقبله سعيد والنورين لا ينتميان إلى الصحراء.

ومن أجل أن تصحح مقدم علاقتها مع والدها جعلته في روايتها "الممنوعة" يقوم بقتل والدتها، ويختفي من حياتها لتعيد إحيائه من جديد من خلال حديث النسوة عنه وعن حبه المثالي لابنته الذي كان سبب مسألتهم، فتقول إحدى النساء "كان يجبك أكثر من اللازم، قالت امرأة بحسم، أو شامها معقدة. لو أحبك أقل، لو عاملك فقط كبنت له.. كان يأخذك دائما معه يحملك والكل يقول له يا الشعاني، لا تحمل البنت بهذا الشكل أنزلها من رقبتك ليست إلا طفلة، يضحك بضحكته القوية ويرد: أيها الأغبياء، انظروا جيدا إلى ابنتي، تساوي أكثر من كل أطفالكم مجتمعين."²⁹⁰

²⁸⁹ مليكة مقدم: الممنوعة، ص46

²⁹⁰ مليكة مقدم: الممنوعة، ص 185، 184

غير أن العلاقة المضطربة لمقدم بوالدها لم تكن وحدها وراء صورتها المشوشة حول الرجل الجزائري لتؤكد مقدم أن صورة الرجل الجزائري ارتبط بالصحراء أساسا بالظروف التي عاشتها هناك " لشدة ما واجهت أشكال العنف والاختناق طوال سنوات ،انتهى بي الأمر أن وضعت الصحراء ورجالها في الرعب نفسه: الرعب من موتي قبل رحيلي إلى أصقاع أكثر تسامحا."²⁹¹

2- صورة الآخر الأوروبي:

لم ترتبط هذه الصور بتواجدها في فرنسا فقد تشكلت قبل ذلك من خلال علاقاتها ببعض الأوروبيين في الجزائر في فترة الاستعمار بدءا بمعلمتها التي كانت بمثابة القدوة وبالرغم من أن التعليم في هذه المرحلة كان من نصيب وافر الحظ مع أبناء المعمرين، لتكون مقدم واحدة من أولئك المحظوظين الذين استطاعوا دخول المدرسة والتعلم على أيدي الأخوات المسيحيات وكذلك المعلمين الأوروبيين، لذلك تشعر مقدم بالامتنان الدائم لأولئك الذين ساهموا في تكوينها المدرسي، تذكرهم دائما بكثير من الإعجاب والامتنان ، حيث تتحدث عن معلمتها في روايتها المتمردة وكذا في رواية رجالي "لشدة حيي لمعلمتي، كنت أستبق عادة طلباتها، فبفضل رعايتها وجهودها، أصبحت الأولى في صفي... قبل أن تعلق: أجل أفهمك، كم فرحت بهذا القول "أفهمك" فتضاعف حيي لهذه المرأة."²⁹² كانت مقدم في هذه المرحلة من الطفولة في حاجة إلى من يفهمها، فوجدت ذلك عند معلمتها التي منحتها الرعاية والاهتمام، والتي استطاعت أن تفهمها، برغم من صعوبة فهم الأسرة لمقدم، ما عزز حبها لتلك المعلمة وكذا لفعل التعلم في حد ذاته.

تتحدث مقدم بعد ذلك عن أحد الشخصيات المهمة في حياتها، ألا وهو الطبيب الذي ألهمها مهنتها،

²⁹¹ مليكة مقدم: رجالي، ص137

²⁹² مليكة مقدم، ص55

وهو طبيب القرية، (الدكتور شال) الذي كتبت عنه في أغلب روايتها (التمردة)، (الممنوعة)، (رجالي)، (الرجال الذين يسرون) حيث تقول في روايتها رجالي "إنني مغرمة به كإنسان، بأسلوبه في العيش، منبهرة بقدرته على تحويل معاناة الآخرين إلى شغله الشاغل، بتكريس وقته لمحاولة التفهم، وتأمين العلاج، وتخفيف الألم، واستمداد تلك السكينة وذلك النبل من شغله."²⁹³ فلهذا الرجل الأثر البالغ في حياتها، وتُرَجِّع له الفضل في إلهامها مهنتها وكذلك في مساعدتها على الخروج من نوبات الغضب التي كانت تمر بها في فترات الصيف الحار في مدينة بشار، حيث طلب إليها مساعدته في التواصل مع المرضى بسبب إتقانها للغتين العربية والفرنسية، كما كان يسمح لها بأخذ الكتب من مكتبته لقراءتها، وكذلك مديرة المدرسة التي أقنعت والده بضرورة أن تكمل مقدم دراستها، لأن الاستقلال يحتاج كل أبنائه المتعلمين منهم خاصة: "السيد محمد، أنا أعتقد بأنك مقاوم كبير لأنك بعثت بأولادك إلى المدرسة.. وكي تكون الجزائر مستقلة بشكل كامل، فإنه يتوجب على البلد إيجاد مدرّسيه وأطبائيه ومهندسيه...".²⁹⁴

لذلك نتحدث عن هؤلاء في رواياتها و مقابلاتها التلفزيونية بكثير من الحب والإعجاب والشكر، بل يتجاوز الأمر ذلك إلا تخطي الحالة الديكولوجيالية التي عايشها الشعب الجزائريّ غداة الاستقلال "و لكنني لم أنس أن مودة معلمتي، وسيدة يهودية ورئيس مشغل من الأقدام السوداء ورعايتهما.. كانتا غنيمتي حرب في طفولتي، فيما الحرب مستعرة في الجزائر. لقد أسهمت تلك المحبة والرعاية نهائيا في وقايتي من ثنائية المفاهيم السائدة في المجتمعات، تلك المحبة والرعاية."²⁹⁵ فالثنائية التي تشير إليها مقدم هنا هي ثنائية الأنا "الجزائري" في مقابل الآخر "الفرنسي". ترفض مقدم هذه الثنائية فهي تعتبر أنّ هويتها هجينة بين الأنا والآخر لتغدوا نفسها الآخر وهذا ما تعبر عنه في كتاباتها فهي لاتضع حواجز أما الآخر بل تعتمد دائما إلى جمع هذا الآخر، وتهجينه .

²⁹³ مليكة مقدم، رجالي، ص 58.

²⁹⁴ مليكة مقدم، التمردة، مرجع سابق، ص 114

²⁹⁵ مليكة مقدم، رجالي، مرجع سابق، ص 71

تجمع مقدم في كتاباتها شعوب متفرقة عديدة، لتعبر عن تعالق الثقافات والاشتراك الإنساني وتشاركها فيها، وهو ما قد يحسب لصالح مقدم من حيث عملها على توحيد ما فرقته الخلافات العرقية والجنسية.

إذ أنّها تتحدث في روايتها (المنوعة) عن كيفية تطابق نسيجي للكلّي بين مآخِة جزائرية وأحد المرضى الفرنسيين أين تطابق عضو(الكلّي) مع جسم المريض تطابق كلي حير الأطباء، " إنك تملك هوية نسيجية مماثلة مع كلية المانح، السيد شوفي إنه حظ عجيب لا يصدق ما فتى يكرر الأطباء مبتهجين هناك في باريس".²⁹⁶

أين تجمع مقدم الموت والحياة كلوحة واحدة، تنبعث فيها الحياة من خلال الموت، عن طريق الصدفة كما تقول: "الصدفة ملاك متوحش"²⁹⁷ حيث لم يهتم المريض بهوية المانح والتي اختصرت في بادئ الأمر في العضوي الممنوح(الكلّي) غير أنّها تصبح فجأة أكثر من مجرد عضو يتوافق في جسد آخر مع بقية الأعضاء، ليصبح هذا العضو فجأة يحمل مواصفات إنسانية، أين تجتمع فيها هوية البطلة "سلطانة" مع المآخِة (أنثى) بأصولها الجزائرية، أين تتلخص كينونتها البشرية، من منطلق كونها أنثى وجزائرية، تحاول الكاتبة أن تستغل معرفتها بمهنة الطب لبعث فرصة التعايش من خلال الآخر "الآخر الذي يسكننا".²⁹⁸

تقوم مقدم على تفكيك البنية الكلية النسيج الاجتماعي، وجعله دون هوية، ثم إعادة هذه الهوية خارج الإطار العام الذي يحمله من اسم، لقب، هوية أنثى وطنية ودينية... إلى أن تجعل منه نسيجا كلويا يتطابق مع جسم غريب، يتطابق معه ولا يرفضه، هذا الجسم بل يستكين إليه ويتجاوز ذلك إلى تعلق "شوفي" بهذه القطعة الدخيلة على جسده "ولكن الآخر كان هنا، مع الارتعاشات الأولى للوعي بعد أن استيقظت من العملية، هنا مخيِّط إلى جسمي، بالألم، بالجرح المائل على جلدي"²⁹⁹ لتجمع بين جسدين مختلفين أشد الاختلاف ذكر

²⁹⁶ مليكة مقدم، المنوعة، مرجع سابق، ص26

²⁹⁷ مليكة مقدم، المنوعة: ص27

²⁹⁸ سليمة لوكام: لآخر في الثقافة والأدب حضور واستحضار، دار سحر للنشر، تونس، 2017، ص7.

²⁹⁹ مليكة مقدم، المنوعة، ص27

وانثى عربية ومسيحي جزائرية وفرنسي لكن ذلك لا يكون إلا من خلال الأم، "قال الطبيب مزهوا: تسامح جيد لعضو التطعيم لقد طعمناك بكليتك الخاصة، ولكن فكرة التسامح لم يمنع أن تتشكل عندي أن الجراحة، بهذا العضو قد غرست بداخلي جرثومتين غريبتين، غريبتين الجنس الآخر، والعرق الآخر، وتجدر في أفكاره هذا التهجين المضاعف للحمى، ودفعتي بقوة، نحو النساء، نحو الثقافة الأخرى التي تجاهلتها كلياً إلى حدّ تلك الساعة".³⁰⁰

لتكون فرصة التعرف على ثقافة الآخر هذا الآخر الذي كان مجهولاً، وغير مهم ليصبح جزءاً من ذاته، فيصير التعرف عليه ضرورة ملحة، يتنقل فيها "فانسان" إلى أقصى الجنوب أين تلغى الحواجز، ليبحث عن الثقافة الأخرى بعد أن صارت قطعة من جسده، "هذه الأجنبية من هوية واحدة إلى توأمتي الجزائرية".³⁰¹

فتقول من خلال "فإنسان" هذا الاسم الذي يحمل لفظ الإنسان في تطابقه الحرفي ويعني في ثقافة أخرى (الولي الصالح) محاولاً العبور إلى الآخر المختلف الذي صار جزءاً مهماً في جسده "إيقاع عبور دمي لبحرها. سأتنبأ بها، أكتشفها، أشكالها من جديد، عبر أصوات وحركات، وكيفية الوجود لآلاف، لملايين الجزائريات".³⁰² ففي هذا النص أيضاً تحاول جمع البشرية، وتدوين الاختلافات، وجعل الهويات هوية واحدة، وأنتك لن تفهم الآخر إلا من خلال نزع الحواجز العرقية.

لتجعل من شخصية "فانسان" متعدد الهويات وانتماءاته المختلفة، على المستوى العرقي وكذلك الديني "أصبحت ملحداً عن طريق والدي: يهودي من والدي بولونية، ومتدينة بالتضامن: مغاربي عن طريق الطعم، و بلا حدود، بالهوية النسيجية، أحتفظ رغم هذا بنواة عادات بدائية، عنيدة تجرس هويتي حسب هواها،

³⁰⁰ مليكة مقدم، الممنوعة، ص29

³⁰¹ مليكة مقدم، الممنوعة، ص29

³⁰² مليكة مقدم، الممنوعة، ص30

تصنع عسلها وتهجين أدباغها المسنة³⁰³ فبالرغم من اختلاط نسبه، إلا أنه يؤكد على هويته الواحدة التي تسيطر على بقية الأجزاء في تشكيلها معا، وان الرضوخ لهذا التشكل للأصل هو أمر لا مفر منه، مقدم تذكر جيدا علاقة الهوية بالانتماء العرقي والديني، فلا يمكنها التخلص من انتمائها، التي تشعر في كثير من الأحيان بتعبئة ما يجعلها تحاول النيل منه من خلال إعلان إلحادها في كل مرة، فهي تعلم أن أقوى ما يشكل الانتماء هو الدين، لتحاول أن تنبعث من الكتابة، وهذا ما توضحه صورة الآخر، المتمثلة في الرجل الجزائري والتي استخرجنا بعض ملاحظها من خلال بعض روايتها، مقابلين ذلك بصورة الأوروبي الرجل، فمن خلال هاتين الصورتين تتجلى الذات عند مقدم وكيف تكونت نظرتها إلى نفسها .

غير أن مقدم برغم من حضور الآخر في كتاباتها، إلا أن صوته في النص غير مسموع إذا ما تعلق الأمر بالأجنبي أم العربي فهو لا يملك بتات هذا الصوت، ذلك أن مقدم تركز على ذاتها في الكتابة، تحاول أن تلغي الآخر، فهو لا يدافع عن نفسه ولا يقدم الحجة إذا ما تحدث، ياسين قد توفي قبل وصول سلطنة إلى عين نخلة، " لم تتكلمي بزيارته ولا حتى بالإجابة على رسائله، ولكنك تصلين في الوقت المناسب لدفنه." ³⁰⁴ فمقدم لا تدفن صديقا أو حبيبا فقط فهي تدفن صوته، وتمنحه فرصة التواجد في النص من خلال الغياب من جانب باستخدام الرسم، من الجانب الآخر وهي هواية ياسين ووسيلته في مجابهة حرارة الصحراء.

أما أعداء سلطنة مثل: بكار (رئيس البلدية)، وعليمرياح سائق التاكسي، فهم كالأشباح أيضا لا يدخلون في جدال معها، وإنما يعكرون صفو راحتها من بعيد دون مزواجه حقيقية "هل علي مرياح هو الذي يتبعوني بسيارة؟

³⁰³ مليكة مقدم، الممنوعة، ص 62

³⁰⁴ مليكة مقدم، الممنوعة، ص 20

بسيارة غير سيارته؟ أم هل خيالي هو الذي انحرف كلية؟ يرفع ربحاً رملية لا تعصف إلا بداخلي؟ أعرف خيالي قادر على كل شيء، أليس هو القادر على إحياء الموتى؟³⁰⁵

تتحدث مقدم عن التنوع الجغرافي، لا يجعل من الإنسان متنوعاً ومختلفاً، الجزائري

والفرنسي على حد سواء، إذا ما تعلق الأمر بإنسانية الإنسان وما تحمله من الخير والشر على حد سواء تقول "محاولة العثور على مكان بلا جذور، بلا عنصرية، بلا معاداة الأجنبي، بلا مغامرات وخيمة العواقب؟ إن هذه المنطقة الاستشباحية لا توجد دون شك إلا في آمال المثاليين"³⁰⁶ ذلك أن العنصرية موجودة في كل مكان.

لأنها لا ترتبط بالمكان بل مرتبطة بالإنسان الذي لا يتقبل الاختلاف، ما جعلها تنحاز إلى أولئك المهمشين الذين لا يملكون ملجأ ولا وطن قد يؤثر وجودهم حيث "نذهب أم نبقى لا يهم. إن أممي الوحيدة هي أمة الأفكار. لم أشفق في حياتي إلا على اللقطاء، المهمشين، القلقين واليهود التائهين مثلي. ولم يكن وطن هؤلاء إلا حلما غير موجود، أو مفقود مبكراً"³⁰⁷، تنتسب مقدم للأفكار وتلغي عن نفسها الانتماءات الأخرى، لأن هذه الانتماءات تعزز من العنصرية في العالم، وتزيد قلق المغتربين وشعور الذات بالاغتراب، وهو سبب الذي جعل مقدم تجعل من صوتها صوت أحاديا في النص منطلقها إن كان الآخر يلغي وجودي فإن وجوده سيكون سرايا، تدركه إلا من خلال حاجتك إليه.

³⁰⁵ مليكة مقدم، المنوعة، ص 169

³⁰⁶ مليكة مقدم، المنوعة، ص 84

³⁰⁷ مليكة مقدم، المنوعة، ص 84

خلاصة الفصل:

تستخدم مليكة مقدم الرواية كوسيلة لسرد الذات، غير أنّها تحاول أن تطعيمها من حياتها الشخصية، فتستعين بالعديد من التقنيات لتكتب من خلالها تواجهها وحدها الإنساني، محاولة بذلك خلق عالم خاص بها تعوض من خلاله حاجتها للآخر في حياتها، هذا الآخر الذي تنظر إليه نظرة شك وريبة خاصة ما تعلق بالآخر الجزائري الصحراوي، بسبب علاقتها غير سوية مع والدها وغياب عاطفة أمها، والتي كانت محجوزة وحصريّة لإخوانها الذكور.

الفصل الثاني: الهوية اللغوية وتجلياتها عند مليكة مقدم

توطئة

أولاً: تجليات الاغتراب في كتابات مليكة مقدم

ثانياً: سلطة اللغة في كتابات مليكة مقدم

ثالثاً: التهجين اللغوي والثقافي في كتابات مليكة مقدم.

رابعاً: التناص والتعالقات النصية في كتابات مليكة مقدم.

خامساً: الجسد واللغة في كتابات مليكة مقدم .

خلاصة الفصل

الفصل الثاني: الهوية اللغوية وتجلياتها عند مليكة مقدم

توطئة:

تعد اللغة حمولة ثقافية، تعبر عن هوية الشعوب، ليتم من خلالها التوسط بين عالم الإنسان والأفكار أي بين الواقع والخيال، أين يتم باستخدامها فرض هوية سردية منتقاة، كما تسهل التوغل في ثقافات الغير، ويمكن إحلال واحدة بذل الأخرى لتستخدم كسلاح لإقامة عالم أسطوري، يضع الحواجز وينزعها كيفما شاء، ليؤسس الرجل لعالمه الخاص من خلالها، فيلغي من خلالها جمع غفير من النسوة في حضور طفل، مذكر واحد كفيل بنسف جموع النسوة، وما هذه القوة التي تكسبها اللغة لفرد واحد في مقابل الجماعة، إلا وكان الاهتمام بها وسيلة من وسائل الوجود بالقوى، أين تفرض الذات كينونتها على الأشخاص.

أولاً: تجليات الإغتراب في كتابات مليكة مقدم:

إنّ الهوية تتشكل من المضمرة المخفية في أعماق الذات الانسانية، والتي كانت حياة ما بعد الحرب العالمية الثانية وما طرحته الحداثة وما بعدها من عدمية وشكية وتششت وغربة سببا في تكوين هذه المضمرة، لتعود مرويّات مليكة مقدم في كل حين إلى مرحلة الطفولة أين تشكلت ذاتها في محاولتها لفهم هذا التشكل من جانب، ومن جانب آخر محاولة تصحيح وتثبيت ما ظل عالقا بين عالمين مختلفين أشد الاختلاف (فرنسا، الجزائر)، فرنسا رغم كونها خيارا لا مفر منه لمقدم لكي تستمر بالحياة، بعيدا عن الإقصاء الذي تعيشه في بلدها كامرأة حددت وظيفتها منذ ولادتها أو قبل ذلك، إلا أنه كان بمثابة المنفى حيث عانت الغربتين داخل الوطن الأم ودخل الوطن الذي اختارته كبديل أو كأم بديلة، فعلاقتها بالجزائر هي نفسها علاقتها بأمها الطبيعية التي ولدتها.

نجد في كل نصوصها ما تشعره من عبئ هذا الانتماء، وما نصها "أدين بكل شيء للنسيان" إلا لحظة بوح عن هذا العبء لتحمل المنفى ببعديه المجازي والحقيقي كما سنوضح لاحقا بعد توضيح ما يعنيه الإغتراب في الأدب، الذي يعد صوت من أصوات الحياة بما رحبت، ليكون مفهوم الإغتراب "Aliénation" في حد ذاته إلا نتاج تاريخي، يرتبط بالماضي ويتشكل منه فهو لحظة خضوع الإنسان لما صنع أو انتج ليكون: "وصف لحال الإنسان الواقع تحت هيمنة سلطة ما تسلبه ذاته وماهيته وإمكانياته، وتدفعه إلا واقع مغاير لحقيقته تماما" ³⁰⁸ ولقد اعتمدنا كلمة الإغتراب بدل المنفى، كون المنفى ليس خيارا أما الإغتراب فيتجاوز المنفى إذ يعد حالة شعورية قصوى بالانتماء، ولا يشترط به الابتعاد عن الوطن .

³⁰⁸ سهير عبد السلام، مفهوم الإغتراب عند هربرت ماركيز، دار المعرفة الجامعية، د ط، 2003، ص 22

1- الاغتراب لغة: تشير المعاجم اللغوية العربية إلى أن مصطلح "الاغتراب مأخوذ من الجذر اللغوي "غربة، وهو جذر يدل على حد الشيء، يقال: غرب السيف، أي حدد، ويقال استغرب الرجل، إذا بلغ حده الأبعد من الضحك، فالغرب هو الحد من كل شيء³⁰⁹

أما الغربة والغرب، فهو الاغتراب ذاته، وهو النزوح عن الوطن، والبعد عنه، والتغرب كذلك، يقال: غربه الدهر، و اغترب عن وطنه، لهذا ابتعد عنه، يقال للرجل غريب، أي بعيد عن وطنه، وللمرأة غريبة³¹⁰

2- الاغتراب اصطلاحاً: يعد المستشرق فروم أول من قدم الاغتراب بوصفه مصطلحاً أدبياً وبوصفه مكوناً نفسياً، وذلك في تعريفه للاغتراب حيث يقول: "هو ما يعانيه الفرد من حيرة الانفصال عن وجوده الإنساني و عن مجتمعه وعن الأفعال التي تصدر عنه، وفقد سيطرته عليها وتصبح متحركة فيه، فلا يشعر بأنه مركز لعالمه ومتحكم في تصرفاته"³¹¹ ليكون الاغتراب بهذا المعنى هو فقدان التوازن بين الهوية الفردية والهوية الوطنية وعدم تطابق الذات مع ذاتها كوحدة كاملة متجانسة .

ليطابق التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي والذين يمثل كلاهما ما شعر به الشخص من حالة الانتماء والضياع، حيث يتحكم هذا الشعور في تصرفاته، ويكون مصدر لها.

وقد وضع ابن القيم الجوزية درجات للاغتراب في قوله " مراتب الاغتراب هي: الاغتراب عن الأوطان، وفيه يكون الإنسان مغرباً عن وطنه، بعيداً عن مكوناته البيئية التي يعيشها ويحبها، والثاني: غربة الحل: وهي التي يكون فيها الإنسان مغترباً عن المجتمع الذي يعيش فيه، كحياة العالم بين الجهال، والصادق بين المنافقين، والمؤمن بين الكفار،

³⁰⁹ ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (1979م): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ج 4، ص: 420 مادة غرب.

³¹⁰ ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي المصري الأفريقي (1414هـ) : لسان العرب، دار صادر، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ج 1، ص: 639.

³¹¹ عمر، أحمد مختار عبد الحميد: معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق عمل، دار عالم الكتب، القاهرة - مصر، ط 1، 2003، ص 1602.

أو رجل صالح في زمان فاسد، يعيش بين الناس فاسدين، أما الدرجة الثالثة: فهي غربة الهمة: وهي غربة طلب الحق، وهي غربة العارف؛ لأن العارف في شاهده غريباً".³¹²

فكل درجة تؤدي إلى الدرجة التي بعدها وترتبط معها علاقة طبيعية لا تكون إلا بوجود ما سبقها وقد استعمل مارتنهيدجر مصطلح الاغتراب خلال حديثه عن الوجود المزيف، " وهو الوجود الغارق في الحاضر الذي تحدده الاعترافات والعادات ، لا اختيار الإنسان نفسه بنفسه، وبإدراك تام للأوضاع الإنسانية الأساسية. إذ يكون الإنسان مغتربا عندما يتخلى عن حق الاختيار ويهرب من ذاته والأزمات ويعيش في حالة من الزيف، ويغرق في الحاضر وفي عالم الآخرين، فينفي وجوده ويصبح واحدا من الآخرين".³¹³ ليكون الاغتراب عند هيدجر هي غربة الذات عن حقيقتها وسلبها إرادتها لتكون مثيلة للآخرين، لتعيش هذه الذات مسلوقة الإرادة، حيث تفقد حرمتها لتسير وفق ما يريده الآخرون تسيير وفق عادات وتقاليد المجتمع . وحديثنا عن سلب الحرية نتجه صوب جان بول سارتر الذي يستعمل مصطلح الاغتراب في عدد من مؤلفاته، فيقول في كتابه الوجود والعدم " الاغتراب ليس الانفصال عن الآخر بحد ذاته ، بل هو في رؤية الإنسان لنفسه كما يراها الآخرون فيستحيل إلى موضوع. إن الإنسان الآخر هو المرآة التي يرى نفسه فيها، ليس كفاعل، بل كمنفعل بالوجود، فالآخر في حالة الاغتراب لا يراه كإنسان حر يملك إمكانيات خاصة، بل يكتفي برؤية أوصافه الخارجية. و حتى حين يغيب الآخر، لا يستطيع هذا الإنسان أن يتهرب من الإحساس بهذه الغربة".³¹⁴

³¹² ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب (1996م) : مدارج السالكين بين باك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان الطبعة الثالثة، ج: 3، ص: 191 - 193 .

³¹³ حلیم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية (مناهات الإنسان بين الحلم والواقع)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ص46

³¹⁴ المرجع السابق، ص47

ترتبط الذات بالآخر في الفلسفة الوجودية كما ذكرنا سابقا حيث يكون هذا الآخر من يحدد كيفية رؤية الذات لنفسها فتصبح موضوعا للآخر ومرآة للأننا، لتحكم عليها بالاغتراب حيث تفقد حريتها وتتجرد منها. إن ما يزيد غربة الذات هو عدم تقبل الآخر لهذه الأننا فيسقط ذلك على الأننا تتغرب عن ذاتها.

تضع الغربة الهوية في حالة من الصراع بسبب افتقاد الانتماء وعدم الرضى وافتقاد الحرية وعدم الاستقرار التي تبعثها، لتبنى كتابات المغتربين حول الوطن بين حنين وعتاب، وشعور بالوحدة فقد كتبت مليكة مقدم في روايتها الوطن، ليكون الشخصية الرئيسة في كل رواياتها إنها تتحدث عن غربتها في كتابها (رجالي) وهي تتحدث مع أحد من الرجال الذين مروا بحياتها، طيب من الجزائر يعيش في باريس، قام بزيارتها بعد أن ضاقت به باريس من كثرة مضايقات رجال الشرطة بسبب شكله الذي يدل على انتمائه "عندما كنت طفلة، في دار أهلي، بدأت أشعر بالغربة، بسبب العنف والظلم ونوبات الغضب. غرقتي هنا انعتاق³¹⁵".

3- الاغتراب عند مليكة مقدم:

عانت مليكة مقدم من الغربة لشعورها بحالة الظلم والتعسف وكذا لاختلافها عن أهلها، لترد بلسان صديقها الذي عاش في البلد نفسه "أوفتك الرأي بالنسبة إلى العنف والغضب، ولكني لست غريبا في بلدي، إنني أشعر بالعجز أمام نظام منحور"³¹⁶ ليتحدث عن معاناة من نوع آخر تختلف عن معاناة مليكة مقدم، كأثما لا يسكنان نفس البلد فبالرغم من اشتراكهما في المهنة في لون البشرة تفاصيل كثيرة تجمعها، ومع ذلك اختلافهما في المعاناة التي تعد الاختلاف الوحيد بينهما؛ كونها امرأة في مجتمع رجالي يفرض على المرأة أن تكون ما لا تريد، أن تشبه غيرها من النساء، كنوع من الاستنساخ البشري الذي ترفض مقدم أن تكون جزءا منه، أما هو فمعاناته كانت بسبب النظام السياسي، غير أن مليكة مقدم بعد كل عتاب تعيد دورات الحنين، فتشبه رائحة

³¹⁵ مليكة مقدم: رجالي، ص 98

³¹⁶ مليكة مقدم: رجالي، المرجع السابق، ص ن .

صديقها بالجزائر "تلك الرائحة، تلك التي أشمها بملء رئتي، في باطن عنقه حين كان يعانقني، فتجعلني أدور حول نفسي، هي رائحة الجزائر السعيدة السخية."³¹⁷ هنا تفتح الجراح على علاقتها بالجزائر، وحاجتها إليها في الوقت نفسه، لتتحدث في رواية أخرى (أدين بكل شيء للنسيان) عن الوحدة التي تعيشها في فرنسا من خلال بطلنة روايتها سلمى، حيث استقبلت سلمى مكاملة من خالها لتكون الثانية من الجزائر بعد ثلاثين سنة من استقرارها في فرنسا، ليخبرها بوفاة أمها "استقبلت سلمى هذه الكلمات وحيدة في ظلمتها."³¹⁸ لتعيش مليكة مقدم الغربية، وتبرز ذلك في كل شخصياتها منذ طفولتها التي تعود إليها في كل رواياتها فتدين لنسيان بكل شيء حيث تبرز العلاقة الغير سوية بين الأم والابنة والتي تبحث مقدم تعويضا لها بالكثبان الرملية الدافئة حيث كانت تهرب سلمى وهي فتاة صغيرة دائما إلى الكتيب: "كانت تجيء أحيانا لتحلم وتلعب بين الأموات، هناك حيث حضن الكتيب، والأرض حيث له علامة، مقطعات الرمال المتوهجة، والإغراء المعتم للقبور، مثل رعشة جامدة للأبد"³¹⁹ لتكون الصحراء هي الدعم الذي تعزز به كينونتها المشتتة .

غير أنها تتحدث أيضا عن الجزائر وفرنسا كفضاء مثل غربتها، لتعيش هذه الغربية في بلدها الجزائر وسط القبيلة وكذا في فرنسا مع الرجل الذي كان قبيلتها، في نصوصها خلقت مقدم عالما أو فضاء خاصا بها وبشخصيات رواياتها "لتخلق عالم خاص لا ينتمي لا للجزائر ولا لفرنسا بل عالم بينهما، حيث نرى أنه بفضل الطابع الإقليمي استطاعت شخصيات مليكة مقدم إيجاد مكان حقيقي ورمزي حيث أصبحت ذاتها، مكانا يتضمن إبداعها أين تجدد وتقول صوتها"³²⁰ لتخلق من خلال الكتابة عالما الخاص الذي تواجه به عالمها الحقيقي الذي رغم انفصالها أو انقطاعها عنه إلا أنه هو كل ما تملك والذي كون شخصيتها المتمردة التي تعزز بها و تجابه

³¹⁷ مليكة مقدم: المرجع السابق، ص99

³¹⁸ مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ص 91

³¹⁹ مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ص101

³²⁰ Anne Aubry: Malika Mokeddem ,ou la recherche d'un espace où devenir soi-même .synergies chili n°12-2016 .P16

بها ذاكرتها، حيث يعتبر الأصل البدوي الرحل لمقدم ضروريا لفهم ازدهارها للحدود ، ورفضها للمساحات المخصصة لها وكذا تعلقها بالمشي الذي غالبًا ما يأخذ قيمة مجازية. "إننا لسنا نخلات كي نحتاج إلى جذور، نحن نمتلك سيقاننا كي نتمشى ونمتلك ذاكرة"³²¹ هذه النكتة ، تفتح لنا الباب لفهم هوية مقدم التي يسيطر عليها الترحال ككل البدو، والتي لا تعترف بالارتباط المكاني خارج عالم النبات أو خارج الذاكرة لتسكنها الأماكن، بذل أن تسكن فيها، ما يجعلها تلجأ إلى البحر الأبيض المتوسط كفضاء بين الاثنين الجزائر وفرنسا، ليعوض انتمائها: "لقد استحوذت على هذا الوسط في وقت مبكر جدًا لدرجة أن لدي هذه الهوية المميزة. حقًا، لا يمكنك تقسيمها إلى قسمين. لا توجد طبقة جزائرية طبقة فرنسية. إنه جزء مني: أنا جزائرية أتحدث الفرنسية"³²²، لتؤكد هويتها القومية حينها واللغوية حينها آخر والتي تعدها مقدم هوية مميزة، لكونها تجمع أكثر من ثقافة، ثقافة بلد عاشت داخله ولغة عاشت داخلها، فاللغة حمولة ثقافية لا يستهان بها من حيث إنها تفرض كينونة ثقافية على حاملها .

"وعلى حد تعبير باشلار في شاعرية الفضاء، تذكره بيريت فريكي أنه يجد هويته الحقيقية في اللحظة التي تصبح فيها مساحة العلاقة الحميمة وفضاء العالم متناسقين"³²³ لنجد مقدم في كل خطاباتنا الحميمة تصوغ حميمية من نوع خاص مع الطبيعة والأرض، ليصعب الفصل بين علاقاتنا الحميمة، وشعورها بالفضاء الذي تعيش داخله، كما قطعت مقدم علاقاتها مع عائلتها وذهبت إلى المنفى الذي وصفته بأنه سيئ السمعة ، فإنها تصرح أنها ورثة الأخلاق البدوية، في كل حين، حيث نجد أسلاف مقدم الرحل حاضرين في نصوصها. يعودون من الموت فقط ليطلقوا عليها عبارة بدوية. فيعكس الترحال الجغرافي لمنفاها في أوروبا رفضا ماكرا للمليكة مقدم ، حيث تبحث عن مساحة لتعيش فيها على طبيعتها دون خوف أو حتى دون أن تفتح على نفسها جبهات التمرد من أجل أن ترد على حالة التنكر والتعصب المجتمعي للمرأة فتقول في كتابها رجالي: "كنت أعصي أوامر"

³²¹مليكة مقدم:المتردة،ص97

³²² Malika mokaddeme :N EZID,2001,p:40

³²³ Anne Aubry: Malika Mokeddem ,ou la recherche d'un espace où devenir soi-même .P20

، أي في غالب الأحيان، بدافع التمرد، لأنها الطريقة الوحيدة لنيل منك³²⁴ فهي تبحث عن حرية تحتاج فيها إلى مسافة للتحقق؛ دعمت اتساع الصحراء امتداد البحر المتوسط، تقول مقدم بوضوح "إنها ملكهم وبدون انعطاف الخيال: لقد غادرت الجزائر في خريف 1977، قبل وقت طويل من الهجرة الجماعية وفي هذه الجزائر حيث كنت أختنق، كنت بحاجة للذهاب لإنهاء دراستي في مكان آخر، لأتنفس الهواء من مكان آخر، لأكون أكثر حرية"

325

تعاني جميع بطلات رواياتها تقريباً من الحاجة الملحة للمغادرة، وتمزيق أنفسهن بعيداً عن البيئة الأصلية حتى يتمكن من التنفس، ومن العيش بحرية، وتصرح مقدم بفضل المنفى في إخماد نار غضبها "غفلة المدن الكبرى قللت من غضبي، وجعلت رذات فعلي معتدلة، المنفى لينبي. المنفى مجال غير قابل للحجز، مجال الاختلاف الصامد، نظرة لا وارث لها." وهي من فضائل المنفى وغنائمه عدم المبالاة بالحروب الصغرى، ضد الآخر، لأن المنفى يقود حروبه الكبرى ضد ذاته، ليجمع شتاتها.

1/3 الاغترابو اللغة:

اعتمدت مليكة مقدم اللغة الفرنسية في كتاباتها، غير أنها قامت بتطعيمها ومزجها باللغة العربية حيناً وبالدارجة حيناً آخر وأحياناً الإنجليزية وكذا الإسبانية لتغدو نصوصها كرنفالا لغوياً، تجتمع فيه العديد من الثقافات والحضارات المتناطحة، غير أن اللغة الفرنسية هي الوسيلة أو القالب الذي يجمع بقية اللغات والتي تبدي فيها شغفها بالثقافة الشفوية ككل البدو، والتي لم تختزها بكل إرادتها فقد تعلمت مقدم في المدرسة الفرنسية إذ تذكر في إحدى رواياتها ذهابها للمغرب مع جدتها "ولكن التعليم في المغرب كان باللغة العربية، وهو ليس كذلك في القنادة، مسقط رأسي. استوعبت جيداً لغة الآخرين، وتبنت مدرستي، بجنسيتي الفرنسية الزائفة بموجب أوراق

³²⁴ مليكة مقدم رجالي، ص 12

³²⁵ مليكة مقدم قرن الجراد، 2000، ص 30

ثبوتية لا تمنح أي حق.³²⁶ لتؤكد في هذه الفقرة أن اللغة الفرنسية هي لغة الآخرين وأن جنسيتها الفرنسية جنسية زائفة لا تعطىها أي حق من حقوق المواطن، إذ أن بشرتها السوداء كفيلة بأن تضمن عدم انتمائها، زد على ذلك اسمها ولقبها، ليدل كل ذلك على هويتها الأصلية رغم امتلاكها للجنسية الفرنسية، لتؤكد في روايتها الأخرى (المتردة) على مقتها للجنسية الفرنسية، و اشمئزازها من كل ماله صلة بهذه الجنسية عدا اللغة الفرنسية، فتقول "لا وطن لي أحسستني عديمة الجنسية، والتي لم أحرؤ على كتابتها من قبل: عديمة الجنسية في بلدي بالتبني، فرنسا، هذه المرة أحسست برغبة في التقيؤ من جراء حصولي على الجنسية الفرنسية، فرنسا هذه، فرنسا المنضوية في تحالف إرهاب الدول، تمنحني رغبة هائجة في أن أمحي من كل ما يحمل كلمة فرنسا باستثناء اللغة"³²⁷ فهي لا تتصل من علاقتها اللغوية، والتي كانت مدرسة ما بعد الاستقلال سبب ثانيا في إخراج عديد المتقنين الفرنكوفونيين³²⁸ في سنة 1962، في سنة استقلال الجزائر، لم يقصد مقاعد المدارس الفرنسية إلا عشرة في المائة من الذين يتوجب عليهم الذهاب إلى المدرسة. ويشكل الذكور جزءًا من هؤلاء المحظوظين. ولكن تأثير القوانين المتعلقة بالتدريس الإلزامي، في منتصف الستينيات، بدأ يؤتي ثماره.³²⁸

لنفتح اللغة الفرنسية أفق الأدباء الجزائريين لتعبير وكذا اسماع اصواتهم للعالم، إلا أنها دعمت اغترابهم في الوقت ذاته وتزداد الهوة بين شعورهم بعدم الانتماء ، تلجأ بطلات مقدم دائما للقراءة هروبا من الأوضاع التي تعيشها سواء في الجزائر أو في فرنسا، ففي الجزائر كان تعلم القراءة يعني بالضرورة الابتعاد ، وتهميش الذات فيما يتعلق بمجتمعهم الأصلي الذي يتصورون منه كل الثغرات والظلم.

للتخلص من لعنة المجتمع الذي يُنظر إليه على أنه قوة قمع، لتكون اللغة الفرنسية بديلا اضطراريا للهروب، فقد عادت مقدم للجزائر بعد ثلاثة عشر سنة للاحتفاء بروايتها الأولى (الرجال الذين يمشون) حيث

³²⁶ مليكة مقدم، رجالي، ص113

³²⁷ مليكة مقدم: المتردة: ص77

³²⁸ مليكة مقدم: المتردة، ص121

تحصلت على جائزة من مؤسسة أدبية " نور الدين أبا" حيث كان من المفترض أن تحظ الرواية الفائزة بترجمة إلا اللغة الأخرى "المساهمة في الحد من التمزق الاجتماعي الذي تسببت فيه سياسة الهوية الواحدة والتاريخ الواحد."³²⁹

تعتبر مقدم أن الخلل يكمن في الهوية الواحدة والتي كانت سبب في رفض الآخر ، ليكن أي اختلاف سبب كافيا إلى احتقار الآخر أو قد تجاوز ذلك إلى استباحة دمه، لذلك ترى مقدم اللغة الأجنبية على أنها نعمة، إذا كانت اللغة الأم هي العربية فبين الابنة وأمها ، كانت العلاقة غير سوية تجعل من اللغة الأخرى بديلا لممارسة حريتها ومن جانب آخر تمردا على كل ما يمكن أن يقيدها ويفرض عليها ،غير أننا لا يمكن أن نستبعد الظروف التي نشأت فيها مقدم، حيث تعلمت في المدرسة الفرنسية حينما كانت الفرنسية اللغة الوحيدة المفروضة في المدرسة، فاكتمت بها اللغة وكذا الثقافة الفرنسية من خلال الكتب التي كانت تقرأها فاللغة لم تكن يوما ناقلا محايدا .

2/3 الاغتراب و الدين:

يعد الاغتراب الديني، ظاهرة من ظواهر ما بعد الحداثة سواء في الثقافة الغربية أو حتى العربية، ويمكن أن نميز حالتين من هذا الاغتراب؛ اغتراب في الدين ،واغتراب من الدين ،ليكون الأول سبب في وجود الثاني ،فالاغتراب في الدين هو الإلغاء الكامل للإرادة الفردية وللوجود الفردي في مقابل المؤسسة الدينية، التي تستمد قوتها من ضعف الآخر، وسلبه كامل إرادته، حيث يدعن لها دون نقاش أو جدال وان مجرد التفكير يصبح تكفيرا، وهذا ما خلق التطرف الديني وكان هو الآخر سبب للاغتراب من الدين ،حيث يشعر الفرد بالقصرية والإكراه وإلغاء الذات ،ما يحمله على التمرد عن السلطة الدينية ورفضها في كل طقوسها .

³²⁹ مليكة مقدم:المتردة،ص104

فتعيش مقدم حالة من الاغتراب الديني حيث تشهر في أغلب كتبها إحداه وعدم إيمانه، تربط الدين بالانتماء الوطني والذي لا يكون إلا من خلاله، لتكون الهوية الوطنية في حالة الإمكان هي الهوية الدينية دون بد لتحدث في "أدين بكل شيء للنسيان" عن وضع صديقتها زينب للحجاب حيث تقول زينب "كان علي أن أشعر بانتمائي إلى هذا الشعب، أن أحس ذلك بقوة، أو كان علي الذهاب للتخلص من الخوف³³⁰". فالعلاقة بين الدين والانتماء كان نتاجها الخوف، كعلاقة قصرية أنتجت الظروف العامة السائدة للبلاد، وهذه العلاقة موجودة في أغلب البلدان المتطرفة مثل فرنسا، فارتداء الحجاب هو نفسه دليل على عدم الانتماء، وتعرض صاحبه إلى العنصرية وقد يصل أحيانا إلى العنف كما يمنع قطعا في الأماكن الحكومية وحتى في أماكن الاستحمام كالبحر ويكلف مخالفة ذلك غرامة مادية كبيرة فتننتقد مقدم حالة الانتماء عن طريق الدين فتقول: "ولكن إذا كان الشعور بالانتماء في هذه الحالة أيضا لا يكتسب شرعيته إلا عن طريق الدين فإن ذلك يدل بلا ريب، على؟ إخفاق جيلهم وعلى تخلف البلد." ³³¹

حيث تروي أنه "فرضت شعائر الإيمان على زينب خلال سنوات الارتياب العام، خلال التمرقات العميقة النسيج الاجتماعي وللأسرة الواحدة أحيانا"³³² حيث فرض على صديقتها وضع الحجاب حتى لا تتعرض للأذى من طرف المتطرفين في تلك المرحلة.

لنتعجب سلمى في الرواية نفسها من الرجال الذين يصلون في الصحراء في ذلك الأفق الفارغ، وشعورهم بالاحتقار لركاب الذين لم يشاركوهم في الصلاة لتطرح تساؤلاتها بعد استماعها لطلبهم المغفرة "غفران ماذا؟ ولماذا؟ غفران الهم الذي يعيشون فيه؟ ذنب وجودهم؟ هل ارتكبوا شيئا آخر، ما عاد تشويه دينهم المفرط إلى

³³⁰مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، ص 80

³³¹المرجع السابق، ص 99

³³²المرجع السابق، ص ن

درجة تحويله إلى دجل؟³³³ ليكون الاغتراب في الدين سببا من أسباب الاغتراب عن الدين الذي تعيشه مقدم ليكون الدين جزء من تعاستها لتشهر في كل فرصة بأنها لا تؤمن " ملحدة" فالمشاعر الدينية لدى مقدم متضاربة .

ليكون الاغتراب دربا من دروب الحداثة وما بعدها ،فرضها التصادم الحضاري بين الشرق والغرب ،والذي من خلاله يعيش الإنسان إنسانيته فترى في ذلك جوليا كريستيفا"أنه كيف يتسنى للمرء أن يتجنب الغرق في حمأة الفطرة السليمة دون لاغتراب عن بلده ولغته ونوعه وهويته"³³⁴ لتكون الفطرة هي ما جبل عليها الإنسان لا تنفك إلا من خلال الاغتراب ،كنوع من المقاومة، لوقف الطبيعة عن بسط سطوتها في كل مرة، فالروايات التي كتبت في الغربة لها تيمات الخاصة ،فهو أدب نشأ في أحضان غريبة عنه، "ليتفاعل المنفى مع الخيال السردي"³³⁵

ليكون كما وصفه (هومي بابا) على أنه أدب اللا استثناس ،لأنه يجمع التناقضات في نص واحد ،كم يستدعي في كل حين الماضي ليقاوم به وحشة الحاضر "ليكون كل مشهد أو موضع في الوطن الجديد، يستحضر بالضرورة نظيره في الموطن القديم"³³⁶

لتقوم مقدم في روايتها المتمردة بكتابة تقابلية بين هنا وهناك، في كامل روايتها فيتشكل وطن خاص بها في مرتبة بين البينين، كمحاولة بناء عالم خاص بها من خلال الكتابة، إذ تصبح الكتابة، لمن لم يعد عنده وطن، مكانا للعيش، لتكون كتابات المنفى، همزة وصل بين التاريخ والجغرافية. تزخر كتبهم، بالحديث عن المكان والزمان وتفصيلهما، في محاولة لترويض وحشة الأمكنة، ويغلب طابع السيرة ذاتية على روايتهم، أو أنهم يسردون ذاتهم في رواياتهم، دون حواجز لغوية، اللغة الآخر كانت وحدها القناع الذي يسهل عليهم التخفي خلفه في حالات

³³³ مليكة مقدم أدين بكل شيء للنسيان، ص110

³³⁴ Julia kristiva:the kristiva Reader.edited by:toril moi Blackwell,oxford,uk & Cambridge USA,1986,p292.

³³⁵ محمد الشحات: سرديات المنفى، الرواية العربية بعد سنة 1967، أزمنا للنشر والتوزيع، ط1، 2006، ص 24

³³⁶ محمد الشحات المرجع السابق، ص25

البوح، لتجمع ثقافات مختلفة في نص واحد، لتخلق من خلال الكتابة عالمها الخاص الذي يعبر عن هويتها التي تشكلت من ذوات متعددة.

ساهمت القراءات والكتابات المختلفة لمقدم في هذا التشكل، "فالكتابة هدم لكل صوت، وكل أصل، وهي الحياد، وهذا المركب وهذا الانحراف الذي تهرب فيه ذواتنا، الكتابة هي السواد والبياض، الذي تتيه فيه كل هوية بدأ بهوية الجسد الذي يكتب"³³⁷ لتخلق الكتابة العالم الخاص للكاتب ولتزيد الغربة من النضج الفني والعقلي للمغترب تقول في ذلك مقدم "إنّ التّغرب الكبير وحده من يستطيع أنّ يهدئني ويضمّد جراحي"³³⁸، فيكون المنفعملة لوجهان مختلفان لمليكة مقدم حيث عاشت ومارست الحرية غير أنّها لم تكن قادرة عن التحرر من كونها جزائرية ابنة البدو الرحل، فالانعتاق عند مقدم لم يتجاوز غرائزها الإنسانية في محاولتها أن تكون ندا للآخر، ليس ذلك الآخر الغربي وإنّما الرجل، الذي كان ينافسها في لقنادسة على تبجيل والدها، فلم يكن من مقدم إلا أن تهدي كتبها لوالدها لما تحمله هذه الكتب من حالة التمزق والتشظي التي عاشتها ليس اختياراً منها وإنما فرضت عليها، من خلال سلطة المجتمع الأبوي على الخصوص.

يقول في ذلك هومي بابا: "أن أدب المنفى فهو يعيد إنتاج علاقات تحترق الشائيات الحداثيّة، فالمنفى فضاء ثالث ينزع الحجب عن التوزيع الرمزي للتسلط واستراتيجيات الهيمنة، يجعل المنفى الذوات لا تعرف كيف تعيش في الفضاء المطلق لأنها تخلق التمزق واللامعنى."³³⁹

³³⁷ رولان بارت هسهسة اللغة ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري حلب، ط1، 1999، ص 75.

³³⁸ مليكة مقدم، المتمردة، ص 104

³³⁹ وحيد بن بوغزيز، جدل الثقافة، ص38

ثانيا: سلطة اللغة وهيمنة الانتماء

تعد اللغة أول علاقة للإنسان بعالمه، لتحمل هويته، وتشكلها في الوقت ذاته ، فتكون وسيلة يتعرف بها ومن خلالها على العالم، و يعرف بنفسه إلى العالم من خلالها، وتتعدى اللغة حدود الكلمة المنطوقة، إلى ما تدل عليه، أو العلامة التي يقود إليها الفكر في كل مرة، فمفهومها ليس معطى أولي، فهو في غالب الأحيان قابل لتأويلات عديدة، لم تكن اللغة يوما ناقلا حياديا، فهي ميزة إنسانية ،حاملة لإنسانيته ، أخذت قوتها في الفكر البنيوي مع دو سيسور وليفي - شتروس ، ورولان بارت وكذا، جاك داريدا، بعد أن ورثت الثقافة الغربية، خطيئة نيتشه وقتله للإله، لترفع من شأن اللغة وتوجهها، مكانه، لتكتسب اللغة سلطة تمارسها على الأشخاص، و لتكون قوة في يد من يحسن استخدامها، فستروس جعل اللغة عقلا إنسانيا قائما بذاته، أما دو سوسير فاللغة عنده منظومة كاملة من قيم مجردة، غير أنه ميز بين المكتوبة والمنطوقة، لتتشكل اللغة عنده من الصوت والفكر، أما داريدا فلا فضل عنده إلا للغة، ولا ينتمي إلا لها، أما لاكان فاللغة تزخر عنده بالاشعور "الأحلام، والأفعال اللاإرادية" ليكون الرمز هو الإنسان ذاته.

تشمل اللغة كل إبداع أدبي، و"تشبه التقاء السماء بالأرض الذي يرسم للإنسان موطننا أليفا، إنها تميل إلى أن تكون أفقا أكثر من أن تكون مصدر مواد أولية بمعنى أنها حد ومحطة في آن واحد ، وهي في كلمة واحدة تعني الاتساع لتنساق مطمئنة"³⁴⁰ فاللغة ترتبط بالأرض والتاريخ معا ليشكلا ذات الأفراد وهويتهم، وحيث تسكن اللغة يكمن انتمائهم الذي يحررهم.

كما أن اللغة هي الملكية المشاعة بين الناس، والتي تأخذ فيها الجماهير ثقافتها من وسائط الاتصال الجماهيري من تلفاز ومذياع وكذا الهواتف الذكية وغيرها، فهي لا يمكن إلا أن تكون سوى أفق إنساني تترسخ في مدة ألفة ما وهي سلبية تماما، ليتم تسييس اللغة لتخرج من الاطار الفطري لاكتسابها، إلى الإطار المؤسساتي .

³⁴⁰ رولان بارت، الكتابة في الدرجة الصفر، ص 15

ففقده هذه اللغة براءتها وعفويتها وقد عزز الرجل مكانته في المجتمع اعتماداً على اللغة، التي جعلت وجود ذكر واحد يلغي تواجد كل نساء العالم، وأنه باللغة ترسخت تلك القداسة ليكون المذكر هو الأصل في كل لغات العالم دون استثناء، "إن الإحساس المتكرر بذكورة اللغة العربية، منبثق عن الإحساس بذكورة الثقافة التي هي نتاج طبيعي لهيمنة النظام الأبوي وتصنيف المجتمع إلى جنسين. وعندما تكون الثقافة مذكورة فالبنية المجتمعية برمته كذلك لأن إحدى أهم أدواتها للاستمرار، وإعادة إفراد ذاتها هي اللغة"³⁴¹ لذلك لا يمكن إغفال سلطة اللغة، وما تمارسه هذه اللغات من ضغط على الشعوب، وكذا من إكساب هذه الشعوب المكانة التي يستحقونها على المستوى العالمي فلا طالما كانت اللغة الفرنسية لغة الأدب وكذا الفلسفة في العصر الحديث وقبلها اللغة العربية في العصر الوسيط، لتراجع مكانتها أمام اللغة الإنجليزية والتي أصبحت لغة العالم أجمع وبدون منازع، بعد عولمة اللغة، يقول في ذلك رولان بارت "توجد حرب بين اللغات يصعب إخمادها، فتنفي لغاتنا بعضها بعضاً."³⁴² هذا ما قد يكسب عمل أدبيا أو حتى فلسفيا، أهمية عن غيره، ولذلك فقد كان من أجل فرض سلطة جديدة وجب تقويض أخرى وتفكيك أسسها ليتم إسقاطها لتكون اللغة الوسيلة المثلى، لذلك اهتمت المرأة باللغة، لتلحقها بجسدها بحثاً عن الكمال، داخل البنية العميقة للغة فتكتب مليكة مقدم بأسلوب مغاير، حيث تعمل على زعزعة الأطر الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري، مرتكزة على اللغة متقنة أساليبها في محاولة استخلاص لغة من ذاتها، لغة تعبر عنها وحدها، وتنشأ منها وحدها، في كثير من الحميمية، لتكون الكتابة هي كل تاريخها ومعارفها وهويتها التي تتشكل منها وبها وحدها.

فلا تتحرر الكاتبة إلا إذا حررت لغتها من قيود المجتمع و انحيازاته الذكورية غير المبررة أو التعسفية غالباً، تحت الرعاية القانونية لقواعد اللغة من جهة، و انزياحات الخطاب الذكوري من جهة أخرى: "فالصورة والإلقاء

³⁴¹ سمير الخليل، طانية حطاب: دراسات ثقافية (الجسد الأنثوي، الآخر، السرد الثقافي)، دار ضفاف للنشر، الشارقة، بغداد، 2018، ص 8

³⁴² رولان بارت: هسهسة اللغة، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1999،

والمعجم تولد من جسم الكاتب وماضيه، لتغدو شيئاً فشيئاً فنيات فنه ذاتها وهكذا يتشكل تحت اسم الأسلوب³⁴³ أين تصير الكتابة غير مقصدية لا يتحكم فيها الكاتب "ولا يمكن قراءة العمل إلا من خلال هذا التشكل تحت أسلوب مكثف من لغة مكتملة بذاتها لا تغترف إلا من ميثولوجيا الفردية والسرية الخاصة بالكاتب ليكون الأسلوب نتيجة مسيرة الشخص المغلقة، وليس نتاج اختيار على الإطلاق".³⁴⁴ فالكتابة هي نتاج الجغرافية والتاريخ التي صنعت فكره ولغته وكونا أفقه الإنساني وهوما مصدر الاختلاف بين الكتابات وكذا القراءة على حد سواء.

كتبت مقدم روايتها باللغة الفرنسية التي لم تختارها طواعية، بل هي نتاج ثقافتها، بين المدرسة التي تخرجت منها، والكتب التي اغترفت منها، في كل مرة كانت تهرب من قساوة حياتها البدوية، من جهة والمدرسة الحياتية التي عاشتها كمغتربة، أين ورثت اللسان الفرنسي، من جهة أخرى "ولكن التعليم في المغرب كان باللغة العربية، وهو ليس كذلك في القنادة، مسقط رأسي. استوعبت جيداً لغة الآخرين، وتبنت مدرستي، بجنسيتي الفرنسية الزائفة بموجب أوراق ثبوتية لا تمنح أي حق".³⁴⁵ فالكتابة بلغة الغير في الأدب الجزائري بعد خروج الاستعمار لم يكن اختياراً، بل هي موروث ثقافي نبتت معه علاقة حميمة مع اللغة، لتمثل مشاعرهما ما جعل التاريخ يشارك اللغة قوتها وإمكاناتها فيشكل بها ومعها سلطة يمارسها على الأفراد لتسكن الذاكرة اللغة.

إن اللغة عند بارت هي "مجموعة من التعليمات والعادات المشتركة بين كل الكتاب في فترة ما، معنى ذلك، أن اللغة مثل طبيعة تمر جميعها عبر كلام الكاتب دون أن تعطيه أي شكل ودون أن تغذيه: أنها بمثابة دائرة مجردة من الحقائق، وخارجها فحسب تبدأ تترسب كثافة فعل متوحد، لينتصب التاريخ كليا

³⁴³ رولان بارت: الكتابة في الدرجة الصفر، ترجمة: محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، ط2002، ص17

³⁴⁴ المرجع، ص ن

³⁴⁵ مليكة مقدم، رجالي، ص 113

تاما وموحدا."³⁴⁶ ليقوم بارت بمشروعه التحليلي للكتابة من الداخل وعلاقتها بالتاريخ معطيا إياها طابع الكلية يتشارك فيها الأفراد غير أن الاختلاف يكمن في الاختلاف الموجود بين الأفراد أنفسهم. وتفاعل الفرد مع لغة دون أخرى، هو ليس اختيارا بل علاقة حميمة موجودة أساسا مع تلك اللغة، والتي لا تتجاوز الأصل، رغم أن هذه العلاقة هي علاقة مكتشفة وليست طبيعية فهي تشبه العلاقة الروحية بالدين وخير دليل على ذلك أن الذي يختار هذه العلاقة من منطلق العقل والتدبر في الكون هم أكثر تدين من أولئك الذين فطروا على معرفة الله، دون أي اختيار منهم.

وهناك عديد الأدباء الذين، ارتبطوا بلغة ليست لغتهم، وأنشأوا نصوص تفوقوا بها عن أصحاب اللغة الأم أمثال: جوزيف كونراد (Joseph Conrad) البولندي الأصل الذي كتب رواياته باللغة الإنجليزية والتي لا تعد اللغة الأم ولا حتى اللغة البديلة فقد كان يتقن الفرنسية بسبب أصول والدته، فيقول في ذلك "الحقيقة أن قدرتي على الكتابة باللغة الإنجليزية لا تختلف في طبيعتها عن أي موهبة طبيعية ولدت معها، عندي شعور غريب وبالغ القوة، أن الإنجليزية كانت جزء موروثا من ذاتي، لم تكن الإنجليزية بالنسبة لي قرارا ولا اختيارا"³⁴⁷ ليفصح في هذا النص عن العلاقة القوية والغريبة التي تجمعها باللغة والتي تنطلق من ذاته لتشكّل هذه الذات.

وهذا ما يمنح اللغة سلطة على الأشخاص بما أنها تقرر مصيرهم، من خلال تقرير انتمائهم.

1- اللغة والسلطة والتاريخ:

تعد هذه العناصر ثلاثية مرتبطة على اختلافها، تتعلق بالإنسان وحركته في الزمان والمكان، إذ أن السلطة لا تكون إلاّ باللغة وعن طريق التاريخ، كما أن السلطة هي من تكتب التاريخ، فتسرده كما شاءت متواجدة في كل خطاب، منغمسة في التاريخ متجذرة في أعماقه، معززة به استمراريتها في المكان والزمان، وقد رسخت

³⁴⁶ عمر مهيبيل: البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص25

³⁴⁷ ويندي ليسير وآخرون: عبقرية اللغة، ترجمة: حمد شمري، دار أثر للنشر، ط1، 2019، ص 11

السرديات الكبرى للمنظور الغربي المهيمين فإرضة الحضارة الغربية كحقيقة مطلقة وهي تقدم تفسيراتها حول التاريخ محددة مسارا أحاديا قائما على مبدأ إرادة القوى التي تبنتها فلسفة نيتشه، وهي تمثل "جوهر الحياة، وعن طريقها يمكن تفسير كل مظاهر الوجود"³⁴⁸ القوة وحدها تحدد العلاقات كما أنها تمنح تفسير الظواهر خارج إطار العقل لتلغي فكرة أن يكون العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة، فيخضع التاريخ للقوة في تفسيره وكذا كتابته، فقد "أدرج فوكو السلطة كطرف أساسي في تحليله للخطابات الاجتماعية والمعرفية والفنية فلا معرفة دون أن تكون موضوعا للمراقبة والضبط وحتى الإقصاء، كما أن المعرفة أصبحت تملك سلطتها الخاصة، سواء من خلال إنتاج الحقيقة أو إقصائها"³⁴⁹ تلعب السلطة دورا أساسيا في تحريك المجتمع وإعطائه الدور المناط به. وقد قدم دولوز تعريف السلطة حسب مفهوم فوكو "مفهوم السلطة عند فوكو ليست شكلا، ولا حتى علاقة بين شكلين، إنما هي قوة، وموضوع هذه القوة ليس الجسد الخاضع ولا الموضوعات المعرفية، إنما هو القوة نفسها وهو الفرق الجوهرية بين السلطة والعنف"³⁵⁰ السلطة غايتها الاستحواذ والسيطرة، ووسيلتها في ذلك اللغة، مستخدمة العديد من الطرق المتلوية من بينها ثقافة الجمهور، وذلك من خلال ما يتلقاه هذا الأخير عن طريق وسائل الإعلام والاتصال الجماهيري، وكذا ما يتلقاه في المدرسة في مختلف النصوص، باستخدام أساليب مباشرة أو غير مباشرة، ضمنية سواء من خلال حديث على لسان الحيوانات، أو من خلال المتعددات الحوارية في النصوص المختلفة، أو غيرها وعلى اختلاف الطريقة والأسلوب، تبقى قصيدة النصوص هي ما يصنع ثقافة الجماهير المختلفة.

³⁴⁸بير عبد الوهاب المسيري، نيتشه فيلسوف العلمانية، ضمن كتاب: نيتشه وجذور ما بعد الحداثة تحرير: أحمد عبد الحليم عطية، منشورات الفارابي وت، ط2010، 01، ص178

³⁴⁹لونيس بن علي: إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، ميم للنشر، 2018 ص97
³⁵⁰ينظر: دولوز، المعرفة والسلطة (مدخل لقراءة فوكو)، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي بيروت والدار البيضاء، ط1987، ص01، ص77.

إذ يرى في ذلك لاكان أن مكانة اللغة تظهر في التطورات التي أحرزتها الدراسات اللغوية، حدد دوسوسير بكيفية دقيقة وعملية الوحدة اللغوية، فنجد وراء الكلمة البسيطة بنية لغوية هامة على الشكل الآتي: $\frac{S}{S}$ بحيث تدل (S) الكبيرة على الدال في حين تدل (s) الصغيرة على المدلول فتقرأ هكذا $\frac{\text{الدال}}{\text{المدلول}}$ وعلى هذه تعدد كالحاجز الذي يفصلهما عن بعضهما بعض.³⁵¹ ولذلك لكسر ذلك الحاجز الذي يجعل المدلول مخفياً وراء الدال، يجب تجاوز المعنى الظاهر للكلمات، حيث لا توجد نصوص بريئة دون غايات، لذلك وجب قراءة النصوص في تشكيلاتها الخطابية اللسانية وكذا الدلالية وتجاوز ذلك إلى ما لم يقل وظل عالقا بين السطور فحتى الصمت له الكثير ليقوله، لترتبط النصوص بالعالم الذي أنتجت فيه، أما التاريخ فلا يستغنى عن اللغة التي تنقل الماضي ليكون حاضراً، فتعتمد اللغة في ذلك على السرد، الذي يعمل على فهم الماضي كما يتحول بدوره إلى تاريخ فعلي لشعوب، فالإنسان وهو يمارس الحكيم في كثير من الأحيان يقع فريسة النسيان فيلجأ إلى إبداع حكايات تحل محل الحكاية الأصلية، وتصبح من خلال التداول، تاريخه الفعلي، بل وقد يتجاوز ذلك إلى أن تحل محله، يمتزج الخيال بالتاريخ. ما يحو الفواصل بين الوهم والحقيقة ليصير الوهم جزءاً من الحقيقة أو كلها وبذلك " فلا جدوى من انتقاد الظواهر الزائفة بما أنها كل ما نملك"³⁵² وقد اعتبر سارتر الشعوب البدائية شعوب بلا تاريخ، رابطاً التاريخ بتطور المجتمعات وكتابة حدها الإنساني من خلال السرد، فالتاريخ يكون الماهية الأساسية للإنسان، والذات توجد داخل التاريخ، ليكون الموروث الثقافي للمجتمعات، " فالإنسان هو الذي يصنع تاريخه، وصناعة التاريخ هذه هي مركز النشاط الذي يقوم به الإنسان."³⁵³

³⁵¹عمر مهييل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص23

³⁵²كريستوفر نوريس: نظرية لا نقدية ما بعد الحداثة، المثقفون وحرب الخليج، تر عابد إسماعيل، دار الكنوز الأدبية بيروت، ط01، 1999، ص 14

³⁵³عمر مهييل: البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص35

ولأن التاريخ لا يوجد في الطبيعة وإنما ينتج بقصديته، فهو ليس كائن حي وإنما مصطنع من صنع الإنسان لن يكون محايدا أبدا وإنما منحازا له أهدافه الخاصة، ليكتب الأقوى تاريخه دوما، فتكون الحقيقة به قطعة بلاغية بجبقة مقنعة "فإن قدرة الإنسان على إسباغ المعنى على الأشياء، جعلت كل معنى موضوعي هو ما يصادق عليه الإنسان، وبذلك تمّ استبدال الواقع بالوهم، ولكنه وهم مؤطر داخل منظومة مؤسساتية من المعارف والأفكار والمشاعر."³⁵⁴ ولو عدنا إلى الاستعمار الحديث لتبين ذلك دون عناء، إذ أن فرنسا من وضعت تاريخ الشعوب التي احتلتها وسخرت لذلك الكثير من الكتاب أمثال (بروسبير ميريمي Prosper Mérimée) و(جي دي موباسان Guy de Maupassant) وعلماء الأنثروبولوجيا وغيرهم، ممن سعوا جاهدين لترسيخ الاستعمار ودراسة الشعوب المستعمرة، ونسج الأقايص عن هذه المجتمعات ليسهل تطويعها لتقتنع هذه الأخيرة بضعفها وقلة حيلتها، فيصبح قدرا محتوما لا مفر منه، وعلى هذا النهج سارت مختلف القوى الاستعمارية والامبريالية في العالم كالولايات المتحدة الأمريكية، ضدّ الأقليات مثل استبعاد الزواج وإبادة الهنود الحمر، "و قد ساهمت النظرية الكولونيالية في تغيير مسار الأطروحات الغربية ونقد ما بعد البنيوية وذلك من خلال نقد الأسس المعرفية التي قامت عليها الثقافة الغربية، مساهمة في إنشاء مرحلة ما بعد الحداثة، من خلال تفكيك وإعادة قراءة الخطابات المنشأة لرده من الزمن، والتي كانت منتجة من المركزية الأوروبية، والاهتمام بمسألة الهوية وثقافة الاختلاف ونقد المركزية الغربية والدعوة إلى الاهتمام بالهامش فالخطاب الكولونيالي³⁵⁵ وما السلطة الذكورية إلا شكلا من أشكال الإمبريالية في العالم والتي سعت لترسيخ سلطتها بسن القوانين لصالحها، واستخدام السلطة الدينية كوسيلة لجعل مشيئة الله، أن تكون الأنثى مخلوقة لخدمة الذكر، لما لهذه السلطة من تأثير على البشرية، فرضحت الأنثى للقضاء المحتوم، حتى ستينيات القرن العشرين، حيث تتمرد على التمثلات الثقافية والاجتماعية

³⁵⁴ لونيس بن علي: إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، دار ميم للنشر، 2018م، ص 127

³⁵⁵ سارة بولكبيبات وآخرون، المجتمع الجزائري من خلال الكتابات الأنثروبولوجية، مركز المدار المعرفي للدراسات والأبحاث، مجلة مدارات

أنثروبولوجي ط 2021، 1، ص 104

التي كانت تسيّر وفقها دون حول أو قوة منها، لتخلق لنفسها نمطا خاصا من الكتابة السردية ، كنوع من المقاومة، والتي لا تقل أهمية عن المقاومة المسلحة لدى الشعوب المحتلة ليكون السرد سلاحها واللغة بارودها ، الذي واجهت به السلطة الذكورية.

هذه الثلاثية شكلت خطاب مليكة مقدم، في محاولة منها لتقويض الأسس التي فرضها الخطاب الذكوري

أين جعلت من بطلاتها السمرات يقرن حياتهن بعيد عن سلطة الرجل، يرسمن أقدارهن بإرادة مطلقة، بل تجاوز الأمر ذلك إلى تقرير مصير علاقاتهن العاطفية أين يتخلصن من عشاقهن الشقر، في كل مرة، لتظهر سلطة اللغة، من خلال تموقعها داخل ذات مقدم نفسها، من خلال مايلي:

2- علامات اللغة الأم في كتابات مليكة مقدم:

لا تحتفي اللغة الأم وتحل محلها لغة بديلة، بل تتوارى خلفها، لتهمس من حين إلى آخر، فتدل على وجودها بشكل أو آخر. وأنه لتتعرف عليها وجب أن تنصت أكثر، من خلال الإيحاءات اللغوية والتهجين اللغوي والتركيز على الزمان والمكان، مع جعل صوت المتكلم الصوت الأوحى في النص، بحث عن ذات ضائعة داخل اللغة البديلة، لن تكون يوما أماً طبيعية و بالعودة إلى نصوص مقدم أين يكتسي المكان والزمان الطابع الأساسي لكل نصوصها، حيث لا تنفك من الصحراء الجزائرية إلا لتكون بالبحر المتوسط، أو من الحديث عن الجزائر و طفولتها و مراهقتها و كهولتها من الجزائر إلى فرنسا، التي لم تصر في هذه الأخيرة أحسن حالا، فهي تعاني الأرق كما كانت دوما في القنادسة، بين فضاءين مختلفين أشد الاختلاف، تكتب مقدم كل نصوصها، في محاولة خلق فضاء بينهما، عودة إلى أرض مفقودة من خلال الكتابة.

أما عن صوت المتكلم الذي يسيطر على أغلب نصوصها والتي تعد سيرة ذاتية عن مراحل مختلفة من حياتها، لا بد من استخدام ضمير المتكلم والذي ينوب ويفكر عن بقية الأصوات، وتقول فرجينيا عن استخدامها ضمير "الأنا" "ليس إلا وسيلة سهلة وملائمة للإشارة إلى شخص ليس له كيان حقيقي، سوف تندفق الأكاذيب على لساني ولكنها أكاذيب مشوبة بالحقيقة".³⁵⁶ لارتباط الضمير أنا بما يريد الكاتب من الشخصية أن تعبر عنه، كذات لا كحقيقة، أي الذات المتكونة الموجودة بالفطرة وقد تختفي الكاتبة خلف هذا الضمير في محاولة للتلاعب بالآخر، فتعبر كأنها "هو"، والآخر هو ذلك الذي يختبئ داخلنا، لذلك وجب الإنصات أكثر إلى ما يرد هذا الآخر أن يقول، فمثلا في روايتها تحاول أن تصور نظرتها إلى العالم من خلال الطفلة دليلا، التي تنظر إلى الحياة بمواقف مقدم سواء من اللهجات وكذلك عن الحرية والدين والآخر، هذه الطفلة تختبر شقيقة غير موجودة في الواقع أسمها سامية تحدثها عن التمييز بين الأنثى والذكر وغيرها من القضايا التي سنتحدث عنها في الفصل اللاحق.

كما أن أغلب كتابات مقدم هي كتابات عن سيرتها وحياتها الممزقة بين بلد تسكنه وآخر يسكنها حيث يفتح المكان مع أوجاع الذاكرة. فالذات هي الكاتبة والمكتوبة عنها، وإن الحديث عن واقع حياة الكاتبة يعطي نصوصها طابعا خاصا فالقارئ يهتم بتشارك خصوصيات الآخرين والاطلاع على حياة لم يعيشها إلا من خلال نصوص غيره.

كما تربط اللغة بالإحياء لذلك تختار أسماء شخوصها بدقة من خلال الحدود التي تريد أن ترسمها لتلك الشخصيات، فنور في "ليلة السحلية" يخبرها ساسي "نور، ضوء ليلى"³⁵⁷ لتتير نور عتمة ساسي وليس الساسي فقط، بل القصر الذي تسكن فيه ليكون النور هو ما تحتاجه، الجزائر مع كل العنف التي تتعرض له في

³⁵⁶ فرجينيا وولف، غرفة خاصة بالمرء وحده، مرجع سابق، ص26

³⁵⁷ La nuit de la lézarde, p208

تلك المرحلة السوداء من حياة الجزائر والجزائريين ، والذي كان الليل يحمل معه كثيرا من العنف والألم والتقتيل، فتحاول أن تثير عتمة القلوب المريضة في تلك المرحلة والتي كانت سبب من أسباب لجوء مقدم للكتابة.

أما سلطنة مجاهد في نصها "المنوعة" تنصبها سلطنة في القصر ليتحدث النص عن المنوعات والمحرمات على المرأة الجزائرية وما تعيشه من اضطهاد ذكوري ومجتمعي تحكمه تقاليد لمجتمع أبوي، وتسيطر عليه قوى الظلام ممن نصبوا أنفسهم حراسا لنوايا(كما اسماهم وسيني الأعرج) ، لتتحدى في نصوصها السلطة الذكورية، فتحرق الطابوهات والمسكوت عنه وتتمرد عن أعراف المجتمع الجزائري في كتاباتها، ما أوقعها في لعنة القبيلة ، أو "الوقوع ضمن أدب الملعونين" حيث تم رفض ترجمة كتابها "رجالي" في الجزائر حينما عينت عاصمة لثقافة العربية، بل وقد تجاوز الأمر ذلك إلى تعرضها لتهديد بالقتل بسبب خوضها في الطابوهات المحرمة (من السياسة، إلى الدين، فالجنس)، حيث تم إحراق سيارتها، بعد إصدار روايتها الأولى ورواجها "الرجال السائرون" فهي المرأة الراضية لمختلف أشكال السلطة، والتقاليد والأعراف، ولقد تتمرد مقدم على المجتمع الأنثوي قبل الذكوري برفضها للأمومة، ثم تمردت على أساليب الكتاب الفنية وخصائصها فالغضب كان جامحا ليقرب موازين الكتابة شكلا ومضمونا ودون مراعاة لمشاعر اللغة حيث طوعتها لتقول من خلالها انه من الصعب أن تولد امرأة في مجتمع يحكمه، الرجال، متحررة من الجسد الأنثوي من خلال تعبيرها عن رغباتها الجسدية، ورفضها الأمومة بسبب علاقتها مع أمها .

فذاذ الإنسان موجودة داخل التاريخ حيث يمكن فصل هويته عما كان عليه وعما سيصير إليه باعتبار أنا التاريخ يبدأ من الحاضر عودة إلى الماضي لسيرورة دائمة، "إن نصوص الأدب هي التي تكتب حدّ الإنسان، بمعنى أنها موضوع انكشافه أمام نفسه وفي الوقت ذاته موضوع شهادته عن ذاته" .³⁵⁸

³⁵⁸ حسام نايل: حسام نايل: دروس التفكيك(الإنسان و العدمية في الأدب المعاصر)،التنوير للطبع والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2014، ص32 .

تستخدم مقدم وبكثرة تقنية الميتا كتابة أو الكتابة عن الكتابة التي عدت بالنسبة لها ضرورة لتعبير عن أوجاع بلدها بعد أن صار الموت يترصد الجميع، ليفتح ذاكرتها على معاناة هذا الشعب من ويلات الاستعمار، وكأما كتب على هؤلاء أن ينزفوا حتى الموت بين ماض أليم ومستقبل أشد ألماً.

فالكتابة بالنسبة لها ضرورة فرضها منفاها بعد تخلي عائلتها عنها، لتسرد حياتها، فالذاكرة تسكن اللغة حيث لم تترك أمامها مجالاً إلاّ البوح بين ما تريد أن تقول وما يجب عليها قوله، كمكاشفة الذات لذاتها بين الحضور والغياب لتعبر عن التحام جسدها مع الكلمات "أنا في الكتابة مثلما لو أنني على عتبة الإنسانية، أستطيع أن أعانق كل تنوعاته، وأحياناً أستطيع أن اهتز لارتعاشاتها الأكثر رقة"³⁵⁹ إن المناورة داخل بنية الاختلاف التي يكونها النص.

يمنح الآخر (الرجل) الغائب حال الإشارة إليه حضوراً مستمراً يمحو كل غياب "كي يتأتى لرجل واحد أن يكون الحب والعاشق والصديق والأخ والأب والأم والابن قبيلة كاملة لوحده؟ لقد كان جون لويس كل هذا خلال سبعة عشر سنة أحسن يتيمة وهو الرجل المتعدد أعد نفسي أن لا أذهب إلى مثل هذه التبعية، وألا أخفي أبداً كل هذه النقائص عبر حضور واحد"³⁶⁰ غير أن هذه التبعية إقرار بوجود كيان منفصل ومستقل بذاتها فهي التي اعتادت أن تقف وحيدة في أصعب المواقف لتبني عالمها الخاص داخل اللغة.

تمارس الطب كما تمارس الكتابة فكلاهما يرتبط بالموت والحياة، ليكون بينهما خيط رفيع يجعل من كليهما بداية حياة حيث يكتمل حد الإنسان معتمدة مصطلحاتها من واقع عملها كطبيبة تعبير عن ألم الفقدان بأحد الأعضاء فتقول "أنا مازلت تحت وقع التخدير عُنْف هذا اليقين، كما لو أنني في حالة من تعرض لبر ما

³⁵⁹مليكة مقدم: المتمرتدة ترجمة: المركز الثقافي العربي، ص65

³⁶⁰المرجع السابق: ص 17

ساعة استيقاظه من العملية، حيث يكون الألم مازال غائبا، سيأتي الألم حين سيستجد الغياب بكامل الوعي بالبتز³⁶¹ فيرتبط الألم بالوعي به كحقيقة.

3- اللغة وتشكل المعنى:

تم الفصل في العلاقة بين اللغة و المعنى من خلال ما قدمته البنيوية من دي سويسر إلى لاكان، وكذا في ارتباطات اللغة بالإيحاءات خرج المنطوق من علامات تعطي معنى للغة ولا تكتمل إلى من خلاله، فاللغة تعد قاصرة في حالة الإمكان، أو بعبارة أصح أنها تصير قاصرة إذا ما توقفت عند حدود المعنى الحرفي للكلمة، فاللغة أوسع من ذلك، تكون أكثر قوة خارج معناها الحرفي كما يقول في ذلك لاكان "لماذا تأثير اللغة أكبر ما يكون حين تقول شيئا، من خلال قول شيء آخر".³⁶²

لطالما كانت ممارسة اللغة فطرية دون الحاجة إلى معرفة خباياها وأسرارها ولأن اللغة مرتبطة بالإنسان مانحة له إنسانيته صار من الضروري إعطاؤها الأولوية، وأنه بعد قرن من ظهور العلم الذي يختص باللغة مع دي سويسر لم يتوقف البحث في خباياها وصبر غورها، غير أنه وجب إعادة صياغة العلاقات اللغوية لا من منظور العلوم الطبيعية والتجريبية والبحث في الأجزاء الدقيقة لها، وإنما في نظامها الكلي بعيدا عن الدوغماتية، والمركزية سواء الغربية أو الذكورية، فالإنسان حينما يأتي للعالم يجد اللغة، فيدخل داخل نظامها، ليصبح جزء من ذلك النظام، ليحول من كائن بيولوجي إلى آخر اجتماعي بحسب "لاكان" غير أن أهم أفكار "لاكان" هو أنه كسر الارتباط الذي كان يؤكد عليه الآخرون بين الدال والمدلول. فبحسب رأيه، لا يوجد تطابق كلي بين الدال والمدلول. فالدال يعمل بطريقة مستقلة عن المدلول، وهو متحرر من المدلول مرادا إلا أنهما ليس وجهان لعملة

³⁶¹المرجع السابق: ص 9

³⁶²جاك لاكان، التحليل النفسي ص 131

واحدة، وهو ما دفعه إلى القول بوجود شبكة من العلاقات بينهما، لأن الدال متعدد المعنى و عليه ابتكر مفهوم السلسلة الدلالية، وان الحديث عن الطبيعة الاجتماعية للغة، يفرض علينا البحث عن إمكاناتها التواصلية،

إن اللغة تعيد إنتاج الواقع بل تمكن الفرد من معرفة العالم والذات والآخر، هيمن الرمز على الإنسان . فالإنسان يأتي الى هذا العالم ويجد أمامه اللغة و يدخل الى هذا النظام ويصبح خاضعا له . والخضوع هو الذي يحوله من كائن بيولوجي إلى فرد في المجتمع .

ما قد ينشأ علاقة سوية قد ينشئ علاقة غير سوية بينهما، قد تؤدي في بعض الحالات إلا سوء الفهم، أو عدمه في أحيان أخرى. يرى في ذلك الفيلسوف النمساوي- الإنجليزي فيتجنشتاين (Ludwig Wittgenstein) "إن الفلسفة تنشأ عن إساءة استخدام اللغة وتنشأ المشاكل الفلسفية حينما تكون اللغة في عطل"³⁶³ ذلك الاستخدام الذي حدده في لعبة اللغة ولننطلق أساسا في تحليل نصوص مقدم من المنظور النفسي للغة حيث تنطلق أساسا من الضمائر المستخدمة في بعض نصوصها للوصول إلى الإحالات المقصودة.

ففي روايتها "أدين بكل شيء للنسيان" تستخدم ملكة كلمة "la mère" في حديثها عن والدتها وهنا الاستخدام يكون عام غير محدد تلغى فيه صيغة الملكية التي تكون باللغة الفرنسية «Ma»، وكأنها لا تريد الاعتراف بهذا الانتماء وهذه التبعية، غير أنّها وبعد وفات والدتها تغير «la» بـ «ma» أي بين الأم، وأمي تكمن لعبة مقدم بالكلمات، تصر سلمى لإيجاد مكان في الطائرة الذهابية إلى وهران لحضور جنازة والدتها: «madame ,ma mère»³⁶⁴ وكأنّها تذكر يتمها فجأة، وحاجتها لهذه الأم التي تصبح فجأة أمها، كما توظف مقدم تطابق بين الكلمتين في البحر "la mère" والأم "" la mère" لتستخدم الواحدة بدل الأخرى من أجل أن تشوش قارئها، فتقول في رواية "نزيد" حينما يسأل "لويس" نورا، حول رغبتها في الذهاب

³⁶³المرجع السابق، ص 132

³⁶⁴ Malika mokaddem, je dois tout a ton oubli, p145

إلى الجزائر، تقول *j'ai une autre mère à traverser*³⁶⁵. " وهنا تقصد مقدم ذلك العبور وتجاوز، الحواجز الموجودة بينها وبين والدتها فاستخدام *la mère* « هنا لا تحيل إلى البحر بل إلى الأم التي تعود إليها من خلال سلمى في روايتها أدين بكل شيء لنسيان، كما أن ملكة استخدمت رمزية البحر، تحث عن عمق الاختلاف الموجود بينها وبين والدتها.

إذ (حدد فرويد قواعد الاستطراد التي تحكم بنيت الطعن في الذات الملكية، وكيف يمكن لمن يعاني من الأفكار الاستحواذية أن يمتص أولاً ضمير المخاطب **"you"** انت للأني العليا العقابية في صيغة محايدة، إذ قال أي شخص إذ ومن تم في نفسه **"his self"** بحيث أن تعطي الإشارات إلى ضمير المتكلم "وياء المتكلم": الوظائف التي يؤديها عادة" ضمير المخاطب" العقابي الذي يخاطبه الضمير **conscience** "الوعي")³⁶⁶ ذلك لتفسير الأفكار الاستحواذية المختفية وراء استخدامات الضمائر، والإيضاح الإنكار في الكلام غير المباشر، وذلك لصعوبة سبر أغوارها لاختفائها في المناطق الأكثر ظلمة، في منطقة اللاشعور. وتأتي هذه المنطقة على حالات الوعي فتتنظر كريستيفا إلى الهوية" كشكيلة متداخلة بين القوى النفسية والتنظيمات الاجتماعية، لخلق نوع من التآرجح بين صفتين تبقى خلالهما الهوية في سيرورة متواصلة بين التفاعل الحواري بين اللاشعور والأشكال الاجتماعية على أساس توافقي يجعل المعنى قابل لتشارك، غير أن توليده يظل غير ثابت"³⁶⁷ فالهوية عند كريستيفا متعددة من حيث توالد المعاني وثابت في العلاقة التي تربط بين الشعور واللاشعور و اشتراكهما بحاجة المجتمع ومتطلباته، حيث أن الهوية الشخصية لا تتناقض مع الهوية القومية إلا من حيث الفوارق الأساسية التي تمنح مثلا المرأة ميزة لا يملكها الرجل ألا وهي الأمومة، ومن هذه العلاقة تتكون المعاني اللغوية المتعددة، لتحاول مقدم إيجاد علاقة تربط بين الشعور واللاشعور من خلال بحثها عن مجتمع آخر تترن فيه العلاقة حيث لا تتأرجح كفة عن

³⁶⁵ Malika.mokaddem. n'zid, p214

³⁶⁶ المرجع السابق، ص، 134

³⁶⁷ محمد بكأي: جدل النسوية فصول نقدية في إزاحة الدوغماتيات الأبوية، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، دار الأمان، الجزائر، بيروت، الرباط، ط، 2019، 1، ص226

أخرى، وهذا المجتمع ليس المجتمع الفرنسي، بل هو مجتمع تخلقه من الكتابة لترد به مليكة مقدم، خطابات مضادة للسلطة الذكورية التي ألغت وجود المرأة وضيقه حدود إمكاناتها لتجعل منها صوت يعبر عن قلق المرأة في المجتمع الرجالي، يكون السرد شكل من أشكال اللغة التعبير عن الذات ووسيلة للكينونة حيث يفرض السرد سلطته في محاولة بناء تاريخ جديد مشترك بين الأفراد، في محاولة زعزعة الأطر التي تأسست منها السلطة الذكورية لعقود مضت والتي انطلقت في الفلسفة بإعلاء الخطاب العقلاني الذي أراد أفلاطون من الفلاسفة اعتلاء حكم مدينته الفاضلة، من خلال فصل الجسد عن الروح وإعلاء صرح الروح وجعلها أساس الحياة، فتعطي مقدم للجسد أهمية وجعله مصدرا للهوية حينما تعجز الروح عن القيام بالمهام الموكلة لها وهذا ما سنوضحه لاحقا.

ثالثا: التهجين اللغوي والثقافي في كتابات مليكة مقدم

تعتبر اللغة عن هوية الشعوب، وكيفية استيعابهم لأنفسهم، وللحياة من حولهم، ولأن الشعوب التي عانت من الاحتلال تعرضت للانتهاك في خصوصيتها الثقافية، فقد سعى الاستعمار جاهدا للقضاء على هوية الشعوب اللغوية والدينية والثقافية، قد قامت فرنسا مثلا بإعلانها للغة الفرنسية كلغة رسمية، وحيدة للجزائر والجزائريين، جعلت من اللغة العربية لغة أجنبية، ما جعل أصحاب الأرض لا يملكون لغتهم، هذه العلاقة غير الطبيعية مع اللغة، أنشأت أزمة اللغة، التي جعلت من مالك حداد يصرخ بأن في لسانه عقدة، هو الذي شغل النقاد في فرنسا بفضل لغته الفرنسية الشاعرية، أزمة اللغة كانت أزمة هوية، فالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية يعاني تشكيك في انتمائه وهويته، ليقاسم السرد هموم سارديه، يقول جان بيرك: "اللغة لا تصلح لتواصل، بل تصلح للوجود"³⁶⁸ ليؤكد على وظيفتها الأساسية المتمثلة في فرض الوجود، فهو وسيلة من وسائله، هذا الفرض يكون بالقوة، لا اختيارا لأن اللغة هي التي تفرض هذا الوجود على الأفراد وليس العكس.

ليكون الفكر حاملا للغة لا منتجا لها، فهي من تسمح له بالتعرف على ذاته، والتميز من خلالها، وحتى مع قدرة العقل لاستيعاب العديد من اللغات فهو غير قادر، على إنتاج العديد من اللغات، وهو ما يفسر عدم قدرة كل من كاتب ياسين ومالك حداد، على تطويع اللغة العربية كما فعلوا باللغة الفرنسية، ومع وجود كتاب استخدموا اللغتين مثل: رشيد بوجدر و واسين الأعرج، إلا أن هذه الازدواجية، ترجح كفة على أخرى، ليصرح محمد مولسهول عن عدم قدرته على الكتابة باللغة العربية، بالرغم من أنه من أبناء الاستقلال والمدرسة المعربة.

نذهب إلى أبعد من ذلك أين يصرح لوك سانتا في كتابه عبقرية اللغة: "إنها هويتي السرية التي لا يمكن حتى لأصدقائي اقتحامها"³⁶⁹ فيجعل من اللغة هوية له، ولتماهيه فيها، إنهما عصية على الاختراق، حتى من طرف

³⁶⁸ جليبير غرانغيوم: اللغة والسلطة والمجتمع العربي، تر: محمد السليم، الفارابي للنشر، ط1، المغرب، 1995، ص33

³⁶⁹ ويندي ليسيير وآخرون: عبقرية اللغة، ترجمة: حمد شمري، دار أثر للنشر، ط1، 2019، ص15

أقرب الناس هذه العلاقة الطبيعية مع اللغة والتي تحدثنا عنها سابق في الهوية اللغوية جعلت المساس بها، يحدث اضطراب وظيفي لدى فكر الإنسان، فمشال دوسيرطو يقول: "التكلم بلغة واحدة يحيل على أفق وحيد للهوية، كما يفضي إلى استقلال أكبر لذات التي تكفل الميل إلى التماهي مع لغة واحدة"³⁷⁰، إذا لا بدليل عن اللغة الواحدة.

ما يفسر خضوع الكتاب الجزائريين لغنيمة الحرب تلك، غير أن الوسيلة الوحيدة التي أعلن من خلالها هؤلاء انتمائهم خارج حدود اللغة إلى بلد، لم تكن الفرنسية إلا لسان له، ذلك باعتمادهم تقنية التهجين اللغوي، وإن كان عفوي نتاج لصراع لغوي قائم، غير أنه مقصود في أغلب الأحوال لأنه يشمل ألفاظا دون أخرى.

1- ازدواجية اللغة عند مليكة مقدم:

تعتمد مليكة مقدم في كتاباتها التهجين (peregrinism) التي تعبر من خلاله على ازدواجية اللغة لديها لتؤكد على تشكيل هويتها وثقافتها من هذا المزيج بين اللغة العربية واللغة الفرنسية في كل روايتها ما يصبغ نصها بطابع متفرد تتحدى فيه الأساليب القديمة في الكتابة حيث تمزج اللغات والثقافات.

لتخلق لغة خاصة بنصوصها تجمع بين الجنوب والشمال،" يتخلل موضوع التهجين كما حددته فرانسواز ليونيت كتابات مقدم: يتحدى التهجين تفرد الفلسفة الغربية ووضوحها ويعبر عن النسيج بين مختلف اللغات والثقافات والأعراق والجنس المرتبط بالتضامن الذي يصبح المبدأ الأساسي"³⁷¹. في محاولتها لجمع لغتين جمعتهما التاريخ وفرقت بينهما الجغرافية. ترفض مقدم وضع حدود حتى في مجال اللغة، أين تجمع تعدد لسانها في لغة واحدة خاصة بها، تعبر عن هويتها الخاصة، وتعتبر ازدواجيتها ميزة خاصة، لا يمتلكها الجميع رغم رؤية البعض لهذه الازدواجية على أنها انشطار في الذات، وهو ما يجعل اعتبار مقدم من اختارت اللغة الفرنسية لتقاوم من

³⁷⁰ جليبر غرانغيوم: المرجع السابق، ص31

³⁷¹ yolande aline helm:malika mookaddem enver et contre tout .p10

خلالها توجسها ومقاومتها، لمختلف أشكال الرفض التي عانت منه سواء بسبب كونها أنثى في مجتمع رجالي أو كونها إفريقية في مجتمع أوروبي.

التهجين هو "حالة من ضياع المعنى الصافي في النصوص، إن تلاقح النصوص يخلق نصوص جديدة تجسد فكرة أن الإنسان متعدد الأبعاد والأوجه." ³⁷² هذه السمة الإنسانية تجعل التهجين، وسيلة التواجد داخل الآخر، فاللهجة الجزائرية مغمورة بالمصطلحات الفرنسية التي صارت تستهلك دون البحث عن مصدرها أو أصلها، وهذا ما يجعل انتهاك الثقافات الأخرى، ينطلق من اللغة لتسافر الكلمات مثلما تفعل الأفكار لتثري الثقافة الأخرى

لذلك يعد من الصعب فهم نصوص مقدم دون الاستعانة بقرائن علماء المستوى اللغوي والثقافي حيث تلتقي اللغة الفرنسية مع العربية، وكذلك القصص الشفهية للبدو والرحل والأساطير القديمة مع الأساليب الحديثة من دمج الكتابة مع الفن، حيث تعبرُ مقدم لغة الآخر باستخدام ثقافتها العربية وإرثها الشفوي، هذه اللغة التي حارب الاستعمار وجودها لقرن ونصف من الزمن، هي الآن موجودة جنباً إلى جنب مع لغته، تستهوي القراء الفرنسيين وتظللهم.

سنعرض هنا بعض هذه المصطلحات المهجنة، بين اللغة العربية والدارجة الجزائرية و اعتماداً على رواياتها، التي لم يتم ترجمتها ذلك ونقلها كما هي، مع اعتماد ترجمتنا الخاصة.

لنتبع خطوات تهجين مليكة مقدم لنصوص، فالهجنة عندها لم تتوقف عند اللغة .

2- تهجين الأجناس الأدبية:

فقد عمدت على تهجين الأجناس الأدبية التي تعتمدها في نصوصها، حيث تطعم نصوصها بضمير المخاطب وكذلك المتكلم، ما يقودنا إلى أنها تكتب سيرتها، خاصة عندما تتقاطع الشخصيات في مختلف روايتها، غير أنها

³⁷² وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة، مرجع سابق، ص38

تكتب على الغلاف مصطلح الرواية كنوع من التظليل، وكيفما كانت الطريقة أو الأسلوب فهي تروي ذاتها، تمزج لغتها أين تعتمد الشعر في مستوى لغتها تخلط بين النص النثر والنص الشعر هذا المزيج هو المكون للغة مقدم، فلا هي شعر ولا هي نثر، دمج بين الرومانسية والعنف في كثير من المقاطع :

« Baba, parfois une terrible envie de violence hurle dans mon silence. Sa stridence brule mes entrailles, brutalise mes pensées Elle dresse mes écrits en diatribes...»³⁷³

ترجمتها: « بابا، أحيانا تعوي في صمتي رغبة رهيبية في العنف صراعاته تحرق أحشائي، وتعامل أفكارى بوحشية، إنها تضع كتاباتي في الخطابات اللاذعة، في الكتيبات مناجاة للكلام، » .

3- التهجين الثقافي عند مليكة مقدم:

روايات مقدم متعددة الثقافات ومتعددة اللغات وكذا متعدد الديانات، فهي نصوص هجينة على مستوى اللفظ، والمحتوى الثقافي، كما تبحث عن روابط مشتركة، تجمع من خلالها العالم في لحمه واحدة، تخرج مقدم نصها "فرن الجراد" على طريقة كاتب ياسين، "نجمة" والدة ياسمين هذا التقاطع الصوتي في هذا الطباق لم يكن من باب الصدفة فمقدم تقول أن "نجمة" (ياسين) هي نفسها نجمة ياسمين "الأم" التي تقودنا إلى البلد "الوطن الأم" غير أن ياسمين تملك أم روحية أخرى تذكر صراحة، وهي: « إيزابيل إيبهارت » تظهر كنجمة في سماء النساء في الصحراء والتي تتجلى بوضوح في شخصية ياسمين نفسها، أين يحاول والدها أن يجعلها تقتدي بها وتسير على خطاها: « وهكذا عندما يكون محمود وابنته في عين الصفراء، تصر ياسمين على الذهاب إلى قبر هذه الرومية غير العادية التي

³⁷³ La Nuit de la lézarde ,p256

تحدث عنها والدها عدة مرات، على أمل أن يشجع هذا المثال ابنته على تعلم الكتابة، في الواقع لا تستغرق الفتاة وقتاً طويلاً لتتبع خطاها»³⁷⁴

تلك الرومية على قول مليكة مقدم: "إيزابيل إبيرهارة" " هذا الشبح لامرأة تسكن ليالي الصحراء، متخفية في مظهر رجل وتبذل قصارى جهودها لتضليل الرّحل والمسافرين السّاذجين "375 والتي أصبحت أسطورة تحكى للأطفال بعنوان "طارغو" targou " .

وحدثنا عن هذا النوع من التعدد الثقافي ليس لاستخراج التناص، وإنما للبحث عن أساليب التهجين في كتابات مليكة مقدم .

4- التهجين اللغوي:

تقوم مليكة مقدم بتهجين اللغة العربية مع الفرنسية مع الدارجة ولغات أخرى وهو ما يميز كتاباتها وهذا ما يظهر على مستوى مختلف رواياتها كما سنوضحه في الجداول التالية:

³⁷⁴ ibid, p158

³⁷⁵ مليكة مقدم، المتمردة، مرجع سابق، ص97

الجدول رقم : (1) (رواية قرن الجراد) (LE SIECLE DES SAUTERELLES)

الرواية ورقم الصفحة .	ما يقابلها باللغة العربية	الكلمة المحجينة "باللغة الفرنسية
P281	الكراس	Koras
P281	في سبيل الله	Fi sabilallahe
P281	الشريعة	Chari'a
P281	المشرق	El macheq
P281	المغرب	El Maghreb
281p	مجنون	Majnoun
281p	رباعيات عمر الخيام	Rouba'yat deomarKhayyam
p-10	الخيمة	Kheima
p-10	الريح	EL-RIH
258p	كانون ، طاجين، قصعة	Kanoun, tadjine ,gusssa'a
256p	منديل ، فوطه، جلابة	Mandil, fouta, djellaba
P256	يا سيدي	Ya sidi
P149	بارود	Baroud
P256	بابا، أمي	Baba ,oummi
256p	الرومية	La roumia

حيث تحمل هذه الرواية كلمات هجينة، يظهر من خلالها تعلق مقدم بوطنها، و لا سيما بثقافتها الصحراوية البدوية، التي تؤسس لها من خلال الكلمات، والثقافة الجزائرية والعربية، التي تزوج بينهما، والتي تؤكد على وجودها دوما داخلها رغم سنوات المنفى والانفصال.

تفتح مقدم الصحراء الجزائرية على العالم، لتصور هذه المنطقة المخفية، فتظهر في كل نصوصها تعلقها بـ "براغ" كتيب طفولتها، لتشهر بدويتها، وأنه لقراءة نصوص مليكة مقدم وجب التعرف على أصلها البدوي، الذي يعد المكون الأساسي لكل نصوصها، غير أن مقدم تستعين بالتهميش من الحين للآخر لتشرح هذه الألفاظ، فهي لا تريد عزل نصها عن القارئ بل تريد لغتها بمختلف تقاليدتها أن تحترق هذا القارئ، وكأن الشحنة العاطفية والدلالية لهذه المصطلحات لا يمكن أن تكون إلا من خلال اللغة الأم.

جدول رقم(2):

الرواية ورقم الصفحة .	ما يقابلها باللغة العربية	الكلمة المحجينة "باللغة الفرنسية
La Nuit de la lézarde p 111	سميشة تصغير لـ "شمس"	Smicha
La Nuit de la lézarde p19	القصر	Du kasr
La Nuit de la lézarde p201	القصورين، أي سكان القصر	Des ksouriens

تصرح مقدم باستخدامها لغة البدو وذلك من خلال حوار بين نور وساسي «عندما رحل الجميع، قلت لنفسي ، سنبقى وحيدين في القصر، سنذهب أبعد منهم، حيث سنجد أخيرا بعض السلام.

- بعيدا إلى أين؟ (يسأل ساسي)

- ليس في اتجاه (pas dans , vers) (يختار ساسي في فهمها ويسألها)

- بأي لغة تتحدثين؟

- بلغة الرجل (البدو).»³⁷⁶

تجعل من البدو الرجل لغة خاصة بهم في نصوصها، لتساعد القارئ على فهم الفضاء الحقيقي والمجازي في الرواية، بين ارتباطها بالأرض والعودة في كل حين ، أين يسكن الترحال أعماق مقدم، والذي تجعل منه لغة في حد ذاته.

تحاول من خلال المهجنة تقبل الاختلاف الثقافي الموجود بين المجتمعات التي تجمع بينهم الإنسانية لتحاول في روايتها "نزيد" والتي تحمل عنوان من اللهجة الجزائرية التي تقابله في اللغة العربية كلمة "أزيد" أو "أضيف" وفي الكلمة الفرنسية "je continue" ou « je nais » ، فقد اختارت أن تضع عنوانها باللهجة الجزائرية «n'zide» بالحروف الفرنسية رغم كتابتها باللغة الفرنسية، وكلمة زيد تقال لتشجيع وبث الحماس على مواصلة الغناء، أو تعني الولادة تهيمن فكرة "نزيد" في الفضاء النص بطريقة مكثفة ومتواصلة غير أنه يشمل جانبين أساسيين: ولادة نورا من جديد من خلال عودة الذاكرة وتصالحا معها، بعد أن ماتت نور في رواية (ليلة السحلية)، فقد ولدتها من جديد، والجانب الثاني المرتبط بالموسيقى والآخر المتمثل في حبسها المفقود "جميل" .

وعدت أن تنشر ألبومه ليولد من جديد هو الآخر من خلال الفن، لذلك تستخدم هذه الكلمة باستمرار "يستمر سي صالح في طرحها على جميل حتى نهاية أيامه، وكان جميل دائما يقبل بقوله: نزيد هكذا؟"³⁷⁷ فتكرار مصطلح نزيد يعطي النص بعدا حماسيا، وبرغم من فقدان نورا لذاكرة فإن صوت الأمواج يصاحب عزف العود "أين تجد نورا نفسها تطلب منه أن لا يتوقف "زيد"، إذ أن حاجة نورا لتلك الموسيقى التي تعمل مع الرسم على إعادة ذاكرتها ، بل إحيائها ، كمن يولد من جديد، واعتماد هذا العنوان كنوع من التهجين والاعتراف الضمني بشخصيتها المهجنة، غير أنها تتجاوز أيضا جمع ثقافتين مختلفتين إلى جمع ثقافات مختلفة في نص واحد .

³⁷⁶Malika mokaddem, La Nuit de la lézarde p201,

³⁷⁷ Malika Mokeddem: N'zid. Le Seuil.paris.2001.p203

« ينشأ البحر تعويذته ، إنها شهوانيتها لتعلقها بأكثر الشواطئ حميمية ، تعويذتها عندما تحجل أعين المشاهدين ، إنها شريكته عندما تندحرج وتدير وتحضن، في نفس المعانقة اليونان وتركيا، إسرائيل وفلسطين ولبنان وفرنسا والجزائر...»³⁷⁸ كتابات مقدم متسامحة لا ترفض ثقافة الآخر المختلفة بل تتعايش معها، وتعترف بوجودها في ذاتها، وهذا ما تعمل عليه في مختلف نصوصها.

فهمس اللغة الأم في نصوص مقدم ، يجعل من هذه النصوص بالرغم من أنها كتبت باللغة الفرنسية غير أنها تحمل هوية مليكة مقدم ، بكل تفاصيلها البدوية كواحدة من البدو الرحل، الذين يواجهون الذاكرة، بسرد قصصهم الشفوية، وبين الكتابة والشفوية تتميز كتابات مليكة مقدم، حيث أن كلمة "نزيد" جعلتها تتعرف على هويتها وعلى حبها لهذه الهوية، من خلال حبها وإعجابها الشديد بهذه الكلمة التي عرفت من خلالها أنها لم توجد من العدم، حيث سنستخدم نصها باللغة الفرنسية لكي يصل المعنى دون، أن تقف الترجمة عائقا بين النص وقارئه

« Elle aime la sonorité de ce mot, N'zid. Elle aime l'ambivalence qui l'inscrit entre commencement et poursuite. Elle aime cette dissonance, essence même de son identité. N'zid, elle aime la voix qui la reconnaît de cette langue, elle qui croyait que son physique n'était de nulle part. »³⁷⁹.

الترجمة: « إنها تحب صوت تلك الكلمة "نزيد"، إنها تحب التناقض الذي تعبر عنه، بين أعد وواصل، تحب هذا التنافر، وهو جوهر هويتها، نزيد تحب صوت الذي تتعرف عليه من هذه اللغة، هي التي اعتقدت أن جسدها كان من العدم.» تربطين هذه اللغة وهويتها الهجينة، والتي تتعرف من خلالها على وجودها كحقيقة، لتعبر عن انتماءها من خلال هذه اللغة، فتتماهى فيها لتتكون من خلالها، استخدام مقدم لهذه الكلمة، كان لأجل إثبات ما تحدثت عنه في هذا النص عن حقيقة إعجابها بهويتها، وأنها لا ترفضها من خلال استخدامها للكلمات

³⁷⁸ibid.p36

³⁷⁹ibid.p. p. 160-161

الفرنسية ، فهي تطالب من خلالها بأحقيتها في هويتها العربية، لتجيب هذه الكلمة عن حيرتها في بداية النص حول انتمائها.

في ضرورة تقبل القارئ لهذه المهجاة على مستوى اللفظ والمعنى لأنها تشكل مقدم، لأن الاضطراب الذي تعانيه الكاتبة على مستوى استخدام لغة ليست لغتها يؤدي إلى الكتابة لجمهور ليس جمهورها، وبالتالي إضافة الكلمات باللغة العربية والدارجة الجزائرية يعني أن لها جمهور آخر خارج اللغة الفرنسية، بالنصوص مثل كتابتها في حاجة إلى هوية وانتماء، والتي من خلالهما يكون تلقي العمل الأدبي، وعلى أساسها يكون رجوع الصدى في النص "أي التأويل". ليظهر فضاء ما بعد الحداثة في نصوصها أو كما أسماه هومي بابا بالفضاء الثالث، فضاء المهجنة، الذي يظهر في كل نصوصها.

جدول رقم(3):

الكلمة المهجنة "باللغة الفرنسية	ما يقابلها باللغة العربية	الرواية ورقم الصفحة .
N'zid	نزيد	p30
Ghoula,Ghoula	غولة ،غولة	p50
Hagitec-magitec	حاجيتك ما جيتك	P50
DJaha	جحا	102p
Barka	بركي (كفى)	P102
Elhamedoullhe	الحمد لله	102p
Boussa	بوسة (قبلة)	P103
Mahboula	مهولة (مجنونة)	P103
Hbibtintati	حببتي انتي	P103
Masquina	مسكين	P103
Aine	عين	P171

تعج رواية الممنوعة بالكلمات المهجينة ككل روايات مقدم بين مصطلحات عربية وأخرى بالدارجة الجزائرية، لكنها تختار دائما الكلمات التي تعبر عن ثقافة المجتمع والتي من خلال توظيف هذه الكلمات دون غيرها تود أن تؤكد على ثقافتها وانتمائها، حيث تشرح هذه المصطلحات في الهامش. فمثلا: نجدتها تتحدث في نص (الممنوعة) عن الصدقة التي قام بها خالد لروح زميله رغم أنه كان يعلم أنه ملحد (ياسين) إلا أنه لم يتخلى عن هذا التقليد الجزائر من إطعام الفقراء على روح الميت، وكذا من التصدق على روحه في المقبرة. وهذه الفقرة تحمل عديد الكلمات المهجنة يقول صالح لسلطانة:

« Oui, nous sommes allés au souk ensemble, puis au cimetière pour La sadaka quand il a su que tu étais tabib, toi aussi, khaled suggéré que tu pourrais occuper le poste de yacine pour les dépanner.»³⁸⁰

الترجمة: «نعم، ذهبنا معاً إلى السوق ثم إلى المقبرة لتصدق على الفقراء... حينما عرفت بأنك طبيبة أنت أيضاً، اقترح خالد أن تأخذي مكان ياسين مؤقتاً.»

غير أنها في الهامش تشرح فقط كلمة صدقة وذلك لأنها استخدمت بقية الكلمات سابقاً.

تنطلق مقدم من خلال حوار بين الطفلة "دليلة" مع الطبيبة "سلطانة مجاهد" حول قضية أزمة اللغة في الجزائر «سألته دليلة قائلة: قولي لي أولاً لماذا لغة المدرسة تختلف عن اللغة التي نتحدث بها في البيت وفي الشارع؟ ترد عليها "سلطانة": لأن رجال الدولة الذين حكموا الجزائر منذ الاستقلال قالوا بأنها ليست لغة بل لهجة إن والدي لا يفهمان كل ما يقال في الإذاعة والتلفزيون، ينبغي أن نشرح لهما كل شيء... إن المشكلة تكمن هنا.»³⁸¹ لم تكن هذه الأزمة إلى نتيجة حتمية إلغاء اعتماد اللغة العربية قرن ونصف من الزمن، لتخلق كلمات

³⁸⁰ Malika mokeddem: l'interdite, editions grasset et fasquelle, paris,1993,p80

³⁸¹مليكة مقدم، الممنوعة، مرجع سابق، ص 95

هجينّة لا هي عربية ولا هي فرنسية مزيج بينهم، تعتمدهما مقدم في نصوصها، لأنها تعبر عن ثقافة وعادات هذا الشعب، وتعبر عن ذلك في قولها في نفس النص: « بعد الاستقلال، قرر المسؤولون أن اثنتين من اللغات الجزائرية: العربية والبربرية هما غير جديرتين بالساحة الرسميّة: رغم أن مقاومتها للغزوات المتعددة خلال قرون تشهد بحيويتها، وكان على الدولة الجزائرية الفتية أن تُرسمها، للأسف لم يحدث هذا أما لغة البلد الثالثة الفرنسية: أصبحت لغة البياعين وأعاون الاستعمار». 382

تقاوم اللغة ضد الاستعمار هي الأخرى، غير أن اللهجة في حد ذاتها هي نتاج هذه المقاومة، وأن لكل بلد لهجة ما غير أنا هذه اللهجة لا يمكن أن ترقى للرسمية بسبب أنّها شفوية غير مكتوبة، لا يمكن أن ترقى إلى أن تكون لغة علم، لأنها لم تحظى بالرسمية، لذلك من الصّعب ترسيمها وهي لغة هجينّة، بين العديد من الثقافات التي مرت بالجزائر، فحتى اللغة تتزواج وتتناسل، لتعطي نسيج لغوي جديد، غير أن الدارجة الجزائرية غنية جدا ومتنوعة، تختلف معاني بعض الكلمات من مكان لآخر فهي ليست واحدة في كل البلد، وهذا أيضا كان سببا في عزلها عن تمثيل الجزائر على الساحة الرسمية، أما استخدام اللغة الفرنسية فقد ظل في مناطق دون أخرى.

فاللغة ليست حاملا بريء ولا حياديا، فهي تحمل من الإيديولوجيا ما تحمله شعوبها، لذلك نظر إليها في كثير من المناطق في الجزائر على أنها خاصة بالمستعمر، و استخدامها خيانة لشهداء، غير أن هذه اللغة كانت اللغة الثانية في الجزائر لرده من الزمن حتى تم ترسيم اللغة الأمازيغية والتي تعتمد هذه الأخرى على الحروف اللاتينية في التحدث عن نفسها، ما يصعب عليها أن تحتل مكانة بين اللغات .

وهذه بعض الكلمات التي تم استخدامها بكثرة في نص المتمردة لمقدم عن الرواية باللغة الفرنسية

382 مليكة مقدم، المرجع السابق، ص ن

جدول رقم: (4)

الكلمة المهجينة "باللغة الفرنسية	ما يقابلها باللغة العربية	الرواية ورقم الصفحة .
Ksar	قصر	L'interdite,p11
Tabib, tabiba	طبيب, طبيبة	L'interdite,p21
Taleb	طالب وهو	L'interdite,p30
Laillaha ill allah Mohamed rassoulallah	لا إله إلا الله محمد رسول الله	L'interdite,p11
Chahada	الشهادة	L'interdite,p32
Trabendist	ترابنديست	L'interdite,p32
Hitistes	حطيسط	L'interdite,p54
Roumi	رومي	L'interdite,p88
La sadaka	الصدقة	L'interdite,p80
Bendir	البندير	L'interdite,p102

تعمل مليكة مقدم في هذا النص بالتحديد على تهجين الأشخاص فلا تكتفي مقدم بتهجين اللغة، حيث

تعتمد على خبراتها ومعارفها في مجال الطب لتهجين الأشخاص، من خلال التطعيم وزرع الكلى ، بين رجل

فرنسي، و امرأة جزائرية ليتطابق النسيج الكلوي " بهذا العضو، قد غرست بداخلي جرثومتين غريبتين، الجنس

الأخر، والعرق الآخر، وتجذر في أفكاري هذا الشعور بالتهجين المضاعف للحمى، ودفعني بقوة نحو النساء، نحو الثقافة الأخرى."383 ليكون نص هجين على المستوى الثقافي واللغوي.

لم تهجن مليكة مقدم نصوصها باللغة الأم فقط، فحتى الإسبانية والإنجليزية كانتا حاضرتين في نصوصها، وكأنما تريد مقدم من ذلك أن تتخلص من التبعية اللغوية التي فرضت عليها، باستعارتها للسان الفرنسي وثقافته، فمقدم مختلفة عن آسيا جبار وميساء باي، الذين كتبوا الجزائر بلسان فرنسي وثقافة عربية، لم يكن غضبهم جامحا حول مآسي الجزائر بقدرما ركزوا على مآسي الاستعمار وقد يكون ذلك بسبب الفترة التي بدأت فيها مقدم الكتابة فتقول: "عندما كانت الجزائر تنحر نفسها في عقد التسعينيات"384

ولذلك نرجع سبب استخدام مقدم للغات متعددة، هو محاولة منها لصهر وتذويب الاختلافات الحاصلة بين الدول، كنوع من نبذ العنف ومحاولة منها في تذويب الحدود الفاصلة بين الثقافات المختلفة، فالكلمات الإسبانية التي وردت في نصها رجالي وجاءت ترجمة الكلمات على الهامش³⁸⁵ هي:

الجملة بالإسبانية	ترجمتها
Ah! La guapa	آه، يا جميلتي !
La doctora que me quita el dolor	الطبيبة التي حرّرتني من الألم.
La doctora que me quita la pena	الطبيبة التي حرّرتني من الحزن .

ولأهمية اللغة تحاول مقدم أن تجمع بها، ما لا يمكن جمعه في الواقع لذلك تهجين اللغة باستمرار.

الكلمات التي كتبت بالإنجليزية مع الترجمة في الهامش هي:

383 مليكة مقدم، الممنوعة، مرجع سابق، ص28-29

384 مليكة مقدم: رجالي، ص128

385 مليكة مقدم: رجالي، ص215

الصفحة	الترجمة	الجمل بالإنجليزية
ص101	حجر متدحرج وهي عنوان أغنية: "لوب دي لان"	Like a rolling stone
ص193	هذه الأخيرة، هذه الكبيرة!	The last one. the big one!

تستحضر الكاتبة الأمثال الشعبية الجزائرية في نصوصها لتعبر عن ثقافتها المتنوعة، تقول بعد أن حطم الإعصار بيتها في موندلييه: "يرعد هنا، ثم ينفجر هناك."³⁸⁶ لتحيل إلى ما تشعر به بعد فشلها في علاقة تعويضية بعد طلاقها. كما تتحدث عن قوة اللغة وارتباطها بالانتماء تلك القطيعة، والرغبة في العودة هي سبب من أسباب التهجين في نصوصها تقول: «استبدت بي رغبة مجنونة، إذ تأملت تقاطيعة (إشارة لملاحه العربية التي وصفتها سابقاً) أن أسمع رجلاً يغازلني بالعربية، إنه تأثير العودة إلى الجزائر.»³⁸⁷ أين تأثر اللغة على مدلولها وتمنحه قوة ما، أو حاجة نفسية لا تكون إلا من خلال اللغة الأم، ولهذا تختار مقدم كلمات محددة تستعملها بلغتها الأم.

³⁸⁶ مليكة مقدم، رجالي: ص192

³⁸⁷ مليكة مقدم، المرجع السابق، ص188

رابعاً: التناص والنصية في كتابات مقدم

يعد التناص نتيجة الصدام الحضاري والفكري بين الأشخاص الذي يعد تشرباً لثقافات الأخرى والانغماس فيها، فلا يمكن أن يوجد نصاً، لا يحمل نصوصاً أخرى داخله، غير أن التناص بالنسبة للأدب ما بعد الكولونيالية أو ما بعد النسوية، لم يأتي عفويًا نتيجة لتشرب الآخر فقط بل أصبح تقنية، توظف من باب المقصدية، ليس لقول ان الآخر موجود في مكان ما داخل ذواتنا، وإنما لقول أن وجوده مفروض بالقوة، ليعلن الوعي بالتناص إلى الوعي بالميتانص، حيث سنتطرق إلى توضيح التناص والميتانص على المستوى اللغوي والاصطلاحي، عودة إلى التأسيسية حيث تم التأنيث لنسق المعرفي لنظرية التناص لنكتب بعد ذلك كيف تم استغلال هذه التقنية من طرف الكاتبة لتعبر عن ذاتها، كما ييسر لنا التناص الغوص في ثقافة مقدم، فيقدم لنا خلفياتها الثقافية والمنابع التي كانت وراء تكوين هويتها الثقافية، حضوراً واستحضاراً.

1- التناص L'intertextualité:

هناك إجماعٌ عالميٌّ على أن أول من وضع هذا المصطلح سنة 1966م. هي البلغارية جوليا كريستيفا **Julia Kristeva**، التي تحمل الجنسية الفرنسية، منطلقة من مفهوم الحوارية عند باختين الروسي **M. Bakhtine**، لكن بعض النقاد العرب يترجم المصطلح إلى التناصية معتمدين على تطور المعنى لاحقاً، نحوي معنى لتفاعلية. أما الأشكال الأخرى فهي تتجاوز التفاعلية إلى (التلاص - **Plagiarism**) أي أعلى درجة في التقليد والنقل والإخفاء³⁸⁸.

وبذلك نظرية التناص جاءت في حد ذاتها نتيجة التأثير بالآخر، لتكون تفاعلية معه غير أنها تأخذ الجانب السلبي إذا ما تجاوزت حدود التفاعل إلى الاقتناص والأخذ من الآخر فالتناص عند كريستيفا "هو ترحال للنصوص

³⁸⁸ عز الدين مناصرة، علم التناص المقارن: نحو منهج عنكبوتي تفاعلي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2006، م1، 138.

وتداخل نصّي، ففي فضاء نصّ معين، تتقاطع وتتناهي ملفوظات عديدة، مقتطعة من نصوص أخرى³⁸⁹. وهي علاقة طبيعية ناتجة عن الاحتكاك بالآخر والتأثر به، والانغماس فيه، فمبدأ الحوارية عند باختين DIQLOGIM يوضح كيفية قياس العلاقات التي تربط خطابا بآخر: "العلاقة التي تحدد عمليات تبادل الحوار (رغم أنها بالتأكيد ليست متماثلة) ويدخل فعلا لفظيان، تعبيران اثنان، في نوع خاص من العلاقة الدلالية ندعوها علاقة حوارية و العلاقات الحوارية هي علاقات دلالية بين جميع التعبيرات التي تقع ضمن دائرة التواصل اللفظي"³⁹⁰ التعبيرات التي تقع ضمن دائرة التواصل اللفظي غير أن توظيفها في النصوص ما بعد الاستعمار لم يكن نتيجة للاحتكاك فقط بل كانت قصدية من أجل تقوية المعنى والإيحاء، فقد جاء لتقدم قراءة عن النص من زاوية الآخر، أما بارت فيرى بأن النص "منسوجا تماما من عدد من الاقتباسات ومن المراجع والأصداء: لغات ثقافية سابقة أو معاصرة، تتجاوز النص من جانب إلى آخر، في تجسيمة واسعة إن التناسي L

intertextualité، الذي يجد نفسه فيه كل نص، ليس إلا تناسا لآخر"³⁹¹.

تتشرب النصوص من بعضها البعض، وتصب في قالب جديد، مختلف عن سابقه ليذهب في ذلك الدكتور وحيد بن بوعزيز أن "تحويل التناس من عنصر شكلاي وجمالي فقط إلى موقف أنطولوجي من الذات ومن الإمبراطورية أو الميترابول"³⁹² فتوظيف التناس ليس اعتباطيا، وإنما له وظيفة ما داخل النص، تخدم الغرض من الكتابة، وتجب عن تساؤلات الكاتب في النص من خلال صوت الآخر، وهذا ما برهنت عليه كتابات ما بعد الكولونيالية، التي دعمت نصوصها باستخدام ألفاظ من لغة الآخر، كنوع من المقاومة والتي تخدم أغراض بلاغية

³⁸⁹ جوليا كريستيفا: علم النصّ، ترجمة: فريد الزاهي، منشورات توبقال، المحمدية المغرب، 1991، ص 21

³⁹⁰ تسقتيان تودوروف: ميخائيل باختين: المبدأ الحوارية، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية، للدراسات والنشر، ط2، عمان، 1996، ص 121،

. 122

³⁹¹ عز الدين مناصرة: علم التناس المقارن، ص 142

³⁹² وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة (مقالات في الآخرة و الكولونيالية و الديكولونيالية)، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018، ص 103

وخطابية في النص وهذا ما سنحاول استخراجها من نصوص مقدم التي تم العمل عليها، لنقوم بالبحث عن التناص وعلاقته بالميتانص. والغاية من استخدامهما في النص

التناص كعنصر شكلاي جمالي:

أ- العتبات النصية:

- العنوان: يعد العنوان أول العتبات التي يقف عليها القارئ تعد العتبات النصية إحدى أهم مفاتيح النص، التي تساهم في تقديم صورة كلية عن النص، أو إجابة عن تساؤلات لم يتم الإجابة الصريحة حولها في المتن، ليكون العنوان عتبة وجب الوقوف عليها قبل الولوج إلى النص، تحيلنا عناوين روايات مقدم إلى بعضها البعض، وكأنما تتناص من بعضها البعض.

إن رواية رجالي mes homme تعد تناص عن أغنية، للمغنية فتقول: (راح صوت باربارا يدندن في رأسي: "رجالي")³⁹³. كما أن عنوان "ليلة السحلية" la nuit de lézard مستوحى من قصيدة قصيدة رينيه شارل «la complainte de lézard amoureux»³⁹⁴ René Char حيث تقوم بتصدير نفس الرواية بجزء من هذه القصيدة لتدل على التناص حيث يقول "Qui, mieux qu'un lézard amoureux من أحسن من السحلية في الحب" وهنا ككل روايات مقدم تجعل مفتاح الرواية هي نفسها التشويش الذي تضع فيه قارئها غير أنها تدعمه في إيجاد سبيل لنصوصها، لماذا تعنون مقدم نصها

اعتمادا على السحلية، أكيد أن السحلية حيوان صحراوي بامتياز له القدرة على التأقلم مع درجات الحرارة المرتفعة، مما جعلها تطلق عليه اسم "شميسة"، غير أن فائزة بايشتذهب في تحليلها إلى أبعد من ذلك وتربط السحلية

³⁹³ مليكة مقدم: رجالي، مرجع سابق، ص174

³⁹⁴ Malka mokaddem, la nuit de lézarde, l'epigraphe

بالحرية والوطن من خلال الأبيات الشعرية لرنيه" النبوة بنهاية هذه الفطائع وهذا العنف لا تتنبأ به إلا هذه السحلية التي تحك أكتاف الرجال، وتتحرك بحرية في شقوق جدران البيت، مما يسمح لها برؤية كل شيء والتفكير والتأمل. أوليس حكيماً؟ وهي استعارة معزولة يقارن بها الشاعر نفسه بسحلية لتصوير عالم يرفض كل حقد أو عنف " 395

– الإهداء: يحيلنا الإهداء في كتابات مقدم إلى ما يتضمنه نصها في كل مرة، فتتعرف على أوليائك الذين كانوا جزءاً مهماً في تشكل نصها فنجد في رواية رجالي تهدي روايتها إلى ذكرى سيدريك لا فون، إلى إريكا وجيل وآريان لا فون، كما تهدي كتابها الممنوعة "الطاهرجاووت" الذي قتل في مرحلة المأساة الجزائرية ناعية إياه "ممنوع من الحياة بسبب كتاباته". 396

وتهدي نفس الرواية إلى مجموعة عائشة وهي فرقة غنائية "الصدقات الجزائريات الرفضات للممنوعات" 397

– التصدير: يعد التصدير مهم في فهم إحياءات الرواية، وما تريد مقدم لقراءتها أن يفهموه في رواياتها لذلك تجعل لكل رواية تصدير، يشي بتوجهاتها داخل الرواية ففي روايتها: "قرن الجراد" تصدر بقول لرحالة ايزابيل ابرهات، هذه المرأة التي تتحدث عنها بكل إعجاب في أغلب رواياتها فتقول في هذا التصدير "أفهم أيضاً، أنه يمكن أن ينتهي الأمر بسلام وهدوء في أي زاوية في الجنوب، ينتهي في نشوة، دون ندم، رغبة في مواجهة آفاق رائعة". 398 هذه الرواية التي تتحدث عن قرن من هجوم الجراد "الغزاة للجزائر" من جهة الشمال، لتحاول في هذه الرواية البحث عن السلام لهذا الوطن لكن من خلال التمرد على انتشار الزوايا في الجنوب،

³⁹⁵Faiza baiche: les techniques de roman chez Malika Mokeddem, Thèse de doctorat ès sciences, université les frères, constantine, alger, p32

³⁹⁶ مليكة مقدم: رجالي، ص 05

³⁹⁷ مليكة مقدم، المرجع السابق، ص ن

³⁹⁸ Malika mokeddem, le siècle des sauterelles, idid, p6

وكذلك عن المجتمع واعتمدت في تشكيل الأحداث باستخدام صمت البطلة التي تفقد القدرة على الكلام حينما شاهدت قتل والدتها ، وانطلقت نحو الكتابة بعد مشاهدتها الثانية لقتل والدها من طرف الدرك الفرنسي.

رواية "نزيد" تلك الأوديسة الأسطورية تجعل لها تصديرا خاصا، من أحد الكتاب العرب الأسطوريين وهو "أدونيس" من خلال حديثه عن جورج شحادة في قوله :

"شاعر - لا تكتب لا العالم ولا أنا

تكتب البرزخ بين الاثنين"³⁹⁹

لنربط بين ما كتبه مقدم وما قاله أدونيس فهي تريد أن تقول أن البحر المتوسط هو البرزخ بالنسبة لها لأنه يفصل بين العالمين اللذان تخلت عنهما مقدم (الجزائر، وفرنسا) من خلال محو ذاكرة بطلتها نورا، لتعيد بناء ذاتها، من خلال البحر المتوسط، وهي تنصب لنفسها مكانا بين العالمين، فيكون من الضروري قتل ذاكرتها، من أجل إحيائها من جديد.

أما تصدير روايتها أدين بكل شيء للنسيان"، كان مقطعا من أسطورة رومانية ليوربيدس: ميديا ((Médée" أفضل المصارعة تحت الترس(الدرع) ثلاث مرات على أن ألد مرة واحدة"⁴⁰⁰ فيربط هذا التصدير بجانبين جانب رؤية سلمى لوالدتها، وهي تقتل ابن خالتها، ذلك الرضيع الذي لم يرى من الحياة إلا وسادة تخنق أنفاسه، وجانب آخر متمثل في الأسطورة نفسها "ميديا" التي تقتل أطفالها بسبب خيانة زوجها "فقد أدركت المسكينة أخيرا أن من غمار مصائبها، أي السعادة أن لا يبرح الإنسان أرض الآباء، فها هي تمت ولديها ولا تبتهج لرؤيتهما"⁴⁰¹ قد انقلبت حياة الميديا ، كما أن هذا المقطع يمثل مقدم التي قررت القتال، من أجل أن تعيش بحرية في المنفى على أن تكون أم في بلدها، وتعجز عن الدفاع عن بناتها كما كانت والدتها، فالعلاقة

³⁹⁹Malika mokeddem, n'zid .épigraphe

⁴⁰⁰ مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، صفحة التصدير.

⁴⁰¹ يوربيدس، ميديا، ترجمة، كمال ممدوح حمدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص8.

السيء بين البنت و والدتها ، كان سببا في رفضها للأمومة، ميديا في رواية مليكة مقدم ليست الأم وإنما هي الجزائر ذاتها، فتقول مقدم « والواقع أن دور المدينة، يعود إلى البلاد كاملة، إلى الجزائر هي التي حرّضت على العنف على الابتزاز بهذا النوع من المتعة الهدامة، هي التي قتلت هؤلاء، ونفت الآخرين، وأحرقت الرضع في الأفران، وتخلت عن أطفال آخرين بجروح فائقة الوصف.»⁴⁰²

أما رقم ثلاثة فيرمز لشخصيات الثلاثة للأخوات الأم، زهية الأخت الكبرى التي خانت أختها مع العم جيسون، وحليمة (التي كانت ستتزوج العم جيسون) ، هذا العم جونسون الذي شبهت به عمها" هو بطل أسطوري إغريقي، استطاع بفضل الميديا، زوجته الساحرة أن يستولي على الصوف الذهبي، وإذا أراد الزواج بامرأة أخرى، انتقمت منه".⁴⁰³

كما تصدر في روايتها رجالي "بورتريه داخلي لراينير ماريا ريلكه" (Rainer Maria Rilke) وقد اختارت مقدم تصديرها لهذا الشاعر، بسبب كتاباته العديدة حول حياته المضطربة، وفكره الوجودي الذي يعمل على إعادة إحياء الإنسان "ولعل مفردات الحنين والموت والعزلة كانت هي الطاغية على إبداعاته المبكرة، كما أن الميزة الأخرى لأعماله أنه يمكن أن يتحول أحيانا إلى كاتب ساخر متفرد ، تنضح كل عبارة في قصصه الساخرة، مثل «وليمة العائلة»، و «إيفالد تراجي»، بالتهكم الذكي والنقد العميق لمفاهيم الوطن والعائلة والقومية واللغة، ولكل ما هو مقدس و مغرق في التقليد⁴⁰⁴. وهنا تتقاطع رغبة مقدم بالسير في طريق راينير، والخوض في المقدس والوطن والقومية والعائلة في روايتها فتتسلف الروابط الموجودة بين هذه الثنائيات في محاولة نقد المجتمع الجزائري التقليدي من وجهة نظرها، فتختار مقاطع من قصيدة له :

لا أحتاج

⁴⁰² مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، ص،

⁴⁰³ مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، ص24، (كتب على الهامش)

⁴⁰⁴ راينير ماريا ريلكه، وليمة العائلة، المرجع السابق، ص ن.

إلى أن أراك تتجلين أمامي،

حسبي أنني ولدت

لأخسرك أقل بقليل.

تطرح من البداية غايتها من الكتابة، ونظرتها إلى الوجود والماهية، فقد اختارت تصديرتها بدقة، فينفتح نصها ويتقاطع من البداية على نصوص غيرها، ممن اختاروا للكتابة سبيلا للوجود والحرية، وفي محاولة منها أن تظهر قدر قراءتها المتنوعة، وانفتاحها على مختلف الآداب العالمية، وهو إعلان صريح منها على اهتمامها بمختلف الثقافات على اختلاف العصور .

ب- التعالقات النصية:

التعالق الحرثي:

تعمّدت مقدم التناص من القرآن، لتعبر عن كونها قرأت القرآن في أكثر رواياتها التي تخوض فيها الحديث عن إلحادها وكذا رفضها للعديد من الشعائر الدينية والتي تربطها مقدم بممارسات اجتماعية متجذرة كنوع من الرفض الصريح، لكتاب الله غير أن استخدامها لهذه الألفاظ لم يكن للحديث عن هذه الآراء وإنما جاء في مواضع أخرى، كالعهن المنفوش⁴⁰⁵ في وصفها للوسادات المستخدمة في بيت سلمى في القنادسة، وكذلك جنّات عدن⁴⁰⁶ في وصف نمط المعيشة للبدو الرحل بعد استقرارهم، وغيرها من التوظيفات التي تريد من خلالها التأكيد على هذا الجانب من ثقافتها.

⁴⁰⁵ مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، ص15

⁴⁰⁶ مليكة مقدم، المتمردة، ص110

تستخدم مقدم التعالق الحرفي في مواضع كثيرة تناص مع قصيدة "امرؤ القيس"⁴⁰⁷ في وصفه خيله يقول: مكر مفر مقبل مدبر معاً*** كجلمود صخر حطه السيل من عل⁴⁰⁸ لتعبر عن ثقافتها العربية، فتقول "كان الأرق يجري من سجن الجسم العائلي الرائد أرضاً، كتلة واحدة متراسة، مثل جلمود صخر".⁴⁰⁹

كما استخدمت مقدم مصطلح "غنيمة الحرب" لمالك حداد في العديد من المواقف من بينها حديثها عن "اللغة" وجعلها غنيمتها الكبيرة غير أن مليكة مقدم تجعل من الغنيمة الأولى طريقاً مهد لها بقية الغنائم فتقول في روايتها المتمردة: "كانت هذه الأرض، تحديداً، قد باشرت التودد منذ طفولتي، هناك دعيتني، في البداية إلى أمكنة خارج الكلمات، في لغة أخرى في أحلام، ورقية، في حكاياتها الممنوعة. أي شيء طبيعي من غنيمة الحرب"⁴¹⁰ كما تتحدث عن غنيمة أخرى، تمثلت في حب ورعاية بعض الأقدام السوداء ومعلمتها وكذا سيدة يهودية، لتكون غنيمتها مختلف عن الغنيمة التي حصدها مالك حداد رغم أنها امتلاكها لنفس الغنيمة والمتمثلة في اللسان الفرنسي غير أن مقدم تحصي بقية الغنائم والتي كانت نتاج تلك اللغة والتي حالت دون كره المستعمر، "ولكنني لم أنس أن مودة معلمتي، وسيدة يهودية ورئيس مشغل من الأقدام السوداء ورعايتهما.. كانتا غنيمتي حرب في طفولتي، فيما الحرب مستعرة في الجزائر. لقد أسهمت تلك المحبة والرعاية نهائياً في وقايتي من ثنائية المفاهيم السائدة في المجتمعات، تلك المحبة والرعاية."⁴¹¹

لتتحدث أيضاً في روايتها رجالي: عن مجموعة من الكتب المجلدات الأربعة (إيفكوريير) عن "حرب الجزائر". وكذا عن ألف ليلة وليلة وذلك بتشبيهه أحد مديري النشر لروايتها الرجال الذين يسيرون بألف ليلة وليلة غير أنها لم تخض في مضامين الكتب التي تحدثت عنها .

⁴⁰⁷ امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي، وهو من أهل نجد.

⁴⁰⁸ أبو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء، وزارة الثقافة، 2007، ج1، ص54

⁴⁰⁹ مليكة مقدم، رجالي، ص44

⁴¹⁰ مليكة مقدم، المتمردة، ص105

⁴¹¹ مليكة مقدم، رجالي، مرجع سابق، ص71

تستعير في بعض الأحيان أقوال غيرها تعريزا للمعنى مثل استخدام قول ميلان كونديرا Milan Kundera)) في روايته الجهل: "لقد حررتها قوى التاريخ المنيع التي انتهكت حريتها."⁴¹² في حديثها عن أحد الرجال الذين كانوا جزءا من تاريخها ومن حريتها.

التعالق الضمني:

تحيل نصوص مقدم إلى نصوص أخرى تكون بمثابة مفتاح لقراءة نص مقدم في كل حين، تعتمد تقديم إحالة ضمنية تقودنا إلى النص الأصلي، ففي "رواية ليلة السحلية" لتحدث عن "تمسك شخصية نور بالكتاب البرتغالي، هذا كتاب كتبه امرأة."⁴¹³ وهي إحالة إلى كتاب (سيمون دوبوفوار) Simone de Beauvoir في كتابها "اليوسفي" لتعلن بذلك مقدم تأثرها بهذه الكاتبة، وتمسكها بأفكارها.

تعتمد مقدم على الأسطورة في نسج نصوصها المختلفة ليرتبط كل نص بأسطورة ما غير أنها لا تشير إلى هذه الأسطورة إلا من خلال وضع بعض العلامات التي تقودك إلى هذه الأسطورة ففي رواية "المنوعة" تعلق نصها بنص خالد من الأساطير لتمنح لنصها الخلود غير أنها لا تعبر صراحة عن هذا النص إلا من خلال استخدام رمز يشير إلى الأسطورة في محاولة منها إلى مساعدة القارئ عن طريق قرائن لغوية وهي "فاكهة الرمان" التي قدمها الوالد لسلطانة قبل قتل أمها، تحيلنا هذه الفاكهة إلى الفاكهة الجهنمية التي ذكرت في الثقافة الإغريقية القديمة والتي أكلت منها بيرسيفوني في العالم السفلي (بروسرينا آلهة وقت الربيع) ابنة ديمتر (ربة الأرض، وتلقب أيضا بكريس شقيقة جوبيتر) بعد أن خطفها ديس أو هاديس وهو حاكم العالم السفلي وظلال الموت غير أن غضب والدتها حلت على الأرض فحل بها الجفاف وماتت النباتات ولما قرر جوبيتر أو سويس إرجاعها، حيث عمد هاديس إلى حيلة لتعود إليه "وضع أمامها طعاما وشرابا وكانت بروينا تعلم أنه من يأكل من طعام هاديس يصير عبد له، فصامت لكنها في غمرة فرحها خرقت الوعد الذي قطعته لنفسها،

⁴¹² مليكة مقدم، رجالي، مرجع سابق، ص 116

⁴¹³ La nuit de la lézarde , idid , p 224

فكسرت رمانه نصفين وأكلت منها ست حبات... ولأكلها من طعام هاديس تحتم عليها العودة إلى هاديس ستة شهور في كل عام⁴¹⁴ لذلك لم تفهم سلطانه سبب عودتها إلى الجزائر، وكيف لها أن تعود إلى عين نخلة بعد كل الأسى الذي عاشته لذلك تقص عليهم كيف ماتت أمه وأصبحت ملعونة غير أنها تنطلق في بداية الحكاية بوصف فاكهة الرمان " اشتر لي الرمان، الرمان، أجمل الفواكه ، الفاكهة المفضلة عند الملوك والسلاطين. إكليل من الدمى على جلد مذهب، مرشوش بالأرجواني وعندما نفجره، يظهر قلب منخر، حيث كل قطرة من الدم مرصعة بقشرة من الألماس وتحتوي بداخلها بؤاية من عين الهر، وحينما نقضمها، يترك في الفم هذا الخليط من السائل والألياف طعم تحريم".⁴¹⁵ فقد صار الرمان رمزا في الثقافة الإغريقية لبريسيفوني والتي اعتمدته مقدم ترمز إلى العودة إلى العالم السفلي (الجزائر) لكنها تتخطى هذا الرمز أيضا إلى رمز ضمني المتمثل في العودة إلى الجزائر السعيدة المقاومة لكل الأزمات فتربط العودة بـ " حاضر البلد ومصير النساء هنا يعيدني باستمرار إلى مأساتي الماضية، يكبلني إلى كل اللاتي يعذبن"⁴¹⁶ سبب العودة هو الظلم في حد ذاته، ظلم أزلي، يمر بالجزائر باستمرار، غير أن الكفاح أيضا يقابل ذلك الظلم باستمرار في روايتها.

التناس عند مقدم يظهر من حين إلى آخر ليقول أن مقدم قارئة جيدة تريد أن تستغز قرائها،

فرحلة نور في ليلة السحلية "La Nuit de la lézarde"⁴¹⁷ ونزيد مستوحاة من رحلة سيزيف من عالم الأحياء إلى عالم الأموات فنور في "ليلة السحلية" تحاول إعادة روح ساكن البيت لتنتقل الحب من الأموات إلى الأحياء فقد كانت "نورا" تفعل كل ما في وسعها "لصرفه عن نهايته الحزينة".⁴¹⁷ خلال النهار ، تقوم بترتيب منزلها ، وتتحدث إليه ، وتروي الشائعات التي يتم تداولها ، وتروي حكايات حتى أنها تشاركه الاستماع إلى الأغاني "الأندلسية" فتعبر عن جزء مهم من حضارتها وهويتها، وهي الثقافة الأندلسية.

⁴¹⁴ أمين سلامة: الأساطير اليونانية والرومانية، مؤسسة هنداي، 2021، ن، ج، ص66

⁴¹⁵ مليكة مقدم، الممنوعة، ص162

⁴¹⁶ مليكة مقدم، الممنوعة، ص166

⁴¹⁷ Malika mokaddem " La Nuit de la lézarde, p66

أما نورا في رواية "نزيد" فتعيش تجربة الإبحار والبحث عن الذات من خلال نبش ذاكرتها الميتة ومحاولة إحياء ذلك الماضي الدفين وإعطائه الحياة من خلال مغامرة بحرية مع الحيوانات البحرية المختلفة، تواصل نورا رحلتها الخالدة بلا حدود.

2- التعالق من خلال الفن:

تعتمد مقدم الفن في كتاباتها فتوظف مختلف الفنون من لوحات ورسومات، وموسيقى وحتى الأوشام ونقوش تعبر من خلالها عن رؤيتها للعالم وكذا طبيعة تواجدها فيه كبدوية ابنة الصحراء، تقوم أحيانا مزج اللوحات الطبيعية مع اللوحات المرسومة فتبدأ روايتها "ليلة السحلية" " حيث تراقب بطلتها نورا العالم المحيط بها والذي يترك في نفسها سكيننة لا تجدها وسط البشر "تجلس نور على أرض الملعب كمرقب تراقب ظهوراً ما، تراقب نور ما يحيط بها. " ⁴¹⁸ لترسم لوحات طبيعية عن الأمكنة التي تحل بها، تمزج بين الفن والطبيعة والأدب "فاللوحه تثير الصفاء الذي تشعر به وهي تنظر من بعيد إلى هذه الكتلة من الرمال والحشائش حيث تدفن الأصوات والسماء تشبه الشمع حينما يتساقط " ⁴¹⁹ وتعود عيون نور إلى تفاصيل القصر الذي يوجد فيه منزلها. في هذه الساعة ، هو "بقع من الظلال ورداد الشمس" ⁴²⁰. وبيضاء ، "تدير ظهرها إلى القصر لمواجهة الصحراء" ⁴²¹. بين لوحتين مختلفتين تدور أحداث الرواية، تصوير القصر وما يحمله من كم هائل من الذكريات، والصحراء على اتساعها والتي تسحق خراب القصر، بنظرة رسام ، تصف نور الشفق لصديقها ساسي الذي "اعتاد على اختبار الأرض بقدميه للإرشاد" ⁴²². ملامسة الأرض بالأقدام، يقود إلى فكرة الارتباط بالأرض

⁴¹⁸Malika MOKADDEM: " La Nuit de la lézarde,P12

⁴¹⁹ ibid.p12

⁴²⁰Ibid.p12

⁴²¹Ibid.p13

⁴²²Ibid.15

"- الشفق؟ كما وصفتها أمس ، أول من أمس ، ومنذ أن عرفت الليل بأعينكم. هذا يجعلني يعني دائما مختلفة
 423." تستمر في المساكن " - تقوس منحنياتها نفسها بشكل مختلف مع احتضان غروب الشمس. في أكتوبر
 أين تبلغ روعتها وكذا ذروتها " 424.

تأخذنا مقدم إلى زمن آخر في رحلة إلى ما قبل عصر الكتابة، العصور القديم أين تمارس الرسم على الحجارة
 باستخدام الفحم أين يتم الاعتماد على الغريزة فهي أصل كل إبداع فني. وخلافا لنصوصها الأخرى التي تكتشف
 فيها الحرية من خلال الكتب والمدرسة، فنورا في رواية "ليلة الساحلية"، تمارس الحرية عبر الفن ليكون الرسم
 والتحت وسيلتها في ذلك، وهي المرأة المحرومة من التعليم، برسومات نور على الجدارية مستوحاة من فن ما قبل
 التاريخ ، تحاكي قصة عالم فني بدائي ، ترجمته الجدارية أثناء تجديد المنزل الذي تشغله.

نور تطرح فناً بارزياً من "فجر الزمن". وقت قبل الصحارى " 425 لترسم "بحيرة مغطاة في جوف من الخضرة
 حيث ترقص الطيور والأسماك على الباليه بين الضوء والماء " 426. هذه اللوحة الفنية تصور رؤية مقدم للفن تريد
 العودة إلى العصور التاريخية، "تستخدم نور المواد الطبيعية ذات المنشأ المعدني والخضري لتلوين الزخارف الهندسية
 والزينة للجدران مع الاحتفاظ بروح المنزل. نور رسمت على الجدران بنفسها ، بحذر شديد لأجل الإخلاص لما
 فعله مالك البيت السابق " 427 اعتقاداً منها أنها تترك روح الحب على الجدران بعد أن علمت من ساسي أن
 صاحب البيت قد شنق نفسه لأجل الحب، لتحاول التواصل الروحي مع روح العاشق المشنوق، اعتماداً على
 الجدارية من خلال رسم الطيور والأسماك، تجمع بين الحياة والموت. في محاولتها لإعادة إحياء روح صاحب البيت
 إن الطيور في الميثولوجيا ترمز إلى الروح، "لقد رتحتها على الطيران، فقد كانت الطيور ترمز إلى الروح، وقدرتها على

423Ibid .p15

424Ibid .16

425Ibid. 112

426Ibid. 112

427Ibid. 112

مفارقة البدن ولهذا فقد كان المصريون القدامى يصورون الباطن (الروح) على هيئة طائر برأس بشري.⁴²⁸ أما الأسماك فتأخذ معاني كثيرة تصب كلها في فكرة البعث والإحياء فقد " وجد بين حفريات مصر القديمة مومياء من السمك. ولقد وجدت عبادة السمك في مدينة أوكسيرينخوس حيث عبد سمك المورمون؛ إذ كان يعتقد أن هذه السمكة ابتلعت قضيب أوزوريس، إله الموتى عندما قطع شقيقه الشرير جسده إلى شرائح."⁴²⁹ ما جعل رمزية السمك ترتبط بالقيامة وعبادة الموتى، فقد خصصت معابد خاصة بالسمكة في الأماكن التي يتم فيها التحنيط، ومن هنا يبدو جليا ما كانت تسعى إليه مقدم في جداريتها.

أما في روايتها الأخرى "نزيد" فإن بطلتها تستشفى من خلال الفن ، بعد أن تستيقظ البطلة في قارب وهي فاقدة للذاكرة حيث يطمئن قلبها بعد أن فقدت كل شيء حتى ذكرتها بوجود البحر إلى جانبها فتقول: "لحسن الحظ، أنت هناك".⁴³⁰ غير أنها لم تذكر من هويتها شيء ، ولا شيء سوى الصور ، والروائح ، وانفجارات المشاعر ، وبعد بعض عمليات البحث ، عن ذاتها، تجد نفسها بلا ذاكرة لا تملك غير "ورق كانسون. كتب رسومية. الفحم. الكثير من أقلام الرصاص. جميع أنواع الطلاء".⁴³¹ وجود هذه الأشياء بحوزتها أوصلتها إلى التفكير بأن مهنتها رسامة، غير أنها غير متأكدة حالة من الكرب ولا يقين يشعرها بالاضطراب ، لتعطي مقدم أهمية للذاكرة التي تصنع الإنسان وتجعل منه ما هو عليه فذات الإنسان موجودة في التاريخ ومن خلال الذاكرة. تستأنف نورا الرسم "قصة قناديل البحر في حب قنفذ البحر"⁴³² ، قنديل البحر من الكائنات المهاجرة التي لا تألف الأماكن عكس القنفذ، فهي رغم عدم معرفتها بجويتها غير أنها من خلال الرسم تعود إلى هذه

⁴²⁸ إمام عبد الفتاح إمام. معجم ديانات وأساطير العالم. الكتاب الأول. ص 212:

⁴²⁹ إمام عبد الفتاح إمام، معجم ديانات وأساطير العالم. ط 1، ص 384

⁴³⁰ Malika mokaddem, nezid p18

⁴³¹ Ibid .24

⁴³² Malika mokaddemK n ezid,p34

الهوية تكتسبها من جديد فتتعرف على ذاتها. غير أنها فجأة بين ضربات قلمها العصبية وضربات الفرشاة، "تم رسم الرجل للخارج" . 433

تفحصها بنظرة حادة ثم تنقحها، في حالة من الغضب الشديد، تكمل لوحتها ف"يصبح الوجه أكثر وضوحا، ويبدو أنها تحافظ عليه. إنه وجه الفايكنغ مع نظرة فضولية. يبدو أن شدة اللون الأزرق القزحي تقسم بتعبيرها الخارق شبه المتمرّد. بدءا وشارب شيطانيان ، يجلس في قارب به منصة مؤقتة " . 434 هذه نظرة مقدم للرجل فهي بعد أن أفقدت بطلتها لذاكرة، تعرفت من خلال الرسم ودون مقدمات إلى صورة رجل ما، إنه الأب لكن هذه الصورة لم تكن مسالمة إطلاقا بل كانت مصدر للغضب والاضطراب فتتذكر من خلالها بعض طفولتها لتعرف صاحب الصورة فتبكي بعد أن تتذكر وفاته، وهكذا تواصل نورا استعادة ذاكرتها من خلال الرسم وعن طريق الفحم، حيث يستمر الفحم في إعادة بناء ماضي نورا "التي تستسلم لغرائزها بحثاً عن يديها" 435 . إن وجه المرأة يظهر شيئا فشيئا، بما في ذلك "عظام الخدين أعلى قليلا، والحواجب أوسع قليلا، وإضافة صدر يقصف الورقة، ويهدد بتمزيقها. عندما تتقاطع أعينهما، (نورا) تتذكر أنها ليست أمها... " 436 نورا لا تريد اختراع والدتها. "هي لا تستطيع" 437 . "لم ترسم الأم .. لماذا؟" 438 و هنا يبدو أن بطلتها تعجز عن تذكر والدتها من خلال الفن، والوالدة هنا ترمز إلى الوطن الأم، فهي لازالت تعاني من عدم التعرف على هويتها.

اللوحات المرسومة تثير الذكريات. أثناء انعكاس هادئ، ترى نورا حوتًا يبدو وكأنه يذكرها بالأحداث المنسية لطفولتها، وهو تناص مأخوذ عن القرآن الكريم فالحوت هو منقذ سيدنا يونس عليه السلام، وهنا توظف الكاتبة لينقذ طفولتها من التلاشي في النسيان "لحظة معلقة بين السماء والبحر، يسقط ذيل (الحوت) قبل أن

433 Ibid.53

434 Ibid,53

435 Ibid,92

436 Ibid .92-93

437 Ibid.171

438 Ibid.100

يختفي" 439. تختبر نورا "حنيناً فضولياً"440 و "شعوراً قديماً"441 يغزو جسدها وروحها "ليكون الحوت مؤثراً لإعادة تنشيط الذكريات المخزنة في الدماغ والتي في حاجة إلى مشير لتعود إلى السطح، نورا "تتذكر أن الحيتان عضت والدها".442 فتعود إلى التناسخ على جانبين أولاً الحوت بالرمزية الأسطورية"الحوت. غول بحري غالباً ما مثل حوت أو غول بحري ذو مشية تشبه مشية الثعبان أو التنين أو ايضاً السمكة ذات الحجم الكبير وهو يتلعب كائناً بشرياً حتى نصف جسده"443

تأخذنا إلى الرحلة التي قامت بها جماعة من البؤساء الايرلنديين مع والدها نحو أمريكا على ألواح خشبية وبين رحلة الحجاج الأوائل من هولندا إلى أمريكا على متن سفينة "ماي فلاور" في رحلة ملحمية اتجاه المجهول غير أن والدها يغير الوجهة إلى فرنسا ليتابع رحلته وحيداً، غريب في قبيلته. إن استخدام كلمة "وحيداً" يعزز فكرة الاختناق وتحمل الأب للعزلة والاختلاف، نورا اليوم هي التي تشعر بأنها "أجنبية" ، ولهذا اختارت البحر الأبيض المتوسط ، مهد الحضارات ، ومن هنا اختراع تعدد الهويات ، وبالتالي عدة دول ، عدة ديانات : "كان والداي يونانيان .. . كان؟ أب قبطني ، أم يهودية. ولدت في باريس. فرانكو - يوناني - يهودي - مسيحي - عربي - ملحد" .. 444

التهجين في اللغات والثقافات والأديان ، تعيشه نورا في الرسم: ذلك الشعور بالضيق وسط هذا التعدد الهوياتي الذي يجعل من الرسم وسيلة لتجاوز الضيق "منذ الطفولة ، كان الرسم طريقي في عدم اختيار أي من لغاتي. أو ربما لخلطهم جميعاً من الكلمات الموجودة في خفقتان الألوان، في تقلبات الخطوط للهروب من تمزقها

439Ibid.147

440Ibid.147

441Ibid.147

442Ibid.147

443 فليب سيرنجي، الرموز في الفن-والأديان والحياة، تر: عبد الهادي عباس، دار دمشق، ط1، 1992، ص 208

444 Ibid,164

"445" تصر مقدم على فكرة أن الفن هو انعكاس للواقع وتصوير له فتحاول أن تصور في كل مرة من خلال الرسم الحالة النفسية التي تعيشها بطلاتها.

لتحاول في روايتها (الممنوعة) التفصيل في الرسومات واللوحات لتنشأ حوار داخلي بين لوحة ياسين الطيب صديق سلطنة بعنوان "الجزائر" و الرواية الشهيرة للكاتب ياسين "نجمة" نجمة "كاتب ياسين" لم تكن إلا "الجزائر" وهذا أحد الأسباب التي جعلها تختار اسم "ياسين" بطلا لروايتها كاتحاد رمزيا بينهما، ليكون الرسم الوسيلة التي تربط بينهما، فحين كان سبب استقرار "ياسين" في الصحراء بحثا عن وجه حبيبته بين الكثبان الرملية، لتحدث في روايتها على لسان بطلتها سلطنة "ياسين هنا، ماضيا وحاضرا. احتلت لوحاته الأمكنة. أعيد اكتشاف الفنان في قدرته على الإخراج، على تقديس الأشياء النفعية. بقليل من الحركة وقليل من اللمسات، يمنح لها غرابة ونبل الفن"446 فالفن يمنح فرصة لسلطنة بلقاء ياسين بعد موته، الفنان لا يموت، لأن أعماله خالدة، فكاتب ياسين ظل خالدا بكتاباتة.

تمزج مقدم نوعا آخر من الفن بكتاباتهما فتجعل من الموسيقى قفلا للوحاتها في أغلب رواياتها. الموسيقى نوع آخر من اللغة التي تصل مباشرة إلى القلب دون حاجة إلى محاولة إدراكها عقليا، وبالتالي تحاول مقدم الوصول إلى قرائها اعتمادا على الموسيقى "الموسيقى تملاني، تسحري، تنيم زواحي. تنفخ تضاريسها وحركاتها في صحرائها الداخلية"447. كما أن للموسيقى أثر سحري على الكاتبة تريد أن تنقلها إلى قرائها لتلقي بعض أشعار جون بيرس. في قصيدته الرياح في رواية الممنوعة: "إنها رياح عاتية على وجوه هذا العالم، رياح عاتية كبيرة متهجة عبر العالم، التي لا سطح لها ولا مأوى..."448

445Ibid ,113

446مليكة مقدم الممنوعة،43

447 المرجع السابق،ص44

448المرجع السابق، ص ن

الريح من قوى الطبيعة التي تعتمد عليها مقدم في كثير من نصوصها، ففي روايتها "أدين بكل شيء للنسيان" تكون الريح وسيلتها في محو ندبات الماضي ، والذي تكون هي الأخرى رياح التغيير والبحث عن الحقيقة، فتعود بها إلى الصحراء لنبت تلك الندبات . وترافقها في عزلتها في روايتها المتمردة بعد أن صارت وحيدة فجأة، وكأما تواجه الذاكرة باستخدامها الريح، كما ترتبط الرياح والعواصف الرملية التي كبرت عليها مقدم، سبب آخر في العودة إلى هذه القوة الطبيعية.

تعتمد مقدم أغاني أخرى من هويتها المهجينة فتحب الاستماع إلى الأغاني الأندلسية في روايتها "ليلة الساحلية" ترافق حركات البحر إيقاع العود في "نزيد" خلال رحلتها ، نحو البحث عن الذات اخترقت نغمات العود أذنها "لا تزال بعيدة ، نورا تلتف وتستمتع. عود البحر هذا الذي يلاحقها في كل مكان ويضايقها؟" ⁴⁴⁹

لترسم نورا العود ، هذا الكنز الذي يبدو أنه من أصل أندلسي والذي أعطاه سي صلاح لجميل لأنه كسر. والآن يعود الأمر إلى جميل لإضفاء الحيوية عليه. تستعيد نورا حنينها للصحراء، شغفها بالموسيقى "قال جميل أن بلد الفنان هو موسيقاه " ⁴⁵⁰ وكان مقدم تبحث عن بلد من خلال الفن والكتابة.

لتتحدث عن الموسيقى الأندلسية في روايتها "أدين بكل شيء للنسيان" حيث الأغنية الأندلسية القديمة تخرج من مسرح الكتبان ، تملأ سلمى "451. هنا لازمة نصية: "متى نرتاح من قلة المحبة". ⁴⁵²

إنها في هذه الرواية تتحدث عن طابع غنائي، خاص بالجزائر عامة ومدينة وهران خاصة والذي يعد جزءا مهما من ثقافة المنطقة كما تدخل في حوار تقابلي مع كلمات الرواية في ما يسمى بالانعكاس السردي الذي ترد به

⁴⁴⁹Malika, n'zied 159

⁴⁵⁰ Ibid:206

⁴⁵¹ مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ص164

⁴⁵² المرجع السابق، ص ن

من خلال كلمات الأغنية للمغنية الراي الجزائرية المتمردة على قول "لن تنجو الجزائر إلا بنسائها"⁴⁵³ رؤية الكاتبة التي تجادلها بهذه الكلمات البسيطة المهمة للسيدة ريمتي:؟. "الخير امرأة والشر امرأة"⁴⁵⁴. غنت هذه المرأة مواضيع محظورة مثل "الحب والسكر"؛ يتساءل الراوي أن "كم من ريمتي المتحمسة سوف يستغرق الأمر لتمزيق النساء بعيداً عن ارتفاعاتهن القديمة؟"⁴⁵⁵. تتعمق الراوية في تفكيرها لتقول إن سلمى يمكنها أن تجيب على ريمتي بأن الجزائر لن تخرج منها إلا عندما تكون قد طردت الظلامية بشكل نهائي من البلاد من خلال الاعتماد على التعليم النوعي الذي يطر الحس النقدي لدى المتعلمين. هذا يعكس أيضاً وجهة نظر الكاتبة.

تنتقل مليكة مقدم من ثقافة إلى أخرى، من موسيقى الراي إلى الأندلسية إلى أغاني أجنبية كبرت عليها، والتي من أهمها أغنية "رجالي **mes hommes**" المغنية "باربرا" والتي جعلتها عنواناً لإحدى رواياتها. كما تربط الصحراء بسمفونية من سمفونيات بتهوفن " وضعت السيمفونية التاسعة لتهوفن، وجلست أمام النافذة مقابل الكتيب"⁴⁵⁶ لتجمع مقدم بين فن الصورة والرسم و الموسيقى في مشهد واحد فتواصل هذا المزج " تصعد السمفونية بداخلي مثل مد البحر، تأخذني نحو نداء المكثبة المتوحش، داخل انفجار الجوقة على لمعان الآلات الموسيقية... هنا يتحول هذا النشيد إلى احتفال للسماء، إلى ابتهاج الأضواء التي تملأ انتظاري خشوعاً وفرحاً"⁴⁵⁷ هذا الأسلوب في مزج الفنون هو ما يميز كتابات مقدم، تعتمد في كل نصوصها.

⁴⁵³ مليكة مقدم: أدين بكل شيء لسان، ص55

⁴⁵⁴ المرجع السابق، ص ن

⁴⁵⁵ المرجع السابق، ص ن

⁴⁵⁶ مليكة مقدم، الممنوعة، ص105

⁴⁵⁷ المرجع السابق، ص ن

خامسا: اللغة والجسد في كتابات مليكة مقدم

تعد اللغة صورة من صور الحياة فتعكس تماثلات الحياة سواء داخل الأدب أو خارجه، وقد اعتمدت لترسيخ السلطة الذكورية، وفرض وجودها، وعدت وسيلة من وسائلها، التي دعمت الدوغماتية عبر العصور، فقد كتب عبد الله الغدامي عن العلاقة بين اللغة والمرأة وكيف كان لذكورة أن تأخذ السلطة من خلال توظيف اللغة، استلاب حقوق النساء وبأن التأنيث في اللغة لهو حق طبيعي، فيقول في ذلك الجاحظ "أولئك الذين يبخسون النساء أكثر حقوقهن ومن ذلك التأنيث الذي يرد إلى التذكير بدعوى أن ذلك هو الأصل"⁴⁵⁸، بل وقد تجاوز هذا الاستلاب حدود اللغة إلى مجال السرد حيث وظفت الحكاية لترسيخ ضعف المرأة وافتقادها للعقل باعتبارها جسدا مبثور الرأس، إن تكلمت فإن الجن من يسكن لسانها، وهو محتوى الجزء الثاني من كتابه ثقافة الوهم، كيف تغرس هذه الثقافة في الأجيال لتصير بفعل التقادم، حقيقة، فيلبس الوهم لباس الحقيقة ويأخذ مكانها، "تجر الثقافة تصورات تنغرس في الذهن، وتتحول إلى معتقد، أو صورة نمطية ثابتة، وهو ما سميناه بالجبروت الرمزي، وعبر جبروت الرمز، تتأسس ثقافة الوهم، وتصنع أنساقها الخاصة لدى مستهلكي هذه الثقافة".⁴⁵⁹

تحاول المرأة أن تؤسس لخطاب، ضد السلطة الذكورية، مستخدمة أدوات، لتحول نصوصها من مفعول به، إلى فاعل يتحكم في سير الأحداث، وتراوغ في الخطاب اللغوي حيث تصنع أجساد، ترد بها عن نفسها، ولذلك فالحديث عن الكتابة النسوية يقودنا للحديث عن الكتابة بالجسد، والجسد هو مصدر الاختلاف بين الذكر والأنثى، ومصدر اكتساب الذكر السلطة التي منحها لنفسه منذ أجيال غابرة تحددت منذ سقوط النظام الأمومي وبداية النظام الأبوي، لتحاول المرأة إظهار الفحولة من خلال السيطرة على هذا الجسد وإبراز قدراته، كما أن الفلسفة القديمة والحديثة والتي كانت أساس الحضارات السابقة اهتمت بالروح على حساب الجسد،

⁴⁵⁸ عبد الله الغدامي، المرأة واللغة، ص 16

⁴⁵⁹ عبد الله الغدامي، ثقافة الوهم، مقارنة حول المرأة والجسد واللغة، المركز الثقافي العربي، 1998، ط 1، ص 5

واعتبرت هذا الأخير مجرد وعاء لحمل الروح التي تعد مصدر من مصادر إنسانيته وفاعليته، و كان لتقويض السلطة الذكورية وجب إسقاط مصدر اعتلاء هذه السلطة، المتمثل في اللغة لكن اعتمادا على الجسم، وإعطائه الرمزية التي تسمح بأن يكتسب الفاعلية المحققة في النصوص.

وللجسد هوية مكتسبة، حيث تدعو الناقدة "هيلين سيكسو" «بضرورة أن تنصرف الكتابة النسوية إلى الجسد، بل والاختصار عليه، وتدعو النساء إلى وضع أجسادهن في كتاباتهن»⁴⁶⁰ كأسلوب للمقاومة والكينونة المحققة من خلال الجسد، فهو الحقيقة الراسخة والفعالية، لإثبات وجودها، كما أنه لإعطاء الفاعلية لهذا الجسد وجب إعطائه عناية خاصة، تتحدد من خلال هذه العناية فاعليته التي يلعب المجتمع وثقافته دورا أساسيا في تحديد إمكاناته فهو غير الجسم الذي يعد معطى أوليا، "فالجسم مرئي منظور وملمس، بينما الجسد، لا يمكن لمسه أو قياسه، بمعايير كمية إلا من خلال التأويل والرمز"⁴⁶¹؛ ليكون الجسم له وصف مادي محدد في حين أن الجسد هو كينونة رمزية غير محددة على مستوى الواقع، يمكن وصلها بأي شيء آخر.

فقد يعبر الجسد عن العلاقة الملتبسة بالوطن وعن جسد المرأة الأرض فهي مصدر النماء والوجود، كما أنه وسيلة من وسائل التعبير المتعددة حول العلاقات غير مجسدة في الواقع وإنما من خلال الكتابة، والتي يفتح الرمز أبواب التأويل المرتبطة بالجسد ذلك الفضاء المادي، و المحاط بهالة من الغموض التي تبعث في النص نوع من الرهبة ممزوجا مع الرغبة مانحا النص كينونة مكتسبة من خلال حضور الجسد فهو بحث عن الذات هذا ما جعل الكتاب النسوية تعتمد الجسد لتمنح النص كينونة رمزية، مفتقدة على مستوى الواقع.

⁴⁶⁰ عباد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ص 641

⁴⁶¹ رسول محمد رسول: الجسد ذلك المتخيل في السرد الروائي، النايا، دمشق، ط2014، ص1، ص20

تقول في ذلك "إلين شوالتر": «نقش جسد الأنثى، واختلافها على اللغة والنص... ليس علينا إلا أن نجعل الجسد يتدفق من الداخل، وليس علينا إلا أن نزيل كل ما من شأنه تعويق الكتابة الجديدة، والإضرار بها».⁴⁶² تقدم أساليب في الكتابة النسوي، بدأ بطلب نقش جسدها باستخدام تعابير تنبع من داخلها، فالمرأة عاطفية بطبعها وهي لا تريد أن تتخلى، عن طبيعتها كأنتى وإنما المقاومة تكون بأسلحتها التي تمتلكها أساسا وتتقن المراوغة من خلالها، فهي نوع من أنواع الكتابة الجديدة التي تفرض نفسها بقوة، وتستخدمها " وعلاقة الجسد بالنص، تكمن في ذلك التداخل اللساني والواقعي بين المتن والجسد، أي في العلاقة التكوينية التي ينسجها الجسد في النص، فيهبه فيها كل معطياته الإدراكية، تخيلا ومتخيلا ثم في كونه يشكل النموذج المباشر لنص التخييلي."⁴⁶³ فيرتبط الرمز بالواقع ويتشكل منه.

وقد اعتمدت مقدم الكتابة بالجسد في تعابيرها وكذا في تحديد علاقاتها حتى مع الوطن، في كل رواياتها تعطي الجسد وظيفة مختلفة أنه ليس مجرد وسيلة للجنس أو التكاثر، فهو تمثيل طبيعي للحياة، التي كانت تشعر في مرحلة محددة في حياتها أنها تأخذ منها، مجرد أن جسمها مختلف عن الآخر الرجل، حيث ترفض تغطية الجسم وتعتبر أن الحجاب أو الحايك، وسيلة قمعية سلبها حرية امتلاكها لذلك الجسد، لذلك تحاول أن تبرز علاقتها بالجسد، وانه ملكية خاصة بالمرأة لا يحق لا للمجتمع أو لرجل تقرير مصيره، فتتحدث في روايتها (الرجال الذين يمشون) عن رؤيتها للحجاب على أنه مجرد وسيلة أخرى من وسائل القمع، لكبح جماح المرأة، تقول على لسان بطلتها ليلي لإحدى صديقاتها " أن الحايك كفنك الأول. لقد دفنوك حية ... "464. فكل بطلات مليكة مقدم يرفضن وضع الحجاب أو الحايك ويعتبرونه، قمعا مجتمعا لا غير، وأن السبيل للخلاص من قيود المجتمع البالية يجب أن يكون من خلال الاعتكاف على القراءة، فوحدها المدرسة السبيل إلى الحرية.

⁴⁶² عبد العاطي كيوان، أدب الجسد بين الفن والإسفاف، دراسة في السرد النسائي، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط1، 2003، ص 56.

⁴⁶³ الأخضر بن السائح، سرد المرأة وفعل الكتابة (دراسة نقدية في السرد وآليات البناء)، دار التنوير، الجزائر، 2012، ص325

⁴⁶⁴ Malika mokaddem, Les homme qui marchent.p283

فهي كطبيبة تعطي أهمية لكل عضو من الأعضاء والجسم والذي يعد مصدر مصادر الحياة، كما أنها كبدوية ابنة الصحراء أين تعتبر العائلة ، جسما واحدا حيث عانت صعوبة قطع نفسها عن هذا الجسم الواحد فتقول "لقد نجحت في اقتلاع نفسي من الجسم العائلي. أنا أمثل هذا الاقتلاع، جُرَيْئَةٌ، قطعة صغيرة من الجلد بنقائص في كل الحواس. من الأجساد لا أعرف سوى العيوب والابتزاز و الاحتناق."⁴⁶⁵ لتتحدث عن علاقتها بالأجساد والتي تعد مصدر من مصادر الألم عند مقدم.

تربط بين الذاكرة والحواس والجسد لتعبر عن مشاعرها المختلفة في كل مرة فتبدأ روايتها (المتردة) بالحديث عن مغادرة زوجها لها أين تبدأ ذاكرتها في العمل انطلاقا من الحواس "وحيدة هذا المساء في رائحتنا في نسيج القماش في ذاكرة السرير في سبعة عشر من جسدينا. من أنفاسنا المتشابكة"⁴⁶⁶

لتعبر عما يمكن للجسد من أن يحمل من ذاكرة، فيرتبط بذاكرة ارتباطاً يفوق أي ارتباطٍ آخر، فثَقُّعِلُ دور الحواس التي ترتبط بالآخر ارتباط مادي يفوق الارتباط الروحي، ثم تواصل مقدم علاقة الجسد بالعقل وتفعيله هو الآخر من خلال الجسد.

تقول: " في التَّحَامِ جسدينا أستطيع أن أقرأ طويلا إلى أن يقبل النوم ويسقط الكتاب. التحام جسدينا مع الكلمات"⁴⁶⁷. تربط بين الحواس (حاسة اللمس) و القراءة كفعل إرادي عقلي لتجمع بين الروح والجسد وتجعلهم لحمة واحدة متكاملة تعمل كل واحدة على تفعيل دور الحاسة الأخرى ؛ وترتبط أيضا إحساس فقدان زوجها ببتير أحد الأعضاء فهو غير مرتبط بالكلمات فقط؛ وإنما كأحد أطرافها التي تعرضت للبتير وهو القطع الثاني بعد أن فصلت نفسها عن أسرتها يأتي الدور على ببتير زوجها عنها غير أن هذا البتير لم يكن ما تسعى إليه فهو

⁴⁶⁵ مليكة مقدم: المتردة، ص 124

⁴⁶⁶ المرجع السابق، ص 9

⁴⁶⁷ المرجع السابق، ص ن

خارج عن إرادتها " كما لو أنني في حالة من تعرض لبتز ما، ساعة استيقاظه من العملية . حيث يكون الألم ما يزال غائبا، سيأتي الألم حين سيتجسد الغياب. بكامل الوعي بالبتز " 468.

تربط مقدم مختلف أفعالها المضارعة بالجسد ليمثل الجسد حضورا فعليا معنى وحقيقة، بعد أن ألغى ديكرت فاعلية الحواس، التي اعتبرها خائنة وذلك بسبب أنها يمكن أن تقدم صورة مغشوشة، وأعطى الفاعلية المطلقة للفكر الذي لا شك فيه من حيث هو أنه حقيقة، ما أطلق نوع من البرهنة التي تبدأ من الذات كحقيقة كلية إلى الموضوع لاكتشاف العالم، غير أن مقدم تريد تقويض ذلك من خلال انطلاقها لا ثبات الحضور الفعلي انطلاقا من الجسد، الذي يأخذ خبراته من العالم، لتثبت ذلك تجريبيا على مستوى حياتها الخاصة الأكثر حميمية، ليس على مستوى العواطف فقط بل من حيث الوجود الفعلي الذي لا يتحقق إلا من خلال الجسد، " وهذا المذاق الذي يثيره الجسد، يستثير في ذهن المتلقي تداعيات، تفجر في خياله صورا مذهلة، توجه منظور الرؤية عنده إلى اتجاه جديد، تحقق للأشياء بعدها المغاير، فتهدم النظرة المألوفة للحقائق الخادعة. " 469

اللوعوس الجسد يجعل الروح تعود إلى الجسد فالروح تعود إلى نفسها، حين تجعل من الجسد أساسا لها بكل ما تنطوي عليه كلمة الأساس من معنى فهي لا تتعرف على أوجاعها وآلامها وكذا أفكارها إلا من خلال الجسد. فهي "تعمل على الدوام على إظهار جسدها بشكل مغاير، ولكي تغري وتعجب، وتؤسس علاقة مع الآخر، تتخذ الصورة التي تحملها عن ذاتها مكانة أكبر من جسدها الحقيقي و الواقعي، إنها تعطي للعالم قناعا لكي ترتب للجسد مسافة ما. فهي تفضل إبراز التمثل، الذي يحمله جسدها بدل جسدها الملموس " 470

468 المرجع السابق، ص ن

469 الأخضر بن السائح، سرد المرأة وفعل الكتابة (دراسة نقدية في السرد وآليات البناء)، دار التنوير، الجزائر، 2012، ص 317

470 حفناوي بعلي، مرجع سابق ص 137

وقد عُنونَ الفصل الثاني من روايتها (المتردة) بليلة الأجساد الراحلة وهي عبارة أخذتها من قصيدة كتبت عنها من جاراتها السورية بمونوبولي، بعد أن جاءت تحذرها مما قد يصيبها من تصفية جسدية وهو ما تحدثت عنه في بداية ذلك الفصل من تلقيها عديد التهديدات من المتطرفين في فرنسا وحتى في طفولتها في الجزائر بعد أن صار الموت يترصد الجميع سنة 1994 بسبب كتاباتها وكذا طريقة حياتها، وانه تم حرق سيارتها سنة 1990 بعد شهر من صدور روايتها الأولى (الرجال الذين يمشون) ((Les homme qui marche) وكيف أنها لم تكن لها طريقة للمقاومة من غير الغوص في عالم الكتب، الذي أثبت سيرفانتس (Miguel de Cervantes) في روايته دون كيشوت زيفه، ومن خلال الكتابة بعد ذلك، وكيف أن مرضاها لم يتخلوا عنها رغم عديد التهديدات التي طالتهم، بسبب الذهاب إلى عيادتها .

ان تواجدهم كان يمنحها القوة ويوفر لها الأمن والتي لا تستطيع أن توفره لها دولة القانون التي تعيش بها. فيصير الجسد مهدد بالتصفية، محروم من التعبير عن وجوده، فيكون التعبير تهديد للوجود الفعلي، فتتحدث عن التصفية الجسدية لبن علول والطاهر جاعوت صاحب مقولة: "إن تكلمت فستموت وإن لم تتكلم فستموت أيضا، إذا تكلم ومت" ، تقول: "رعثات تطعن نومي، توقظني بعد فترة قصيرة، أفتح عيني في الظلام، فيعبر ذهني قتلُ "طاهر جاعوت" و"عبد القادر علولة" صدري يضغط عليّ. ولكن أعني بشكل مبكر بأن هذه الارتعاشات من طبيعة أخرى، وهو أنني حصلت للتو على لذة، وأنا نائمة"⁴⁷¹ وتربط الألم واللذة.

ويعبر الجسد عن العلاقة الملتبسة بالوطن لتكتب مقدم بجسدها علاقتها بالوطن فهو الشخصية الرئيسية في كل كتاباتها، وسواء كانت تكتب حينها إليه أو عتابها له، فيكون جسدها هو المعبر له، "لم أكن أتصور أبدا أنني أستطيع العودة يوما إلى هذه المنطقة. ومع ذلك لم أبتعد عنها بشكل نهائي أبدا كل ما فعلته هو أنني ألحقت

⁴⁷¹ مليكة مقدم، المتردة، ص108

الصحراء والحزن الشديد إلى جسمي المهجر وبقيت مجزأة بيننا"⁴⁷²ارتباطها بالجزائر لم ينتهي بمجرد هجرها فقد كانت الصحراء جزءاً من ذاتها. فكل نصوص مليكة مقدم تتحدث عن الصحراء والكثيب فلا تخرج عنهما إلا للحديث عن البحر فهو الفضاء الثاني الذي يعبر عن تقلباتها ويمتص شعورها بالوحدة.

لتتحدث في روايتها عن عديد الأماكن التي كونت شخصيتها، كواحدة من البدو الرحل الذين استوطنوا الصحراء، انتقل مقدم من الصحراء إلا وهران وقبلها من البراغ إلى مدينة بشار وإقامتها بعيداً عن أهلها، أعطتها فرصة لتعيش ما تريد، وتعرف الحرية بعيداً عن الجسد الأسري الذي قررت أن تقطع نفسها عنه بعد ذلك، تواصل سلسلة التحديات لأسرتها برحيلها إلى فرنسا، وبحثها عن جسد بديل لذلك الوطن والمتمثل في زوجها فتقول: " أصبح جسده قارتي"⁴⁷³ فهي تبحث عن الانتماء، كتعويض عن العلاقة الملتبسة بوطنها "تقول كنت قد غادرت الجزائر مفلسة تماماً، لم تكن تمنني إطلاقاً المنح الدراسية التي تمول الدراسات العليا في الخارج، فمن الأفضل أن أشتغل طبيبة ليلية وأن أتقاضى مرتباً غير معلن، الأفضل أن لا أدين بشيء لهذا البلد، لا شيء. كنت أعتقد أنني أكرهه كما اعتقدت، أنني أكره أُمِّي"⁴⁷⁴ وفي ذلك تصريح مقدم بعلاقة أخرى غير طبيعية مع أمها، وربطها ببلدها الأم وذلك من خلال وصل جسدين مختلفين، يوفران المشاعر ذاتها.

لا يتوقف الجسد عند حدود التواجد الإنساني فقد يعطي رمزا لكل الأشياء النابضة بالحياة وحتى الأشياء التي توحى برهبة العالم كالبحر والصحراء والوطن، وهو ما تكتبه مقدم في كل رواياتها.

⁴⁷² مليكة مقدم: المنوعة، ص 23

⁴⁷³ مليكة مقدم، رجالي، ص 81

⁴⁷⁴ مليكة مقدم، المتمردة، ص 105

1- البحر كجسد:

يحمل البحر دلالات كثيرة تتوقف على طبيعة رؤية الأشخاص له والذي أخذنا اهتماما كبيرا من طرف الشعراء والأدباء الفنانين والرسامين، ذلك لأن البحر يجسد قوة من قوى الطبيعة المليئة بالحياة فهو عالم لوحده، وله قدرة رهيبية على امتصاص مختلف الأوجاع النفسية من اكتئاب وحزن وهو في نفس الوقت يمنح رهبة بالوجود. فالبحر كجسد له حركته وحدوده قادر على الإيحاء بتجديد الحياة ومنح الإنسان فرص كثيرة ليكون آخر، كما أنه بحركة المد والجزر يعطي فرصة إعادة البناء والتهيئة أو الترميم الذاتي للأشياء ويعبر من خلال الحركة بعدم الاستقرار والثبات وبالتالي فالبحر له القدرة الفائقة على توليد الأحداث

يحمل البحر في داخله أشياء عديدة وكائنات حي فهو يملك القدرة على الاحتواء ليكون مصدر وجود تلك الكائنات التي لا قدرة لها على العيش خارجه، فهو يحمل صراعاتهم لترتبط كينونته بهم كوحدة وجودية، تمنحه جسديته مركبة "فجسدية البحر، تنتج ذاتها في ذوات الآخرين، فقد يتلع البحر بعض البشر، لكنه يمنح الكثير من العشاق أساطيرهم الخالدة، أولئك الذين تضيق بهم اليابس فيجدون في جسديته البحر ملاذ خلودهم الذاتي"⁴⁷⁵ تمنح السباح في البحر فرصة للجسد بالمقاومة وتحدي المجهول.

فمقدم تحب أن تقوم بـ "الكتابة عن الصحراء على سرير البحر"⁴⁷⁶ لتجمع بين جسدين مختلفين وهي تتحدث عن رهبة البحر عند اختفاء اليابسة "تحس بأننا في نهاية العالم، هذا ما أعشقه الوصول إلى نهاية العالم، التعب هموم الحياة سرعان ما تنطفئ"⁴⁷⁷ ليمتص البحر ارهاقها طول عام من العمل المضني بين الأجساد المريضة والأسرة الواقفة، فهي تعاني الأرق الدائم الذي يزول في سرير البحر.

⁴⁷⁵ رسول محمد رسول: الجسد ذلك المتخيل في السرد الروائي، ص 46

⁴⁷⁶ مليكة مقدم، المتمرتدة، ص 91

⁴⁷⁷ مليكة مقدم، المتمرتدة، ص 91

تربط مقدم تواجدها في البحر بالأجنة في أجساد أمهاتهن حين يكون الجنين ضعيفا لا حول له ولا قوة "مسلمات المجلات الطيبة تعود لتصدم في رأسي الكليشيهات التي تقارن ما بين النوم في قارب وسعادة الجنين في سَخده" ⁴⁷⁸ وهي لا تؤمن بذلك أبدا إذ أن ما تحسه من حرية قصوى داخل القارب لا يشبه حالة التبعية الكلية التي يعيشها الجنين غافلة عن ارتباط حريتها في البحر بذلك القارب الذي يقاوم قوة الطبيعة، أين تلتقي زرقة السماء مع زرقة البحر.

فالحرية التي تحسها مقدم وهي في البحر وهم، فهي مجرد حالة شعورية، مثلها مثل قيد المجتمع، لتكتب روايتها(نزيد) الذي تجد بطلتها "نورا" نفسها في قارب في البحر لكن بدون ذاكرة كجنين في بطن أمه مرة أخرى، فتنبعث من جديد بحثا عن هذه الهوية من خلال البحر كفضاء استشفائي.

2- جسدية الصحراء:

تعد الصحراء جسدا متحرك يشي بالرهبة والسكينة والمجهول على حد سواء "اللافت في جسدية الصحراء الناعمة أنها متحوّلة، بتحوّل الكثبان الرملية، التي تتحرك بسببية طبيعية، فقد تودع الصحراء ليلا لتنام تحت ضوء قمرها أو نجومها، لكنك تستيقظ صباحا لتجد الرمال التي كانت تحيط بك ليلا وقد ابتعدت عنك شطر مكان آخر لتخلق كينونة جسدية مغايرة لنفسها، وذلك هو كلام الصحراء" ⁴⁷⁹

هذه القدرة على التغير تمنح الأحداث في النصوص حركية وروح متجددة تبعث على الحياة، حيث تكتب مقدم الصحراء في كل رواياتها، تمنحها روحا لا جسدا فقط فهي بمثابة الأم التي تحنو عليها في طفولتها، تراقص أحلامها رياح الكثيب، وتمحو المواقف السلبية من حياتها وكأنما رمال الصحراء مسخرة لتعوضها عن حالة النقوس

⁴⁷⁸ المرجع السابق، ص ن

⁴⁷⁹ رسول محمد رسول: الجسد ذلك المتخيل في السرد الروائي، ص 44 .

التي تعيشها. سواء من قسوة الأب، وغياب فاعلية الأم لتعوض مختلف أحاسيسها السلبية من خلال جسدية الصحراء.

فالكثيب "هو السرير الذي آني إليه من أجل أن أجمع من هنا، ومن هناك بقايا المستحيل"⁴⁸⁰ لتعوض بالكثيب ما ينقصها في بيتها فهو الدفء والحنان الذي لم تجده في بيتها ووسط أسرتها لتكون الصحراء جسدا يحمل أجساد أسرتها، لتبحث عن الصحراء في زرقة السماء في مونوبولي فهي دائمة العودة إلى ذلك الجسد كلما شعرت بالقلق أو الوحدة فتقول "كانت عيناها مشدوهتين إلى السماء بحث عن زرقة الصحراء، دون أن تعثر عليها، كانت الهوة فوق الرمال، لم يكن ذلك حينها، ولن تعود سلمى لتعيش في الصحراء، مهما كان الأمر، ليس ذلك خوفا من رؤية رشقات الماضي تنهمر عليها"⁴⁸¹

الارتباط الوثيق بين الصحراء وطفولة مليكة مقدم، وخوفها من مواجهة بعض المواقف والصراعات في الصحراء لم يمنعها من أن تبحث عن سمائها في مونوبولي فالصحراء بالنسبة لمقدم هو السجن الذي احتضن طفولتها و مراقبتها وبين تحقيق كينونة الصحراء المرئية في حركتها الدائمة، الباعثة على الحياة وفي إيحاءها إلى الماضي باعتبارها سجن مليء بالذكريات التي تقرر الكتابة مواجهته من خلال الكتابة ورفع حصار الماضي، وتمثيله في رواياتها، لتخلق أجساد عديدة تشاركها حريتها، فتقول في ذلك (أحلام مستغانمي) في روايتها (فوضى الحواس) "لا مساحة لنساء خارج الجسد."⁴⁸²

⁴⁸⁰ مليكة مقدم، المتمرده، ص 88

⁴⁸¹ مليكة مقدم: أدين بكل شيء لنسيان، ص 11

⁴⁸² أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، منشورات أحلام مستغانمي - لبنان، ط 2003، ص 2، ص 305

3- المدينة كجسد:

للمدينة جسدية حميمة تؤثر على الكينونة، وكيفية فرض هذه الكينونة فهناك مدن نسكنها و أخرى تسكننا، فتحدث مقدم في كل روايتها عن ثلاث مدن تسيطر فضاءاتها على تكوين شخصية مقدم التي تنتمي إلى البدو الرحل، بدأ بالمدينة التي حملت طفولتها و مراهقتها وكذا أحلامها في القصر حيث ولدت في مدينة بشار، المدينة التي حملت فيها، وهران بما تحمله هذه المدينة الحية الجميلة" وهران الآهلة بالسكان، هذه المدينة الساحرة والضاحكة وغير المحتشمة"⁴⁸³ فتعطيها جسدا نابض بالحياة، لتنتقل إلى مدينة أخرى كان انتقالها إليها خارج تخطيطها وإنما من أجل الرجل الذي أحبه "قدمت إلى فرنسا سنة 1977 من أجله، من أجل الرجل الذي افتقرت عنه للتوّ. ولو أنني لم ألتقه كنت سأذهب إلى كندا، في الجزائر كان اختياري الأول من أجل هذه الصحراء البيضاء. أمّا فرنسا فقد كانت موعلة في القرب. قربٌ جغرافيٌّ، عزّزه تاريخ مشترك. لم تكن عندي أدنى رغبة في معاودة مشاهدة المظاهرات العنصرية، وتمزقات الحرب"⁴⁸⁴ غير أنها تجد تعويض آخر من خلال الرجل الذي أصبح قارئها ليعوضها عن الحرمان الذي عاشته بسبب اقتطاعها من أهلها وبلدها.

4- جسدية السرير:

هناك جسد آخر لا يقل أهمية عن سابقه، بل يدخل في تشكل سابقه، ولشدة معاناة مقدم من الأرق الذي أصبح هاجسا فهي تبحث عن ذلك السرير في صحرائها وحتى بين أمواج البحر.

يكون السرير رفيق مقدم والعديد من النساء اللواتي قررنا، الخوض في تفاصيل حياتهن كأحلام مستغانمي في كتابها(عابر سرير)، و مقدم التي تبدأ روايتها (التمردة) بعنوان (السرير الواقف) فالسرير ليس مجرد شيء ككل الأشياء التي تستخدم في الحياة وإنما هو رفيق يمتص أعباء اليوم، يشاركها حميميتها ، سواء الأوقات التي جمعتهما

⁴⁸³ مليكة مقدم، التمردة، ص102

⁴⁸⁴ مليكة مقدم، ص104

بالزوج أو حتى تلك التي أرادت أن تعزل فيها نفسها عن العالم، ليكون الرفيق الوحيد ليليالي السهر والأرق التي كانت تعاني منها الكاتبة وبكثرة سواء في الجزائر أو في فرنسا على حد سواء، لتعطيه مقدم ذاكرة، فتجعل منه كائناً حياً" "وحيدة هذا المساء في روائحنا في نسيج القماش في ذاكرة السرير في سبعة عشر من جسدنا."⁴⁸⁵

ثم تتجاوز ذلك لتجعل لذلك السرير روح لا جسدا فقط فتقول "أدور وأستدير في السرير. ومن العبت أن أقول لنفسي إن كل هذا لا يوجد إلا في رأسي، فالأنفاس تنبع من الشراشف، وتكتسح تنفسي، في أدني حركاتي."⁴⁸⁶ ليكون السرير الجسد الذي منحه مقدم روحا ليرافق وحدتها، وهو المكان الذي تقضي فيه الكثير من الوقت في القراءة أو الكتابة. ويحيل السرير إلى رغبتها في الانتماء وشعورها الدائم بعدم الانتماء، فهو استقرار تبرز به مقدم شعورها الدائم بالاغتراب، وهو أيضا تعويض مجاني عن حالات القطع سابقة الذكر.

وإننا بحدیثنا عن جسدية بعض الأماكن لم نخض الحديث في تجليات المكان وأسنتها وذلك لأنه تم تخصيص عنوان لذلك في الفصل الثاني.

إن الإقصاء الذي تعيشه المرأة، كوجود فعلي، جعلها تركز لغتها حول الجسد، ليس لإظهار مفاتها كما قدم ذلك عديد النقاد والباحثين، وإنما هي مجاهدة جسدية داخل الكتابة، ذلك لإعطاء وجود فعلي ملموس يقابل سنين من الإلغاء الوجودي.

فالرجل يخوض الحديث عن جسد المرأة لإعطاء طابع إغوائي لغرض الإشهار، ولفت الانتباه من خلال الخوض في الطابوهات، ليكون الأمر شبيها باستخدام المعارضات الجميلات أمام السيارات الفخمة في المعارض للفت الانتباه للمنتج، وهو نوع من أنواع الدعاية الإعلامية، فبرغم تمرد مقدم في الكتابة وخوضها في الحديث عن علاقاتها الجنسية فهي توظف الجسد لتصنع له لغة خاصة به في محاولة امتلاك الجسد الذي يعد في الثقافة التي

⁴⁸⁵ مليكة مقدم، المتمردة، ص 9

⁴⁸⁶ مليكة مقدم المتمردة، ص 9

ولدت فيها مقدم وأين نشأت وترعرعت محرماً "إنهم ليسوا إلا وجوه الحقد التي رعبت طفولتي، إن الأنظمة والأحزاب، تعيش، تهرم، تموت، أما بغض النساء فيبقى لاصقاً بالدهنيات، يتغذى بالهزائم، ويتقوى"⁴⁸⁷ لأنه في تلك الفترة كانت تزوج البنت في سن صغير دون العودة إلى رأيها، وتحرم عيش طفولتها وأيضاً حرمانها من الذهاب إلى المدرسة، فينظر إليها على أنها مجرد عورة خلقت لتلبية حاجيات الذكر، وتكون جزء من متاعه، فإن مات زوجها، قدمت لأحد إخوته وكأنها جزء من التركة دون العودة إلى رأيها، فهي ناقصة عقل ولا تملك من أمرها شيء، ولا تعطى حقها في الميراث خوفاً من ضياع أموال العائلة لأنها لا تحسن التصرف به وقد يأخذ الزوج وهو من خارج العائلة.

كل هذه الممارسات التي لم تكن مشيئة الله بل مشيئة الأعراف والتقاليد الخانقة في مرحلة لم تكن إلا الخرافات مرجع للحكمة الرجالية، وهذا ما سنفصل فيه بجدينا في ثناية المقدس والمدنس، أما الجسد فقد كان خطاب تلتسمه النساء تأخذ حريتها و تنعتق من سيف شهريار الذي سلط على رقابهن لدهر من الزمن. فيقول كل من فيليب لوكا وجان كلود فاتان⁴⁸⁸ في كتابهما "جزائر الأنثروبولوجيين" "حيث تشتري المرأة بالمال وهي كائن خلق للمتعة الجنسية والعمل في المنزل؛ فهي أم في سن الثانية عشر على الأكثر، عجوز في الثلاثينات وبعبارة أشمل حيوان بآتم معنى الكلمة إلى غاية أرذل العمر."⁴⁸⁹

كل هذا يعبر عن استغلال الأنثى في أعمال تفوق قدراتها ورغباتها ويعبر بالدرجة الأولى عن عدم امتلاكها لجسدها وعن عدم معرفتها له، فهو غريب عنها بما أنها لا تملكه وهي غريبة عنه بما أنها لا تمتله، هذا ما جعل مليكة مقدم وعديد الملكات يتمردن على قدرهن ويفرضن إخضاع الجسد لرغبات المجتمع أو الآخر، ورحن يغرقن

⁴⁸⁷ مليكة مقدم، الممنوعة، ص 136

⁴⁸⁸ عالماً إجتماع وأنثروبولوجياً، فرنسيان قدما إلى الجزائر

⁴⁸⁹ ينظر: معج باحثين، هلال بسمه، المجتمع الجزائري من خلال الكتابات الأنثروبولوجية، "صراع الجسد الأنثوي بين الكشف والحجب نظرة أنثروبولوجية من خلال الكتابات الكولونيلية، مركز المدار المعرفي للأبحاث الدراسات، الجزائر، 2021، ط 1، ص 333.

نصوصهن في التعبير عن رغبات هذا الجسد الذي يملكه "إن الجسد الأنثوي المشتهى لا يبقى راقدا ساكنا، بل تحركه اللغة، فتعيد إليه حيويته، وانطلاقاته، وتتحول حركية السرد فيه إلى عملية مغرية، نلمس فيها الغواية والإغراء، والأناقة التي تحقق للنص لذته، وواقعه المشتهى."⁴⁹⁰

⁴⁹⁰ الأخصر السائح، المرجع السابق، ص 318

خلاصة الفصل:

تكتب مليكة مقدم بلغة خاصة وشاعرية، وبالرغم من جمال لغتها المفعمة بالفن والموسيقى، غير أنها تبرز اغترابها ومختلف صراعاتها، محاولة من خلال لغتها الخاصة تعويض حالة اللاانتماء التي تعيشها باستخدام التهجين على مستويات عدة بدءا بتهجين اللغة والثقافات وصولا إلى تهجين الأشخاص، وعملت بذلك على بسط سلطة السرد وإعادة كتابة تاريخ خاص بها معتمدة توظيف الأساطير، كما أنها تكثف لغة الجسد، حيث تجعل الأشياء كائنات حية تتنفس تشعر وتحب وهي بذلك تحاكي الحركة النسوية التي طالبت باستخدام الجسد كلغة تعبيرية عن وجودهن، وهو نوع من فرض الوجود بالقوة.

الفصل الثالث: الثنائيات الكونية في خطاب الهوية بين المقدس والمدنس

توطئة

أولاً: ثنائية الدين والإلحاد في كتابات مليكة مقدم

ثانياً: ثنائية المرأة و الرجل في كتابات مليكة مقدم

ثالثاً: ثنائية المركز والهامش في كتابات مليكة مقدم

رابعاً: ثنائية الأصالة والمعاصرة في كتابات مليكة مقدم

خامساً: ثنائية الحرية والهيمنة في كتابات مليكة مقدم

خلاصة الفصل

الفصل الثالث: الثنائيات الكونية في خطاب الهوية بين المقدس والمدنس:

توطئة:

تقوم حياة الإنسان مع الإنسان على فكرة الصراع الوجودي للبقاء أساسا، ومن خلالها عمل على إدخال ممارسات وتقاليد اكتسبت بالتقادم طابعا مقدسا، لتتشابك الميثولوجيا مع الفلسفة والتاريخ والدين فتنشأ ثقافة شعبية خاصة، أصبحت تتحكم في سلوكيات الإنسان ومعتقداته وتسيرها كجزء منه "ويدلنا التاريخ القديم أن العرب كغيرهم من الشعوب بل وربما أكثر من غيرهم قد أدخلوا صفة القداسة على كثير من الأشياء ونزعها عن الكثير ويذكر في هذا الصدد أن عمر بن الخطاب قطع الشجرة التي حصلت تحتها بيعة الرضوان، مخافة أن يعبدها العرب"⁴⁹¹ وقد عبد اليهود قبلهم البقرة رغم رؤيتهم لانشقاق البحر وغرق فرعون، وذلك لحاجة الإنسان إلى الإيمان بقوة خارقة تفوق قوته، فعبدوا الشمس والقمر والمطر والأصنام، وغيرها من قوى الطبيعة، لتعطيها طابع القداسة.

وقد تحولت الأنثى من المقدس في مرحلة سابقة لدى الشعوب البدائية (الطوطمية) التي كانت ترى أن المرأة هي مصدر الكون فهي من تلد فتعطي الحياة وهي سبب في استمرار الجنس البشري، فكانت هي من يخرج للصيد ويقوم الزوج بتربية الأبناء.

غير أن ذلك لم يدم طويلا فمع تحول المجتمعات إلى الزراعة، أصبحت تشق عليها الأعمال خاصة في فترة الحمل وأوكلت المهمة للزوج أين أصبح هو المعيل، ليتحول النظام المجتمعي إلى نظام أبوي، فأخذ الرجل قداسته الكاملة وعمل على ترسيخها من خلال اللغة والديانات فمثلا: الديانة اليهودية ترى أن المرأة هي مصدر الخطيئة الأولى لأن الحية أغوتها وهي أغوت آدم عليه السلام، ليرتبط اسم المرأة بالحية وإبليس، وتسقط عليها صفاتهما من

⁴⁹¹ميريسيا الياد: المقدس والمدنس، ص8

إغواء وخداع ومكر وخيانة، كما تعتبر اليهودية المرأة نجسة فلا يمكنها أن تلمس الكتاب المقدس، ويمنع عليها حتى الأكل والجلوس مع الزوج لأنها نجسة بسبب الحيض والنفاس والذي يكون بمثابة عقاب إلهي، فهو لم يتقبل توبتها في حين غفر لآدم عليه السلام.

تسير المسيحية على خطى اليهودية بعد ذلك، وحتى الإسلام فقد اعتمد الطبري في تفسيره للقرآن ما جاء في كتاب العهد القديم، وهكذا يكون المجتمع وراء إكساب المقدس قداسته وطمس ولعن ما أراد أن يجعل منه مدنسا وقد تم تداول هذه الأفكار والأساطير لتصبح جزء لا يتجزأ من حياة الفرد، فتدرس في المدارس، وتستهلك كثافة جماهيرية من خلال وسائل الإعلام والتواصل المختلفة فينشأ عليها الأفراد، وتغرس فيهم "لتفرض وجودها على الإنسان تحت عنوان مقدس بينما في أصلها تتبع من ميثولوجيا ابتكرها الإنسان عبر تاريخه الطويل، وجعلها قيذا على فكره وحرثته كما جعلها أداة قمع وقهر واستغلال".⁴⁹²

لتكون هذه الثنائية مصدرا لتكوين ثنائيات عديدة، أو أنها تسقط على غيرها من الكلمات، فتندنس بعضها، وتغرقها في وحل التدنيس، في حين أن بعض المصطلحات وبفضل التقادم تصير مقدسة، وكلاهما تصنع جدلية صراعية من أجل البقاء، وفي فصلنا هذا سنتطرق إلى الثنائيات الكونية التي قدستها مقدم أو دنستها لسبب أو آخر، حيث تركز مقدم في كتاباتها على بعض العادات والممارسات الثقافية والاجتماعية، وتنتقدها بقوة، تصل في كثير من الأحيان إلى تدنيس المقدسات، عن سابق إصرار وترصد، وهذا ما سنتحدث عنه في هذا الفصل اعتمادا على الثنائيات الكونية كخطاب للهوية التي تشكله مقدم في كتاباتها.

⁴⁹²ميريسيا الياد: المقدس والمدنس، ص10

أولاً: ثنائية الدين والإلحاد في كتابات مليكة مقدم

تعد هذه الثنائية لصيقة بالهوية، لما يفرضه الدين من تشكيل هويات الشعوب وانتماءاتهم، كسلطة كونية حددت منذ الأزل العلاقات الإنسانية وحدودها، وممارساتها وعلى ضوء الخلفية الدينية تتكون الخلفيات الثقافية الأخرى، ولا تخفى الحمولة الدينية عن أي نص من النصوص، يريد الكاتب أن يبلور أفكاره وتوجهاته الدينية من خلال ما يكتب في نصوصه، أين اتبعت مليكة مقدم النسق الفكري الغربي الذي أفرزته الحداثة وما بعدها، من تشويه الدين وإتباع سبيل الإلحاد، كما فعل مفكرو ما بعد الحداثة.

1- العدمية في كتابات مليكة مقدم

تكتب مقدم عن علاقتها بالدين، من خلال رفضها لمختلف الممارسات والعبادات، وتتجاوز ذلك الإشهار بإلحادها في كل فرصة سانحة، لتوضيح نزوحها إلى العدمية⁴⁹³ Nihilism وهذا ما تذهب إليه في حديثها عن الموت من خلال حوار بين الطفلة "دليلة" والمسافر "فنسان" في روايتها المتنوعة:

" لماذا يقول الناس دائماً الأكاذيب حول الموت؟.."

يقولون بأن الأموات يذهبون إلى الجنة، إلى السماء

لأنهم يؤمنون بذلك، هل هذا ما يصدمك؟

الأموات، يقعون تحت الأرض. لا يذهبون إلى السماء. لو كان كل الأموات يذهبون إلى السماء لأصبحت سوداء من الناس، أكثر مما يمكن أن تكون مع الجراد! حينما مات كلي دفنه أبي هناك. بعد أسبوعين، ذهبت إلى القبر وحفرت. أردت أن أشاهده بنفسه. كان جسم كلي مثقوباً بالديدان، ديدان ديدان لا تحصى، تنبعث منها رائحة

⁴⁹³ العدمية: مذهب فكري يجنح إلى الشيء، أين تفتقد الحياة إلى القيمة، وتنتهي في اللاشيء، وهو إنكار لكل فكر إيجابي.

كريهة.... هذا هو الموت. اللجنة عث من الديدان، فح من التراب المتعفن وحياة الناس تسقط دائما داخله"⁴⁹⁴ العدمية في المبعث تقود إلى العدمية في المآل، اعتبار الإنسان جسدا مفرغا من الروح ينتهي في حفرة مع عش للديدان، أسس مفهوم مقدم الإلحادي، عدم الإيمان باليوم الآخر والحساب والعقاب، وانتهاء حياة الإنسان في حفرة.

هذا الفكر الذي اتبعه بعض كتاب العرب ، أمثال أدونيس، بوجدره، وكمال داود وغيرهم، ممن أنكروا الذات الإلهية، وسبب الوجود الإنساني وكذا مآله بعد الموت، كل هذا الإنكار .

جاء من منطلق غربي، أين أدى طغيان الكنيسة وغرقها في الخرافات وعملها على اضطهاد المفكرين واتهامهم بالزندقة، وقتل بعضهم(سقراط، قاليلى) ليصبح الدين عائق في وجه الحياة، مظهرها من مظاهر التخلف والسيطرة ليتخلى الإنسان الغربي، عن إيمانه فيعلن نيتشه موت الإله "فقد عد الإله مجرد ابتكار، اخترعه الإنسان ليقيد نفسه به، فعلى الإنسان حسب نيتشه أن يخلع عنه براءته ويعلن إلحاده، لأن الإلحاد يحرر من البراءة، وينتصر للغرائز، ويفجر إرادته القوية وعندما نجد للإله نقض العالم و نصوغ مملكتنا الجديدة." ⁴⁹⁵ ورفع الإنسان ليحل محله، فأتج الإنسان الخارق Super man، لأن الإنسان في حاجة إلى الخوارق دائما الغيبيات حاجة ملحة للإنسان، لقيام التوازن في الحياة.

غير أن نيتشه في محاولته إعطاء الإنسان السلطة المطلقة على ذاته، غرق في خيال صنيعه فالإنسان لا يمكنه أن يكون خارقا وهو ينتهي في حفرة مهينة، كما أن حاجة الإنسان لهذا الخارق الذي راح يمارس مهام الإله، يكرس لفكرة ضعف الإنسان وحاجته لقوى غيبية ترعى طريقه. حتى أن مليكة مقدم جعلت من سلطانتها في رواية "الممنوعة" خارقة لا تموت ولا تقهر لا تخاف قوى الظلام المنتشرة في تلك المرحلة، وتتحداها بكل قوة.

⁴⁹⁴ مليكة مقدم، الممنوعة، مرجع سابق، ص71

⁴⁹⁵ فريديريك نيتشه، أفول الأصنام، تر: حسان بوقرية ومحمد الناجي، دار أفريقيا الشرق، ط1 بيروت 1996، ص56

تمارس الممنوعات على مرأى الجميع ، سلطانة مقدم خارقة ومتعددة تحمل العديدة من الذوات، تقول " أصبح جسيمي من حديد، أطويه .أكسره. أكومه وأجلس مقابل عتبة شاغرة."⁴⁹⁶ تتحدث مقدم عن إلحادها في أغلب رواياتها تقول «أنا ملحدة منذ بلغت الخامسة عشر. كم يربحني أن أستطيع أخيرا إعلان ذلك والمجاهرة به، فذلك الاعتراف محفوف بالمخاطر في مجتمع من أقل المجتمعات تسامحا»⁴⁹⁷ هذا الاعتراف يحدد موقف مقدم من الدين وبالرغم من نزوعها إلى العدمية غير أنها تختار الإلحاد طريقا لها، في رفضها لمختلف القيود، وإصرارها على التمسك بالحرية المطلقة في القول والفعل، فتشهر وتجاهر بإلحادها وبسعيها إلى إشباع غرائزها المختلفة.

وهنا نوضح الفرق بين الإلحاد والعدمية من خلال قول لجان بول سارتر «أعترف بالثقب الذي شكله الله في الوعي الحديث، واجبنا هو رفض الإلهوية التي تنفي حريتنا».⁴⁹⁸ والملحدون يصرحون بإلحادهم فهم يعدون الدين عائق في وجه الحرية، غير أن كليهما(جان بول سارتر، ومليكه مقدم) يجنحان للعدمية في فكرهما مع تصريحهما بإلحادهما، أما العدميين فلا يهمهم الاعتراف بذلك، لأن وجود الله أو عدمه سواء. تلح مقدم على إظهار توجهاتها الإلحادية فتقول في روايتها رجالي «ليس لدي سوى هذه الحياة يا أبي. أنا لا أومن بالأبدية التي تصلي لها.»⁴⁹⁹ فهي توضح أنها لا تؤمن بوجود حياة أخرى بعد الموت، كما تؤكد على اختلافها مع والدها في هذه الهوية الدينية، أين ترفض الممارسات الدينية، التي تعد بالنسبة لها مجرد طقوس من العادات والتقاليد، التي نشأ عليها الأفراد.

مقدم تدرك أن الجهر بالمعصية مخالف لشريعة لما يسببه من فساد في الأرض، وجرأة وتحدي للذات الإلهية فتقول "تلك الحياة التي تبقى محرمة عليك سوف أكتبها حتى النهاية. إنني أجاهر بغرامياتي المتعاقبة التي كان

⁴⁹⁶ مليكة مقدم، الممنوعة، مرجع سابق، ص127

⁴⁹⁷ مليكة مقدم، رجالي، مرجع سابق، ص 62

⁴⁹⁸ كارين أرمسترونغ: النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، تر: محمد الجوار، دمشق، دار الكلمة، ط2005، ص1، ص387

⁴⁹⁹ مليكة مقدم: رجالي، مرجع سابق، ص20

بعضها "كافراً" فهي تجسد حرية وجودي في هذا العالم⁵⁰⁰، و قد جاء في صحيح مسلم عن أبا هريرة رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((كلُّ أُمَّتِي معافاة إلاّ المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً ، يسترّه ربّه، ثم يصبح ستره ربه فيقول: يا فلانُ!، قد عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربّه، فبيّت يستره ربّه، ويصبحُ يكشفُ ستر الله عنه)).⁵⁰¹ معرفة مقدم بهذه الجزئية يدل على أن مقدم لها ثقافة دينية، المجاهرة جاءت باللفظ الصريح في السنة لا في القرآن الكريم .

2- الدين والمجتمع في كتابات مقدم:

إن مقدم لا تفرق بين المحظورات في الممارسة العلنية، سواء كانت هذه المحظورات مفروضة من الله أو من البشر فهي لا تفصل بين الاثنين بل تعد الأولى سببا في تكريس الثانية للحفاظ على الأولى لتخوض مقدم في رواياتها المدروسة الحديث عن الدين وعلاقته بالعادات والتقاليد.

أين تتحول المقدسات إلى مدنسات، ترفض بطلات مقدم، الخضوع لأيّ قيد من القيود فيشعرون بالاشتمزاز من العبودية، وإخضاع أجسادهم لممارسات مهينة من المفترض أن تحافظ على عفتهم. يرفضن الزواج بسبب العادات والتقاليد الممارسة في الزواج وقد أثارت مقدم في رواياتها عديد القضايا التي قدسها المجتمع وأخرى دنسها أو أن مقدم من دنستها لسبب أو لآخر.

⁵⁰⁰ مليكة مقدم، المرجع السابق،، ن ص

⁵⁰¹أبي الحسينمسلم، بن الحجاجصحيح مسلم، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2003، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، ، (59/8)، برقم: (2990)ص 755.

الزواج رابط مقدس وسنة كونية، يقول تعالى في سورة الروم {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} ⁵⁰² الزواج آية من آيات الله في الكون، غير أن مقدم ترى بأن الزواج منظمة فاشلة بسبب الطقوس التي تمارس لذلك .

بدءًا بالحفاظ على العذرية من خلال ما تقوم به بعض العجائز فيما يسمى "بالتصفيح" وقد عاشت هذه التجربة في صغرها فتحدثت عن ذلك في كتابها (الرجال الذين يمشون) وهي رواية سيرة ذاتية، تروي على لسان بطلتها ليلي حيث قامت والدتها يمينه وحالتها مريم بحبسها في غرفة وعلى الرغم من احتجاجاتها شرعت في التحقق من عذريتها ثم "ربطها"، قام زوجان من العيون المشبوهة بلفها بينما أمسكها زوجان من الأيدي، تكافح ليلي. مقاومة عبثية. لقد مزقوا بالفعل ملابسها وبسطوا فحذيها. وبعد التحقق من عذريتها، قامت يمينه بتقويمها وأمسكتها في قبضتها بينما قامت مريم بأداء ألف حيلة تهدف إلى الحفاظ على "فضيلتها"، أقفلت قفلاً صغيراً، وربطت حزاماً صوفياً عدة مرات، وتمتم بكلمات غير مفهومة. ⁵⁰³ هذه الطقوس الشيطانية تعلمتها النسوة في فترة الاستعمار، كي لا تتعرض الفتيات للاغتصاب، وأصبحت من العادات التي لا تستغني عنها العجائز، تقول: "كان لدى الجميع هاجس واحد فقط: وهو ظهور ثوب نسائي ملطخ بالدماء. إن هذا العنف كان يحول الطفلة إلى امرأة متجمدة إلى الأبد. كانت المتعة محجوزة للرجال." ⁵⁰⁴

إنّ العائلة كلها تتعرض للاحتقار، تذيب البنات إذا لم ينزفن، ترفض مقدم ممارسة العلاقة الحميمة تحت رقابة العائلة والمجتمع، الذي يعد الحديث عن هذه العلاقات خدشا للحياء وابتزازا للأخلاق غير أنه يختلف الأمر في ليلة الزفاف أين ينتظر الجميع ذلك الفستان الملطخ و حيث يقمن بالباسه للفتيات حتى يسرن على درب الشرف والعفة الذي يطلق على العذرية، وتعتبر مقدم هذه التصرفات عنف مسلطا حول البنات، يزوجن

⁵⁰² سورة الروم، الآية 21

⁵⁰³ Mokeddem Malika (1990), Les hommes qui marchent, Paris, Grasset, p 241

⁵⁰⁴ Mokeddem Malika (1990), Les hommes qui marchent, Paris, Grasset ,p 239

الفتيات، في سن صغير. دون حول لمن و لا قوة، فيستشرون ولا يؤخذ برأيهن ولا يحق لمن القبول أو الاعتراض على الزوج لتتحدث أم العريس في روايتها (رجالي) تقول: "قالت إنها لا تريده"⁵⁰⁵. لتزد عليها أم البنت وهي لا تعلم أن ابنتها هي المقصودة في الحوار "عليك أن تتفاهمي مع أهلها، لا معها"⁵⁰⁶ حيث رفضت البنت الزواج في ذلك السن، لتواصل دراستها ولكي تشتري حريتها، قررت العمل و الإنفاق على أسرتها، إلا أنها تقرر أيضا أن تأخذ من الرجال حق تقرير علاقاتها فتحدث في الكتاب نفسه (رجالي) عن الرجال الذين عشقتهم بكل إرادتها فتوضح في روايتها التي تعد هي الأخرى سيرة ذاتية لم تضع اسما لبطلتها، معتمدة ضمير المتكلم في كل الرواية لحبيبها أن ما يهمها هو الحب في حد ذاته، وليس حفل الزفاف الجزائري البغيض كما تقول. تتحدث عن علاقتها الأولى مع صديقها. قال لي وهو مشلول يلهث: "أنا أحبك. أنا احترمك. لا يمكن أن أفعل لك هذا!... حين غمرتنا الشهوة، يهمس في ذهول "سوف نتزوج. وعندما نستطيع. أريد أن أفعل ذلك مع كل مراسيم التبجيل. 'التبجيل؟ ما معنى التبجيل؟ مباركة الدين والمجتمع ورقية من الزغاريد السادية. ولا كني لا أرغب على الإطلاق بالزواج. أريد أن أحصل على الحب بدون هذه المهزلة".⁵⁰⁷

من هذا المنطلق يصبح المقدس مدنسا عند مليكة مقدم، فالزواج تلخص في ليلة من ليالي شهر يار، هذه العلاقة التي تسقط بعض الممارسات على قداسة الأشياء، فترتبط بها، بل وتأخذ مكانها، فتقول: "تلك الفرحة! الفرحة! أجل أكثر من الشهوة. الابتهاج بانعتاقي من ذلك المحذور الأكبر رغم النواهي العائلية والاجتماعية. لم يلمح أحدهم، أثر دمي على ملاءة أو قميص لن يستعرضه أحدهم مثل ختم كرامة عشيرة بأكملها. سوف أغسل دمي لوحدي، أريد أن أغسل دمي من كل ما يلطخ حياة امرأة."⁵⁰⁸ تشعر مليكة مقدم بالانعتاق وهو ما تسعى إليه في كل كتاباتها، الإنعتاق التام من كل قيد كيفما كان، فكل بطالات مقدم يعشن من خلال الرفض،

⁵⁰⁵ مليكة مقدم، رجالي، مرجع سابق، ص 37

⁵⁰⁶ مليكة مقدم، رجالي، مرجع سابق، ص ن

⁵⁰⁷ مليكة مقدم المرجع السابق، ص 64

⁵⁰⁸ مليكة مقدم المرجع السابق، ص 64

فإنهن يشرن للآخرين إلى أنهنّ يردنّ أن يقررنّ بأنفسهنّ، شأن أجسادهن وأنهن لا يريدونّ تجربة الجنس تحت سلطة أي رقابة، كيفما كانت هذه الرقابة .

فتقول في روايتها الممنوعة على لسان الآخر الرجل (صالح) «نحن، فتيان الخيام الكبرى، برجولة مزدانة، بيأس المهملات، ارتدينا برنوس التقاليد لنذوق العذارى الجاهلات اللائي اختارهن عائلاتنا. ولكن، بمجرد سكوت طبول العرس، تظهر لنا زوجاتنا الفتيات ساذجات، وبلا طعم، عندئذ، نهرب من بيوتنا، نتردد على الحانات، يصيبنا وسواس الخيانة»⁵⁰⁹ فالخضوع للتقاليد والعادات، انجر عنه الوقوع في الرذيلة، وانتهاك المحرمات من زنا وشرب الخمر هروبا من واقع مفروض. فالدين الإسلامي بعيد كل البعد عن هذا النوع من الزواج القهري سواء للرجل أو الأنثى، مع إعطاء فرصة للتعرف على الآخر في مرحلة الخطوبة، غير أن التقاليد وتدخل الأهل في تقرير مصير أبنائهم كان وراء وأد عديد النساء، في بيوت الزوجية.

إن فكرة الخلط بين العادات والتقاليد والدين تعود أساسا إلى ما يسميه هيجل بالأعراف الأخلاقية *Sittlichkeit* وهي رغم أنها تمثل الحالة البدائية والطفولية للأخلاق التي تتبع في مسلكها الجماعة وما كان سائدا من أخلاق، تأخذ شكل العادات والتقاليد الموروثة « فرغم جمال حياتهم الأخلاقية وبساطتها، كان هيجل يعتقد أنّها لا تعدو أن تكون قائمة على الطاعة العمياء للأخلاقيات الموروثة، فهو يفرق بين الأعراف الأخلاقية *Sittlichkeit* والأخلاق *Moralität*، والأعراف الأخلاقية حميمية وعائلية، لكنها لا شعورية وتؤخذ بعجزها وبجرها. إنها ببساطة طاعة شبه غريزية للأعراف والقوانين السائدة. وفي مثل هذا المجتمع الأخلاقي يعيش الناس بموجب التقليد لا بموجب الفكر. لكن يأتي زمان تتعرض فيه هذه التقاليد للمساءلة، وهذا الزمان هو عصر التنوير *Aufklärung*، مما يفسح المجال لظهور الأخلاق. وهذه الأخيرة هي أخلاق فردية نابعة من وعي

⁵⁰⁹ مليكة مقدم، الممنوعة، مرجع سابق، ص52

فردى⁵¹⁰ « ليكون الخروج عن الأعراف والعادات، هو نزوع الفرد إلى الذات، أو الفردانية، هذا النوع من الأخلاق كان سببا في تشكل الوعي الفردي بالذات التي ألغت وجود الآخر، وتجاوزته، فلم تنظر في اتجاهه أبدا، إلا من أجل هذه الذات وهو ما أنشأ المركزية الغربية، غير أنّ المجتمعات العربية لازالت تُعنى بالضمير الجمعي، والأعراف الأخلاقية، و الاهتمام بالجماعة على حساب الفرد، وإرادته الحرة مدعاة لاغتراب الفرد وتقييد إرادته، لذلك فالدين الإسلامي يهتم بالفرد في وسط الجماعة، ويحدد هذه العلاقة، بطريقة سوية، ولتحقيق التوازن يجب العودة إلى كتاب الله الحق، بعيدا عن تأويلات المجتمع، التي دائما ما تعود إلى بعض المقاطع دون أخرى في خدمة الأغراض الشخصية للأفراد، فالاهتمام بالعذرية في الدين الإسلامي هو في حقيقة الأمر اهتمام بالمجتمع وتنظيفه من الزنى، التي تؤدي إلى اختلاط الأنساب والأمراض، وغرق الإنسان في شهواته التي تجعل منه كائنا حيوانيا يُعنى بغريزته، والأمر هنا لا يتوقف على الأنثى دون الذكر فالله يوقع العقاب لكليهما. غير أنه من الصعب فصل الدين عن ثقافة المجتمع، أين على العلماء والفقهاء في الدين أن يعملوا على توضيح العلاقة الروحانية بين الجوهر في العبادة، والطاعة وبين الخالق والحدود الوجودية للمخلوق.

أين تنبعث الحياة في رحلتها، حيث يتمكن الدين من منح الحياة معناها؛ لأنها تصبح رحلة وجودية عميقة أين يتجه فيها الإنسان إلى مصيره، أي إلى الله، فيقول عز وجل في سورة يس ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾⁵¹¹، وقد ذكر الله في القرآن ثلاث مرات أن المصير لله، ﴿...وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾⁵¹² هذا ما يعطي للحياة معنى ويخرجها من دائرة العدم إلى دائرة الوجود.

تواصل مقدم مرة أخرى التمرد على الدين من خلال قرارها بالزواج من فرنسي، وهو أمر محرم شرعا وعرفا وهو كل ما كانت تصبوا إليه أن تختار زوجا مختلفا، كانت تريد الزواج بيهودي لكونها ارتبطت روحيا

⁵¹⁰ شادي دروري، خفايا ما بعد الحداثة، تر: موسى الخالول، دار الحوار، سوريا، ط2006، ص1، ص24

⁵¹¹ سورة يس، الآية، 83

⁵¹² سورة الشورى، الآية، 15

بعض الأشخاص من المستعمرين الذين دعموا مسيرتها، بدءاً بأستاذتها في التعليم الابتدائي والتي تعلقت بها أشد التعلق وبعدها مديرة المدرسة التي أقنعت والدها بتركها تواصل تعليمها الثانوي الذي كان في مدينة بعيدة عن قرينتها فقالت له: "السيد محمد، أنا أعتقد بأنك مقاوم كبير لأنك قررت أن تبعث بأولادك إلى المدرسة، وفي كل الأحوال يعتبر هذا التصرف، في نظري فعل مقاومة أكثر من كل المقاومات، الأكثر التزاما والتي تستهدف عدوا محددًا...وكي تكون الجزائر مستقلة بشكل كامل، فإنه يتوجب على البلد إيجاد مدرّسيه وأطبائه ومهندسيه..."

" 513

و رجلا آخر ألهمها مهنتها، فهو الطبيب الذي اعتمد عليها كي تترجم له ومرضاه بين اللغة العربية واللغة الفرنسية وهي في التاسعة من العمر، وذلك لإخراجها من نوبات الغضب التي كانت تعيشها في فصل الصيف، والتي كانت سببا في قطع شهيتها عن الأكل، فيقول "ما أسوأ طبعك! إنك تكذبين الآراء الطبية التي تزعم أن فقدان الشهية لا يصيب سوى بنات الأكابر، يجب الاعتراف بأن ثروتك هنا وهي تكبر بفضل هذا، بسبابته لمس رأسي أولاً ثم الكتاب بين يدي" ⁵¹⁴ وانغلاقها على الكتب، وكان الذهاب إلى المستشفى يمتص غضبها، وقد صار لوجودها معنى تقول: "أسأل المرضى، أحرر الوصفات التي يملئها عليا تبهرني مثابته وقدرته على البقاء بمتناول الأكثر عوزا والأميين، يتراءى لي شخصية خارجة من رواية حية، دون كيشوت جاء ليتحدى مناخ الصحراء، فأصبح الصيف أقل ملل. ⁵¹⁵" كما كانت تستغل ساعات الراحة وتذهب معه إلى بيته كانت تستغل الفرصة لتأخذ كتابا لتقرأه، تعلقت مقدم بمؤلاء من أصحاب الأقدام السوداء، فتقرر من صغرها أنها ستتزوج يهوديًا فتقول "وألفظ أمام سحنة أمي المذهولة: "أنا سأتزوج، يهوديا! كنت أريد ذلك حقا، بملء جوارحي أريد ذلك احتجاجا على الانغلاق الجهني للأجناس والطبقات والأعراق...رغبة مني بتسديد رفسة كبيرة إلى تلك العنصرية المتداخلة التي

⁵¹³ مليكة مقدم، المتمردة، ص114

⁵¹⁴ مليكة مقدم، رجالي، ص48

⁵¹⁵ مليكة مقدم، رجالي، ص50،51

هي بمثابة مجموعة الاستبدادات القائمة من القوانين الإلهية.⁵¹⁶مقدم لا تتمرد على الأعراف والعادات بل تتجاوز ذلك إلى الدين وتعرض على أحكامه، لتنسف كل مقدس خلقت عليه.

فقد رفضت الزواج من الرجل القبائلي الذي أحبته بعد أن صارع والديه طويلا ليفتك قبولهما، وذلك لرفضها لتدخل الأهل في حياة أبنائهم ، تقول مقدم «كم من المعارك اضطرت لخوضها من أجل انتزاع حق الاستغناء عن موافقة أهلك؟ كم من المعارك يبقى خوضها مع السلطات لفرض عدم التدخل في ما لا يخص سوى حياة فرد واحد؟ حياة امرأة على وجه الخصوص؟ هل أمضيت كل هذه السنوات تحاولين التحرر من براثن عشيرتك من أجل الخضوع لنير عشيرة أخرى قبضتها أكثر عنادا بسبب سلطة المال؟ إن هذا الرابط أقوى من روابط التقاليد، وسعيد لن يفعل شيئا بدون موافقة أهله.»⁵¹⁷

لا تريد مقدم خوض معارك خاسرة مع قبيلة تحكمها السلطة والمال، فهي تعترف بأن هذه السلطة تتجاوز سلطة الأعراف، بل هي من يقوي سلطة الأعراف ذاتها، لتقرر التخلي على الرجل الذي أحبته والرحيل بعيداً جداً.

كانت البنت تزوج دون علم لها، ودون العودة لرغبتها في ذلك أم لا، ولم يكن الأمر مقتصرًا على البنات، فحتى التي كان يموت زوجها؛ تزوج قصرًا من طرف عائلة الزوج، وكأتمًا هي جزء من تركته التي يحق للأسرة الزوج التصرف بها، فتزوج لأحد الإخوة، وكأتمًا ملكية تابعة لهم رغم أن الدين، جعل الرجل على المرأة بعد وفاته حقا واحدا وهو العدة، وبعد ذلك لها الحرية في أن تتزوج مرة أخرى أم لا، كما لها الحرية في اختيار الزوج حتى دون العودة للولي الشرعي "الأب" غير أن اعتبار المرأة ناقصة فهي تحتاج من يملك حريتها، بين الأب والأخ والزوج، وحتى الابن، وعائلة الزوج، فهي لا تملك سلطة على نفسها أبدا لذلك تجب للحفاظ على الشرف، وحتى لا تكون مصدرا للإغواء، فهي عورة وفتنة، قاصرة غير قادرة على تدبر أمرها، كل هذه الأعراف جعلت منها

⁵¹⁶ مليكة مقدم، رجالي ص 72

⁵¹⁷ مليكة مقدم، رجالي، ص 69

المدنس، على عكس الرجل الذي يملك كل الحقوق، ولا يسيء إليه وقوعه في الخطيئة فهو رجل لا يعيبه شيء هذا الكم الهائل من الثقافة الذكورية التي جعلته مقدسا، زودت الغضب عند مقدم، وكانت سبب في إلحادها، هي وهدى الشعراوي ونوال السعداوي وغيرهن، ممن يربطن حكم الإله بحكم البشر والأعراف .

جعلت ثقافة المجتمع من الجنس فعلا محلا في حد ذاته، سواء كان في إطاره الطبيعي في العلاقة الزوجية أو خارج هذه العلاقة التي تحرمه كل الديانات وكذا الثقافات المختلفة خاصة في العصور الحديثة، والتي ربطت الجنس بالمرأة فهي التي تقوم بالغواية لذلك عليها أن تستتر وتخفي جسدها، " ومع أن ممارسة آدم وحواء للجنس لم تكن سببا في طردهما من الجنة، بل أكل من الشجرة، إلا أن الثقافة الذكورية حكمت على الجنس حكما أخلاقيا، وحولته من كونه قيمة مقدسة وفعل محترم، إلى قيمة دنيوية وفعل محرم - إلا في حدود-، وربطت بين الجنس والخطيئة، أي بين الجنس والمرأة، ' فالجنس قد تم تغريبه بسبب تلك النظرة المعتمة التي ربطته قسرا بمأثم الخطيئة الكونية الأولى، وأسلمته بالتالي إلى تلك الثقافة البطريركية -التيوقراطية، التي تميل إلى تدنيس حقائق الكون والحياة، وتربطها ربطا قسريا بالرموز المندثرة⁵¹⁸ .

ليتحول الجنس من فعل مقدس فهو سبب في تواجد البشرية، إلى فعل مدنس يعد الحديث عنه مدعاة لإسقاط المتحدث في برائين الخطيئة، و قلة أدب وخروج عن الأعراف وإفشاء الأسرار الزوجية، حيث تحاول مقدم في كتابتها، جعل هذه الممارسات مقدسة، كحالة إنسانية وجودية، تفرض نفسها دون قيد.

هناك دوما خيوط فاصلة بين المقدس والمدنس وكيف من السهل تدنيس المقدس فتتحدث مقدم عن التلاعب الذي تطلقه أولئك اللواتي يقعن في "شرك الإغواء واللواتي كانت الرغبة في كائن آخر تعذبهن، كن يسرعن في التأكيد، بمجرد الغياب المؤقت أو النهائي للزوج بأن طفلا نائما في أحشائهن، يا لها من خدعة جميلة"

⁵¹⁸سمير الخليل، طانية حطاب: دراسات ثقافية(الجسد الأنثوي، الآخر السرد الثقافي)، دار ضفاف للنشر، الشارقة بغداد، 2018، ص22

519 هنا يصبح المدنس مقدسا ليتصف ذلك الطفل بالطفل النائم بسبب هجر والده والصدمة التي جعلته ينام، هذه المراوغات التي كانت تنطلي على الجميع في ذلك الزمن، كانت تمنع عن هؤلاء الأطفال لقب اللقيط، فيحل محلها الطفل النائم لتسأل مقدم "كيف يمكن أن نفسر كونهن استطعن أن يحتشدن كل الرضى في بلدان يأخذ فيها الارتباب في الخطأ مكان حسن النية والحفاظ على الشرف، من تكون هذه الشهرزاد الأخرى التي كانت خلف هذه الخرافة التي يتواصل تداولها بلا روية، والتي تواصل إنقاذ عديد الأمهات والأبناء".⁵²⁰

أين تنفذ الخرافة عديد الأطفال ، من القتل، فتحدث مقدم عن جانب آخر، من حكايات قتل الأطفال غير شرعيين، الذين لم يتم إنقاذهم ، ففي (روايتها أدين بكل شيء للنسيان) إن بطلنة الرواية سلمى تشاهد أمها و هي تضع الوسادة على صغير ابن الخالة المطلقة والتي انتقلت لتسكن عندهم، هذا المشهد الذي قتل فيها علاقتها مع والدتها، غير أن النسيان، جعلها لا تصدق ما رأته وكأنه حلم لا أكثر ، غير أن هذه الواقعة ببشاعتها كانت سببا في النسيان، كصدمة قوية، جعلت العلاقة ما بين البنت ووالدها تنهار بعد ذلك .

وتساءل عن «كم هو عدد الأطفال غير الشرعيين الذين خنقوا في هذا البلد؟ في سبيل فداحة إكراهين متعارضين: الاختلاط و الكبت الجنسي. يقين مخيف تدخل ليرصص أكثر ليل سلمى: بعدد السكان الذي تضاعف أكثر من ثلاث مرات منذ الاستقلال، النزوح الريفي الجماعي، الإفقار، نقص المساكن الذي يجعل عدة أجيال من عائلة واحدة يتراكمون في مساحات ضيقة. لا بد أن الجزائر تحطم الرقم القياس. في زنى المحارم وقتل الأطفال. لكن هذا لن يعني أبدا أية إحصائيات⁵²¹». فقد كان مصير الأطفال غير شرعيين القتل، والذي كان الاختلاط في السكن بين أفراد العائلة من أعمام وأحوال في بيت واحد وراء انتشار زنا المحارم، لكن إخفاء آثار

519 مليكة مقدم: المتمردة، ص93

520 المرجع السابق، ص93،94

521 مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، مرجع سابق، ص49،50

ذلك كان من خلال قتل الأطفال وعدم الحديث عن ذلك لما يتعارض مع الدين والقيم والأخلاق المجتمع، كان سبب استمرار الظاهرة مع تعميمها.

3- تدنيس فرائض الإسلام في كتاباتها:

كما تخوض مقدم في موضوع آخر وهو النفاق في الدين بحديثها عن شعيرتين أساسيتين هما الحج، والأضحية في روايتها (أدين بكل شيء للنسيان) حيث تختبئ كل من زينب ورشيد عند صديق لهما بعد عودتهما من الحج وذلك هروبا من حشد المباركين وكذلك من أجل السماح لنفسيهما بالانحراف بعد مدة من الالتزام، هذا النوع من الطرح ورغم ارتباطه بالزوجين، وطريقة فهمهما لهذا الفرض، والركن الأساسي من أركان الإسلام، بل يعود إلى علاقتهما بالإسلام ذاته، من حيث التسليم المطلق لأحكام الله، و إن ما قام به الزوجان ماهي إلا حالة شاذة شبيهة بذلك الصديق الذي التجأ إليه "قومي الذي يعاني من الشذوذ والمثلية الجنسية" التستر بغطاء الدين في ممارسات لا أخلاقية هي نتيجة لرغبة الفرد في إرضاء الجماعة وليس لإرضاء رب الجماعة، هذا النفاق يشوه الدين، ويلغي قداسته: «مكة للإيمان و نبذ معسكر للكبد، أتمنى ألا أنتظر إصابتي بتشمع لأشرب النبيذ في بيتي يوم العيد، مع إدانة عامة، أما اليوم و قد أصبحنا حاجين، فقد أصبحنا ملزمين بالجحيء من أجل الاختباء عند قومي لتناول بعض الشراب. تتحدثين عن بركة!»⁵²²، تدنيس الدين من خلال بعض سلوكيات الأفراد التهمة يوم العيد، أين يفقد الدين مفعوله من خلال إظهار علاقة الدين بمواقف الشخصيات و سلوكياتهم. تقول سلمى عن الاحتفال بعيد الأضحى: «لم يغير قدوم الثلاثات في الأمر شيئا، إذا كانت تضحية يوم العيد مرتبطة بإبراهيم، فإن سعار الاستهلاك المتزامن لكل أجزاء جسد الحيوان يرجع حتما إلى شعيرة وثنية».⁵²³ وهنا تعارض الكتابة هذا السلوك، وتربطه بالوثنية ومن المؤكد أن الدين الإسلامي ضدّ هذا النوع من الإسراف، غير أنه لا يقلل

⁵²² المرجع سابق، ص 97

⁵²³ المرجع السابق، ص 96

من قيمة الشعيرة في حدّ ذاتها، أين تتحدث مليكة مقدم بإسهاب عن الأضحية من الناحية المادية للفعل وصولاً إلى روائح وتوابل الطبخ، ما يفقد الشعيرة طابعها الروحي إلى طابع مادي مفرغ من القيم.

وتواصل في هذه الرواية بالذات الحديث عن فرض آخر من فرائض الإسلام، وهو عماد الدين الصلاة أين تتوقف الحافلة لنزول الركاب لأداء صلاة الفجر تقول: «تدهش لرجل يتوقف، وحيدا ليصلي أمام المد المدديد للصحراء، هادئا وبسيطا، كله في أصالة الشعور الديني. وبالمقارنة، فإن الفريق الذي يلي الدعوة، على بعد أمتار من الحافلة، يبدي تفاخرا مقيتا، تراقب الحركة المسرحية، سماهم تدل على أنهم مراؤون، لا يوجد شيء في لباسهم السخيف، الذي استعير جزء منه من البزة الأصولية، لا يدل على الرياء، ما عاد خمس نساء، اثنتان منهن محجبتان، وثلة من رجال، رفضوا أن يكونوا جزء من القطيع».⁵²⁴

تعرض مقدم موقفين مختلفين فالأول يثير دهشتها، والثاني يثير اشمئزازها، برؤية احتشاد الركاب لأداء فرض من الفرائض، اعتبرته رياء وسيرا مع القطيع، أي أنه غير نابع من صلة وصل بين الخالق والمخلوق في حين تعجبت لصدق المصلي في الفضاء الرحب، أي انفصال المصلي عن رهبة العالم في مقابل اتصال مع الله، لم تتمكن مليكة مقدم من فهمها للموقفين بسبب نظرتها للدين، وربطه بالأصوليين الذين أساءوا للمقدسات وما يوضح هذا الرابط في تفكيرها قولها: «ومع ذلك فإن طلب الغفران من الله، لم يمنع أبدا التنكر الأصولي من قتل مخلوقاته...»⁵²⁵، الأوضاع المأساوية التي مرت بها الجزائر كانت وراء تدنيس الدين، وتلحيفه بملاءة قدرة مليئة بالحقد والقتل، وقد كانت سبب وراء الابتعاد عن الدين فلم يغرق الدين في الجزائر وسط التقاليد والعادات فقط بل تسببت العشرية السوداء في غرقه في الدماء، وراح التقتيل والاعتصاب يحمل عباءة الدين، غير أن الدين بريء من تشوهات المجتمع وسوء فهمه واستخدامه فهو دين الإسلام والإسلام من سلم والسلام فيقول الله عز

⁵²⁴ المرجع السابق، ص 110، 109

⁵²⁵ مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان مرجع سابق، ص ن

وجل في سورة يونس {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ
 آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ
 الْمُفْسِدِينَ} 526

فتقابل بين النقيضين لفظ (المسلمين)، ولفظ (المفسدين) أين يتضح معنى المسلمين فهم غير المفسدين في الأرض فلم يتقبل الله من فرعون توبته بسبب إفساده في الأرض، فالمسلم لا يفسد في الأرض، غير أن الدين هو المعترب الحقيقي في روايات مليكة مقدم، غير أن غربة مقدم الروحية في عالم يفتقد إلى الدفاء والحميمية جعلها تبحث عن الحميمية الشهوانية للجسد، أين يكون الجسد بلا روح، تمكنه من الصمود في لحظات الضعف الإنساني، كان سبب في تعريتها لهذا الجسد والبحث عن رغباته، والاستسلام لها، فالعلاقة بين الإنسان والله، وحدها من تطهر الجسد من شهوانيته، فلا يطغى الجسد على الروح، من خلال الفهم الصحيح لمقاصد الله تعالى، من يجعله الإنسان خليفة لله في الأرض.

ثانيا: ثنائية المرأة والرجل في كتابات مليكة مقدم

خلق الله الذكر والأنثى ليكملا بعضهما بعضا، ويكونان جنبا إلى جنب في مواجهة الحياة، يقول عز وجل في سورة الأعراف: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَتَتْكَ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} ⁵²⁷ فالله سبحانه وتعالى خلق الذكر والأنثى من نفس واحدة لا تفضيل لأحدهما عن الآخر، لغاية أن يسكنا إلى بعضهما البعض، ولم يجعل المرأة مقابلة للرجل في حالة من الصراع، وجعل العلاقة بينهما سكية ومودة ورحمة.

إن الخطيئة الأولى كانت وراء تحميل حواء الذنب دون آدم، ففي القرآن الكريم {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْئَلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَعََا بِخَصْفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122)}. ⁵²⁸ ففي السورة الكريمة كانت الغواية لآدم حيث يؤكد الله على معصية آدم وعلى توبة آدم أيضا، غير أن القصة الواردة في الكتب السماوية الأخرى كالتوراة التي جعلت حواء المسؤولة عن الخطيئة والغواية معا من حيث أن الشيطان أغوى حواء وهي أغوت آدم، فهي مصدر الشقاء على الأرض.

اعتمد الطبري التوراة في شروحاته للقرآن، لتصبح النصوص السماوية وسيلة للسيطرة، حيث عملت الثقافة الثيوقراطية على رفع الرجل وإسقاط المرأة، وجعلها جنسا ثانيا، حاملا للخطيئة الأولى، ومصدرا للغواية، باعتبارها من كانت وراء خروج آدم من الجنة حيث تم تحويل المرأة من المقدس إلى المدنس من أجل إسقاطها في برائن

527 الأعراف، الآية 189

528 طه، 116-122 .

الضعف والا جدوى بل وتجاوز ذلك إلى حاجتها إلى التطهير من الدنس الذي تسبح فيه لمجرد أنها أنثى فتعمل دوماً من أجل هذا التطهير ويكون ذلك من خلال محاولة استرضاء المقدس.

«وقد اعتبر دم الحيض عقوبة إلهية تطل جسدنا للخطيئة الكبرى التي ارتكبتها حين أكلت من الشجرة المحرمة. وقد رسخت الميثولوجيا التوراتية وكذا الإسلامية هذه الفكرة، فهو دم مدنس يختلف عن دم القرايين المقدس. وهو رمزياً لعنة أديبة أصابت المرأة لأن الله لم يقبل توبتها، بينما قبل توبة آدم الذي كفر عن خطيئته بافتدائه كبشاً». 529

هذا الفكر كان وراء جعل الأنثى كائن أقل قيمة وقدر من الرجل، لا تملك حق تقرير مصيرها، وجاءت بعده عديد التجاوزات الأخلاقية في حق المرأة، فلم يستطع الرجل استيعاب دور شريكه الأنثوي، و حاول إغائها متجاهلاً أهمية وجودها في حياته فهي الأم، والزوجة ويذهب في ذلك أدونيس يقول «المرأة هي الأم، لأنها الأرض فهي التي تتلقى، وهي التي تعطي، أما الرجل فهو الريح، المرأة هي الأرض فهي إذاً من يفهم أفضل من الرجل وهي التي تعطي أكثر منه ومن حيث المبدأ على حق دائماً». 530

عبر الزمن الطويل، تم اختزال المرأة في الجسد، الذي لا تملكه والذي أضحي حقاً وملكية للرجل، يفعل فيه ما يشاء واعتبارها ناقصة عقل ودين أين تم إقصاؤها وتصميميتها، "بداية يتوجه فعل التصميميت نحو جسد المرأة كونها مفتاح الخطيئة من وجهة نظره-أي الرجل - ورغم أن تاريخ الكون هو أمومي (متريركي) بداية، إلا أنه في حقيقته المدونة إسلامياً بطيريركي. وبدلاً من أن يدشن هذا التاريخ من خلال المرأة، لأنها هي التي كانت أداة المعرفة الإنسانية، إذ ليست الشجرة المحرمة، سوى إشارة إلى بداية التاريخ البشري للعالم، أو بداية المعرفة". 531 غير

529 سمير الخليل، طانية خطاب: دراسات ثقافية (الجسد الأنثوي، الآخر، السرد الثقافي)، ص 25

530 الهوية غير المكتملة أدونيس ص 70

531 سمير الخليل، طانية خطاب: دراسات ثقافية (الجسد الأنثوي، الآخر، السرد الثقافي)، ص ن

أثما فقدت هذه الأداة التي احتكرها الرجل في حين أن المرأة اقتنعت بدورها لتصوب سلاحها نحو نفسها فألغت وجودها، لتلقى بمصيرها في يد الرجل بغيت أن تنزع عنها أعباء الحياة، واكتفت بالمشاهدة.

ولأن الذي يمتلك المعرفة يمتلك معها السلطة، فألحق الرجل المرأة بممتلكاته، فلم تفقد قداسة وجودها كنصف للمجتمع وأم لنصف الثاني، بل أصبحت المدنس، وهذا ما تحدث عنه (الغدّامي) في كتابه (ثقافة الوهم) أين وضع كيف تصنع الثقافة الحياة الاجتماعية من خلال الأفكار التي تبثها لتغرس في الذهن عبر ما سماه بـجبروت الرمز، فيقول "وعبر جبروت الرمز تتأسس ثقافة الوهم وتصنع أنساقها الخاصة لدى مستهلكي هذه الثقافة".⁵³²

وإذا عدنا إلى الأدب اليوناني من جبال الألب يطلّ هوميروس في "الإلياذة" أين تخلدت هذه القصائد الشعرية لقرون وأنتج عنها عديد المحاكون الذين راحوا يغرفون من الثقافة اليونانية، حيث تم فيها تعظيم الأثني من خلال فشل إلهة الحكمة "أثينا" في الاحتفاظ بالتفاحة الذهبية التي كانت من نصيب إلهة الجمال والحب فينوس، أين كانت الغواية أقوى من الحكمة، لأنها من فازت في أشعار هوميروس، بعد أن انحاز باريس إلى ربة الجمال والحب والتي كافأته بدورها بالفاتنة هيلين زوجة الملك التي كانت سبب في موت أشداء طروادة، وهنّ الغواية الثانية الصادرة من هيلين التي جعلت باريس يضحي بموطنه لأجلها، كل هذا يجعل من المرأة رمزا للغواية والخطيئة، ولأهمية هذه الأسطورة الخالدة كان لجبروتها الرمزي، الأثر البالغ في الثقافة اليونانية وبعدها الرومانية انتقلا إلى كل الثقافات والحضارات اللاحقة وتبعاً لنظرية المحاكاة أين أعيدت هذه الملحمة عديد المرات وبأشكال مختلفة تنسج ثقافة الغواية الأثوية وراحت المرأة تغرق في المدنس مرة أخرى وبسبب تفاحة أخرى.

وقد تحدثنا حول ظهور الحركة النسوية الغربية، وكيف تمكنت المرأة من أخذ حقوقها الإنسانية من الحق في التعلم ودخول الجامعة والمشاركة في الحياة السياسية والثقافية، ومن الأکید المرأة العربية هي الأخرى كانت لها هذه

⁵³² عبد الله محمد الغدّامي: ثقافة الوهم (مقاربات حول المرأة والجسد واللغة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998، ص6

الحقوق المشروعة، والتي نجد العديد من المبدعات والمفكرات العربيات قد سقنا مساق المرأة الغربية، وليست مقدم إلا واحدة من هؤلاء اللواتي قررن خوض حروبهن على اختلاف مطالبهن .

قطعت المرأة أشواطاً عديدة في ذلك، ليكون السؤال وماذا بعد ذلك؟ هل اكتفت المرأة العربية بما توصلت إليه من حقوق، أم أنها في حاجة إلى الخروج عن الطلب إلى المشاركة الفعلية في الحياة الثقافية، تعمل على ذلك بعض الأفلام في ما يسمى بالكتابة المضادة، وهي نوع من أنواع المقاومة السردية التي تقوم على: " تفكك الصورة النمطية المتحيزة ايديولوجيا للمركزية الغربية، منطلقة من الوعي بأهمية امتلاك سلطة الكلمة والصوت في تمثيل الذات"⁵³³ أي لتمكين المرأة من إعلاء صوتها يكون مسموعاً من بين أحد أهم الإنجازات غير أنها في حاجة إلى إعادة رسم الصورة التي رسمها لها الرجل لسنوات، بعد أن استعادت صوتها على قول سبيفاك.

1- المرأة والمجتمع الذكوري في كتابات مقدم:

نجد أن كتابات مقدم ترمز على السلطة في كل أشكالها محاولة تفويض الثقافة الشيوقراطية، وفرض ذاتها كأشئ تملك نفس إمكانيات الرجل، فتقدم خطاباً يفرض وجوده بقوة من خلال اللغة أين تركزها مقدم في تحدي السلطة الذكورية أين تتخذ مقدم موقفاً مضاداً لفكرة تدنيس المرأة وتقديس الرجل حيث تحاول في كل كتاباتها الحديث عن الثقافة الذكورية وكيف تشكلت كنتاج للثقافة و التقاليد والعادات الموروثة جيلاً بعد جيل .

تبحث عن أسباب اعتلاء الرجل لهذه المكانة دون المرأة، برغم من أنهما شريكين في الحياة والمسؤولية، حيث يسعى الرجل وراء العمل واكتساب المال فهو اليد العليا، التي تعيل وتطعم، وبالتالي فهي التي تملك القوى تقول مقدم في روايتها رجالي حين أرادت أن تساهم في مصاريف البيت من خلال تقديم راتبها لوالدها « فريت

⁵³³ محمد بوعزة، سرديات الثقافة (من سياسات الهوية إلى سياسة الاختلاف) منشورات ضفاف بيروت، دار الأمان الرباط، منشورات

الاختلاف، الجزائر، ط01، 2014، ص51

على ظهري مؤكدا: "يا ابنتي! الآن أصبحت رجلا!"⁵³⁴ هكذا تم ترفيتها من الجنس الثاني إلى الجنس الأول، وهي تعتبر أنها اشترت حريتها من خلال ما تنفقه على أسرتها ، فتقول « جعلتني أشترى حرتي مثل الرقيق بالأمس يا أبي.»⁵³⁵ ، تربط مقدم بين الحرية وكسب المال، وباعتبار أن المال قوى، كانت على يقين أن له القدرة على تغيير مصيرها، وإعطائها حريتها وقد ذهبت إلى قول ذلك أيضا في رواية (أدين بكل شيء للنسيان) حيث اعتبرت أن الأم تستغلها وان هذا الاستغلال كان وراء تقبل الأم لجلوسها مع زوج مقدم المسيحي، وتقبلها لسلوكها الاستفزازية كشرب الخمر، تقبيل الزوج أمام أعين الأم ، وكذلك تعيد سبب أن إخوتها لم يعنفوها بسبب إنفاقها تقول: «إن لم تعاني أبدا من عنف إخوتها فلأنها منذ مراهقتها تعيل نفسها و تعيلهم، فكرت كثيرا بأنهم كانوا ملزمين على ابتلاع كبريائهم»⁵³⁶ ذلك أن المجتمع يرفض أن تعيل المرأة رجلا فهذا الأمر في مجتمعها القروي يعد عارا، يلحق بكل أفراد الأسرة، غير أن الإخوة كانوا في حاجة إلا إعالتها خاصة بعد وفاة الأب.

كان الطريق الثاني لتكتسب المرأة مكانة في المجتمع الجزائري التقليدي داخل الأسرة من خلال إنجابها للذكر، ولد يعطيها قداسته فتقول: « منذ ولادة شقيقي الأول: "ابن، وأخيرا ابن" تلك الفرحة في الدار، كما لو أننا انتشلنا على حين غرة من برائن البؤس: "ولد لنا صبي، صبي." عدلت وسائد أمي. باتت الحين تستحق بعض المراعاة، الحين فقط.»⁵³⁷ هذا ما يقودنا إلى القول بأن القيمة المعطاة كانت للذكر أساسا، فمن أجله يتم العناية بأمه، وتنال الأم بعض التقدير، غير أن مقدم كانت تحملهن أي النساء ذنب معاناتهن، بسبب خضوعهن الدائم و تقبلهن لتلك الحياة بل والمشاركة في التعسف على غيرهن من النساء « كن يجسدن، بسبب الإهمال الذي يتعرضن له منذ الولادة، عاهة جماعية لا يتحررن منها إلا بإنجاب الأبناء الذكور. كنت أرى الأمهات يقترفن هذه

⁵³⁴ مليكة مقدم: جالي، 19

⁵³⁵ مليكة مقدم، رجالي: المرجع السابق، ص ن

⁵³⁶ المرجع السابق، ص 79

⁵³⁷ مليكة مقدم، رجالي، المرجع السابق، ص 23

التفرقة».⁵³⁸ ليكون إنجاب الولد الذكر غاية في حد ذاته للخروج من بوتقة القهر، فالرجل هو الذي يحمل لقب العائلة في حين أن البنت تأخذ لقب زوجها لذلك فهي تعتبر ضيفة مؤقتة إلى حين زواجها، حيث كانت العائلة تسعى لتزويجها في سن مبكر، للتخلص منها بسبب أنّها يمكن أن تجلب العار لكل العائلة في أي وقت لذلك كان السعي إلى الحفاظ على العذرية غاية فراحوا لذلك يمارسون طقوس شيطانية في ما يسمى "بالّصفيح".

وكما كانوا يزوجون بناتهن في سن مبكر، وكأنها الغاية من وجودها أساساً دون أن يكون لها الحق في تقرير مصيرها « عليك أن تتفاهمي مع أهلها ، لا معها! ».⁵³⁹ فكان مصير الفتيات أن يجبرنا على الزواج في سن مبكر، حيث لا يمكنها إلا أن تكون عالة على زوجها الذي ينفق عليها، فهو الذي يطعمها ويكسوها فلا تملك إلا أن تكون خاضعة لإرادته، مستسلمة لواقعها،

« سرعان ما تزوجت المراهقات الثلاث اللواتي بلغن الصف الأول المتوسط. تحولت لا مبالاة بالفتيات إلى ريبة بل أكثر من ريبة، تحولت إلى ضعينة لن تستكين إلا بعد فترة طويلة جداً في الجامعة ».⁵⁴⁰ ترفض مقدم استكانة البنات لمصيرهن، كيف تقبلنا التوقف عن الدراسة لأجل الزواج.

تتساءل مقدم عن سبب هذا التمييز الذي يجعل من ولادة الصبي فرحة عارمة للأسرة على عكس البنت لذلك بدأت في البحث عن هذا الاختلاف منذ بداية وعيها لذلك التمييز، تقول في رواية رجالي: « لم أكن قد تجاوزت الثالثة والنصف ، ورحت أحرق، مذهولة، إلى ذلك الجهيضم الذي يتنازعه الجميع. من أين أتى بكل هذه

⁵³⁸ المرجع السابق، ص12

⁵³⁹ المرجع السابق، ص37

⁵⁴⁰ المرجع السابق، ص29

السلطة؟»⁵⁴¹ هذا الاهتمام بالصبي ومنحه السلطة جعلتها دائمة البحث عن السبب فما كان لها إلى أن تبحث في الفرق الموجود بينها وبينه

« لقد رأيت النساء مبتهجات أمام قطعة اللحم المجمدة التي تتدلى أسفل بطنه، مثل ثمرة تفنتت »⁵⁴² لأن الاختلاف و القداسة مصدرها الجسد تذهب مقدم إلى استخدام لفظ "الانتصاب" في عديد المواقع والأفعال التي تقوم بها، وذلك للأخذ من هذه القداسة، تقول «انتصبت مثل العشبة الضارة وسط مئآت الفتيان.»⁵⁴³ تحاول أن تجعل من هذه الكلمة ملكية عامة للجميع فهي ليست خاصة ذكورية. وتوظفها في عديد من الأفعال الخاصة التي تقوم بها.

فتتحدث في المقابل عن النساء وسبب الحال الذي وصلن إليه، والذي كان وراء لخضوعهن الدائم. فتقول « مع العلم أن انتقادي لمن يبقى شرسا. فكيف بوسعهن أن يتقولبن في قالب الضحية؟ لماذا تعمد هؤلاء الخائبات إلى إعادة إنتاج هذا النموذج؟»⁵⁴⁴ فهن لم يكتفين بالخنوع ، يتزوجن يتركن المدارس ، والأدهى هو أن ينجبن بنات خانعات أخريات وأولاد متسلطين، هذه الدائرة المغلقة حول نفسها، هي نتيجة التربية الخاطئة التي تعمل على أن يستمتع الطفل بطفولته في حين تربى البنت من صغرها على تلبية حاجيات هذا الطفل، حيث توكل إليها مهام تفوق قدراتها، دون أن تملك القدرة على الرفض أو حتى الاعتراض، تقول مقدم: « ولكثرة ما راقبت وحشيتهن و انحرافهن، حاولت إدراك دوافعهن، ترسخ لدي اليقين بأن حسنة الأمهات، وكراهيتهن للنساء ومازوشيتهن، هي التي تؤهل الرجال لدور أبناء القساة القلب.»⁵⁴⁵ يأهل الطفل في سن مبكرة ، على التربع فوق عرشه أين يمارس سلطته الكاملة على أمه من خلال ما تعتقده هذه الأخيرة من أهميته في حياتها، فبرغم من أنها

⁵⁴¹ المرجع السابق، ص23

⁵⁴² المرجع السابق، ص ن

⁵⁴³ المرجع السابق، ص27

⁵⁴⁴ المرجع السابق، ص29

⁵⁴⁵ المرجع السابق، ص12

من أعطته الحياة والرعاية، فهي قد أخذت أكثر من ذلك، أخذت الحرية والاحترام والتقدير، هنا تكمل سلطة الرجل بالنسبة للمرأة بدءًا بالأم، عودةً إلى الزوجة الذي يمنحها طفلاً تنعتق من خلاله، تعتبر مقدم المرأة مسؤولة على الظروف التي تعيشها بسبب تقبلها لذلك، بل وأكثر من ذلك إعادة إنتاج العنف على بناهن حيث تقول: « يخوض الرجال حروباً أما النساء فيصوّبن أسلحتهن على أنفسهن وكأهن لم يتخطين أبداً قدرتهن على الإنجاب. لقد قتلن إلى الأبد رغبتى بالأمومة، واستغرق بي الأمر بعض الوقت لإدراك ذلك.»⁵⁴⁶ فمقدم تحمل الأنثى مسؤولة ما تعيشه، بسبب خضوعها وتقبلها لما تعيشه إنما لا تفعل ما قد يجلب لها الكرامة عدا الإنجاب لتحصّر في هذا الدور في حين أنه كان يفترض عليها أن تكسب احترامها بعيداً عن إنجاب الأولاد.

فتقول على لسان الطفلة ياسمين: «بابا، أصابعي لن تلمس الصوف الخشن أبداً...، أريد فقط أن أنسج الكلمات، لن تنفذ أيامي أبداً بين الكانون، والقربة، والقصعة، لن يتم التضحية بحياتي لأولئك الغيلان نهمي البطون، رحمي لن ينجب الأطفال أبداً»⁵⁴⁷ يوضح هذا المقطع ما تريده مقدم من حياتها أساساً في محاولة منها لإبراز الوعي الذاتي للمرأة في كل نصوصها التي تتحدى من خلالها السلطة الذكورية وتتفوق عليه داخل نصوصها. تجعل من نصوصها محلاً تدافع به عن كل ما يعتري ذهنها حول فرض وجودها عنوة دون الحاج إلى وساطة العالم بينهما أين تنتصر سلطانات مقدم، على مختلف القيود الأسرية .

أدرك الحين، وأنا أصفه، بأن هذا التمييز بين الإناث والذكور، بكل ما يتضمنه من محظورات وانتهاكات، أحد أكثر أشكال التربية الجنسية انحرافاً و استباقاً للألوان، إنه شكل يهول ويلوث الغرائز الأساسية.⁵⁴⁸ أين تعتبر مقدم أن التمييز أساسه التربية التي تقدس الذكر وتحقير الأنثى، أين يتم تبجل أعضاء الذكر منذ ولادته، ليأخذ كل حقوقه دون استثناء

⁵⁴⁶ المرجع السابق، ص13، 12

⁵⁴⁷Malika mokaddem: Le Siècle Des Sauterelles,p 258

⁵⁴⁸ مليكة مقدم، رجالي، ص29

تحدثت مقدم عن رفض الرجال لنجاح المرأة مهما كانت جنسية هذا الرجل فتقول: "يهدد في بداية علاقتنا بالانتحار لو تركته: "بينما كنت توقّعين كتبك، قادت السيارة في الهضاب المجاورة، لا تساورني إلا رغبة وحيدة، زيادة السرعة والاصطدام بشجرة!"⁵⁴⁹ فهو لم يتحمل رؤيتها تنجح من دونه ، تقول: « لماذا! بأي انحراف يتحول النجاح الأدبي لامرأة إلى خطر قاتل على زوجها». ⁵⁵⁰ لم يتقبل زوجها نجاحها، رغم أنه من شجعها على الكتابة، فلم يعتقد أن هذه الكتابة ستكون حاجز بينهما، وقد يرفض العديد من المثقفين حتى الارتباط بامرأة، مثقفة خوفا من سماع صوتها وقد تجاوز حدود بيتها.

وتساءل مقدم عن سبب الذي يجعل من الأم التي تملك قدرة تسيير العائلة بعد وفاة الزوج، غير أنها تصبح فجأة قاصرا إذا ما ابتعدت عن البيت "كانت الأم تسيّر حياة العائلة كاملة ، وقد أغلق عليها في البيت بإحكام، أمّا خارجا فتصبح معاقة بالكامل".⁵⁵¹ فتحتاج دائما إلى مرافقة أحد الأبناء، تتساءل في روايتها الممنوعة، عن السبب الذي جعل الحياة تنحرف هذا الانحراف، بعد أن شاركت المرأة الرجل في الثورة ضد العدو، ما الذي جعل الرجال يصفرون بالحرية دون النساء

تقول: "امرأة لا تفهم كيف انحرف الاستقلال وأسقط كرامتنا وحقوقنا رغم أننا رفّعنا السلاح من أجلها"⁵⁵² لتحدث عن التغيير الذي حصل بعد الاستقلال فقد كانت القبيلة تستعيد المطلقة، والأرملة وتوفر لها حاجياتها، وترجع ذلك إلى الحداثة التي فصلت القبيلة إلى عائلات صغيرة، لا تتجاوز حدود الأب والزوجة والأبناء، مع تشتت القبائل بين التل و خارج البلاد، فقد تسببت الحداثة بالإخلال في توازن القبيلة أين كانت « العجوز

⁵⁴⁹المرجع السابق، 150

⁵⁵⁰المرجع السابق،ص15

⁵⁵¹ مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، مرجع سابق،ص64

⁵⁵² مليكة مقدم، الممنوعة،ص176

على رأس عائلة كبيرة. لها قوة أبنائها الذين صارو رجالا كانت غنية برأسمال احترامهم. كانت تتمتع بكل الأفراح، بكل الأحماد التي ربحتها و دخرتها خلال سنوات شبابها القاسية .⁵⁵³»

بالرغم من كون المرأة الكبيرة في هذه المرحلة كانت تملك زمام الأسرة غير أنها لم تكن تملك تلك القوة والسلطة إلا من خلال أبنائها، وهي سلطة ظاهرية معطاة لا تملك القدرة على الاستمرار، فهي غير ممنوحة لذاتها، وأن السبيل لذلك لا يكون إلا من خلال التخلي عن الحاجة إلى من يحمي ويعزز هذه السلطة، لا يمكن تغيير النظرة التي يفرضها المجتمع إلا من خلال هذا المجتمع نفسه.

2- الرجال في مجتمع ذكوري:

يعيش الرجال وهم يحاولون الوصول إلى الكمال من خلال صفات عديدة يفرضها المجتمع عليهم بقوة، وقد يلعنهم إذا ما تتهقروا عن أداء واجباتهم، فالإنفاق من واجبات الزوج وكذلك الحفاظ على استقرار الأسرة، وحاجياتها ولذلك يضطر الكثير منهم التخلي عن مقاعد الدراسة والبحث عن رزقهم، لذلك يحملهم المجتمع بعاداته وتقاليده أكثر مما يمكن احتماله. تتحدث مقدم عن ذلك فتقول: "كان أبي يصرخ، وهو يجلده بالحزام: "أتريد أن تبقى جهلا مثلي! هل سترضى أن تتفوق عليك بنت؟"⁵⁵⁴ فالابن يتعرض لضرب لكونه رجل تجاوزته أنثى أين لا يحق له أن يخسر في معركة ضد أنثى.

وتعترف مقدم بذلك فتقول: "أخي أعزل أكثر مني ذكر"⁵⁵⁵ فكان من السهل أن توظف مقدم منذ صغرها لتفوقها في المدرسة في حين لم يكن لأخيها نفس الفرص "أعلن الطيب بمهابة في إحدى الأمسيات لا أريد بعد اليوم أن تنفقي مالك علي، لا أريد أن أبقى عبثا عليك. أرى كم تكدحين"⁵⁵⁶. والظروف نفسه داخل أو

⁵⁵³ المرجع السابق، ص 177

⁵⁵⁴ مليكة مقدم، رجالي، ص 26

⁵⁵⁵ المرجع السابق، ص 161

⁵⁵⁶ المرجع السابق، ص 162

خارج الوطن المغتربين يعانون من صعوبة إيجاد العمل خاصة إذا لم يمتلك مؤهلات علمية يفرضها السوق الأوروبي "الوضع أسهل على البنت، لا سيما بنت جميلة وأنيقة مثلك، لا تخيلي كم يقاسي الرجال السمر البشرة، لم أرحل عن الجزائر لأتحمل ذلك!".⁵⁵⁷

وليست المؤهلات العلمية وحدها فموص أي مصطفى الطبيب الذي تحدثت عنه في رجالي كان يعني التميز بسبب بشرته الحنطية، فالرجال أكثر تعرضاً للمضايقات بسبب الخوف منهم، ليتحول الخوف من الآخر، ظلم إضافي لهذا الآخر، لم يكن من الممكن أن يرفض الرجال قرارات العائلة حول مسألة الزواج خاصة لدى العائلات الكبرى التي تبحث دوماً عن الحفاظ على أموالها داخل الأسرة نفسها وهو ما يفسر تزويج الأبناء من أبناء الأعمام والأخوال خاصة في تلك المرحلة أين كان الطب لا يمنع ذلك فيقول صالح أحد شخصيات رواية "الممنوعة" نحن، فتيان (الخيم الكبرى)، برجولة مزدانة بيأس المهملات، ارتدينا برنوس التقاليد لنذوق العذارى الجاهلات اللائي اختارتن عائلاتنا. ولكن، بمجرد سكوت طبول العرس، تظهر لنا زوجاتنا الفتيات ساذجات وبلا طعم عندئذ، نهرب من بيوتنا. نتردد على الحانات، يصيبنا وسواس الخيانة.⁵⁵⁸

يشارك الرجل الأنثى حياة البؤس المفروضة من المجتمع على حد سواء، غير أنه للتخلص من قيود العادات والتقاليد كان يعول على النخبة في الوقوف في وجهها والمطالبة بالتغيير غير أن مقدم تضع التغيير على كاهل الرجل الذي يكون مطالباً بأن يفعل شيء ما لتغيير وراحت تندد بحجرة النخبة على لسان صالح وتعتبر ذلك جبناً وخذلاناً للوطن الذي هو في حاجة إلى هؤلاء لإخراج الجزائر من ظلامها "عليهم أن يرجعوا ليصلحوا ما تركوه

⁵⁵⁷المرجع السابق، ص164

⁵⁵⁸مليكة مقدم الممنوعة، ص52

يتعفن، لأن المرض لم يمس أشخاصهم، لأن العوز والبربرية لم يخنقا إلا النساء، عليهم أن يرجعوا لمجاهة تعفن العقلیات. لحسن الحظ أن بعض الاستثناءات وجدت وسطنا.⁵⁵⁹

ترى مقدم أن عنف التقاليد اقتصر على النساء ، غير أنها تناقض نفسها فهي تعترف أنهم خضعوا لبرنوس التقاليد وزوجوا دون ارادة حرة منهم، فكيف لهم أن يجابه تعفن العقلیات، وهي هنا تحملهم المسؤولية كاملة في حين أنها ومع مطالبها المتكررة بالمساواة ، تضع نفسها وأجيال من النساء على هامش معارك الحياة، أين لا مفر إلا البحث عن وطن بديل، أين لا يكون أمامهن خوض تحدي المجتمع وتقاليدته ، وبهذا فهي تركز ألوهية الرجل ودونية المرأة .

لم تستطع مقدم تجاوز طفولتها التي كانت في مرحلة ما؛ صعبة على كلى الطرفين ونحن بهذا لا ننحاز إلا أي طرف غير أننا نحاول أن نتقصى نظرت مقدم إلى ذاتها، وإلى الآخر هذا الآخر الذي يعاني في مجتمع ذكوري يفرض عليه أن يكون دائما صلبا لا يحق له أن ينحني ليرتاح، فهو كائن خلقت مدامعه لكي لا تذرّف الدمع ، فالبكاء لنساء الأحلام أيضا لنساء، ما ينتظره المجتمع من الرجل يأخذ منه أكثر مما يعطيه، يقول في ذلك (أدونيس) "لا يحقق رجلا وجوده من دون امرأة، وإذا ذهب بعيدا فإن الرجل هو المكبل الحقيقي، وليس المرأة الرجل مكبل ب قيد مزدوج، لأنه هو الذي يقود المجتمع، ولأن المجتمع هو الذي يجرمه من علاقته الجوهرية مع المرأة، لذلك فإن الرجل كما يبدو موشك أن يفقد جسده"⁵⁶⁰ فهو الآخر يعيش من أجل الآخرين أين تكون مطالب المجتمع أهم من مطالب الذات ولعل الأجدد بالرجال أن يطالبوا بالمساواة التي من المحتمل أن تخفف عنهم أعباء الحياة فهي حينما تشارك إخوتها، أو تعيلهم ،حيث قامت بربط ذلك بالبغاء واعتبرت تقبل إخوتها لعملها كان

⁵⁵⁹مليكة مقدم، الممنوعة، ص52

⁵⁶⁰أدونيس: الهوية غير المكتملة(الإبداع الدين، والجنس)ترجمة حسن عودة، بدايات لطباعة والنشر، سورية حلب، ط2005، 1 مرجع سابق ص 79

استنزافا لها فتقول: " لم يكن عمل المرأة في نهاية المطاف، سوى شكل آخر من أشكال البغاء في الأزمنة الجديدة، شكل مقنع بنفاق مهنة محترمة."⁵⁶¹ وبهذا فهي ترى في عمل المرأة استغلال آخر .

أين تعتبر مقدم تقبل الإخوة لعملها، بسبب الطمع في استغلالها، وأنها اشترت صمتهم ورجولتهم من خلال ما تسدده كل شهر غير أنها تناقض نفسها مرة أخرى وتحدث عن توقفها عن إرسال النقود لكن في المقابل سلوك الإخوة لم يتغير، لم يتعرضوا لها مثلما حدث مع فتيحة التي سردت قصتها لتحاول أن تؤكد على العنف الأسري في العائلة الجزائرية، " كان لقاء فتيحة في الوقت المناسب، تقديم صورة أخرى عن مكائد العائلة ومتمين احتياطات سلمى"⁵⁶² وكأنا مقدم تريد أن تؤكد من خلال قصة فتيحة على ظلم الإخوة وافتقارهم للإنسانية و العواطف الأخوية بل تذهب إلى أبعد من ذلك فتقدم عن إيجاعات يتحدث بها الأخ لرغبته في الزواج لتلبية حاجياته فيؤكد على تلك الحاجيات " لم يتوقف الأخ المدمن على شرب الخمر ذو الأسلوب الثقيل، على النظر إلى فتيحة شزرا، مكرر بأنه بحاجة إلى زوجة. امرأة تستطيع تلبية كل حاجياته، يؤكد على تلبية حاجياته بتباه لا يدع مجالاً للشك. " ونتساءل كيف للأخ الذي من المفترض أنه تلاعب بأخته ليحضرها، ليقوم بجسها، أن يسر لها عن حاجته للزواج ، وإن كان يهين نفسه لفعل محل بالدين والأعراف والمجتمع فماذا كان ينتظر بعد أن قام بجسها، كل هذه القصة أرادت من خلالها مقدم تؤكد أقوالها حول زنا المحارم، وهو الموضوع الذي سلطت عليه الضوء في روايتها هذه .

⁵⁶¹ أدين بكل شيء للنسيان، ص79

⁵⁶² مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، ص 79-80

ثالثا: ثنائية المركز والهامش في كتابات مليكة مقدم

تعد ثنائية المركز والهامش، إحدى أهم أفعال النصوص و منطلقها، فهي تحدد نظرت الذات إلى نفسها وأيضا إلى العالم الخارجي وكيفية التموقع داخله، أين حكم الظلم الثقافي والسياسي والفكري العالم لسنوات، سواء كان هذا الهامش الأثني أو دول العالم الثالث، والأقليات والزنوج، غير أن الاعتراف بوجود هذه الثنائية، كان فعلا من أفعال المقاومة، لتكون بداية رفض المركزية، من المركز ذاته، وذلك من خلال رفض التمركز، عبر العديد من المراحل والأجيال، بدءا بنقد المثالية الأفلاطونية عند هيدغر إلى نيتشه، مع النقد الماركسي البرجوازية الرأسمالية وخطرها في التقسيم الطبقي، إلى رفض الفرويدية النرجسية وإعلان خطرها على الذات الفردية، مع حفریات فوكو مثلت الخلفيات الأولى لنظريات النقدية، الداعية إلى كبح جماح العالم الغربي، من خلال نقد العقل.

تتأسس النظريات النسوية والكولونالية وما بعدها، اعتمادا على إستراتيجية التفكيك التي دعمت تفكيك النزعة العقلانية فقد ذهب هؤلاء إلى "اعتبار أن المشكلة تكمن في تحريفية طالت مبدأ العقل، بل راحوا يبرهنون على أن المشكلة جوهرية في العقل ذاته لأنه يقوم على الثنائيات الفضفاضة بسبب النزعة الهوياتية فيه، لهذا لكي يتم إنقاذ العالم من جبروت هذا العقل الكلياني كان لا بد من فتحه على مبدأ الاختلاف والغيرية والآخرية وفق رزنامة الاعتراف والضيافة والتسامح."⁵⁶³ ليكون الانفتاح على الآخر، ينظر إليه رغم الاختلاف عنه، بديلا عن التمركز حول الذات والتي كانت وراء "طغيان فكرة اللوغوس الباعثة على صناعة الادعاءات الكونية، يرى تودوروفوديريدا وفوكو وبارت أن العقل الغربي المنبثق عن الفكر الأنواري ساهم في صناعة نوع من الهابتوس (المصطلح لبير بورديو) أي بنية من الاستعدادات الذهنية والعملية تقربان الكونية والإطلاقية سمة غربية بامتياز،

⁵⁶³ وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة، مرجع سابق، ص13

لهذا راح داريدا ينسف ما يسميه بالتمركز على اللوغوس وفوكو يبشر بالهامش والمسكوت عنه والمختبئ وتودوروف يبحث عن صيغ كثيرة من العقل الحوارى لتجاوز أناة العقل الغربى".⁵⁶⁴

ولم تقف هذه النظريات على الأوساط الغربية فقد أظهرت البلدان التي وقعت في نير الظلم مقاومات رادعة لظلم، من أهمها الفانونية "نسبة إلى فرانز فانون" ونظرية العنف وما يخلفه العنف على البلدان التي تعرضت لذلك العنف، فيصف سارتر هذا العنف في تقديمه لكتاب فرانز فانون (معذبو الأرض) يقول "إنّ العنف الاستعماري لا يريد المحافظة على إخضاع هؤلاء البشر المستعبدين، وإنما يحاول أن يجردهم من إنسانيتهم".⁵⁶⁵ فالعنف الاستعماري هو محاولة ضبط وإخضاع المستعمر ليفقد إنسانيته ليضمن المستعمر بقاء أبدأ في تلك الأماكن التي صار فيها صاحب الأرض حيواناً أليفاً عنده ولأجل ذلك يبين سارتر، أساليب الاستعمار حيث "إنه لن يدخر جهداً من أجل أن يقضي على تقاليدهم ومن أجل أن يحل لغتنا محل لغتهم، ومن أجل أن يهدم ثقافتهم دون أن يعطيهم ثقافتنا، لسوف يصفعهم تبعاً".⁵⁶⁶

ليتضح بعد ذلك هدف الاستعمار الأساسي من استخدام العنف للقضاء على الهوية وطمس كل معالمها " فإذا ظلوا يقاومون رغم الجوع والمرض، فلسوف يتولى الخوف القيام بالمهمة. ويأتي مدنيون فيستقرون على أرضه ويكرهونه بالسيطرة على أن يزرع لهم فإذا قاوم أطلق الجنود النار، فأصبح ميتاً، وإذا خضع إنهار ولم يعد إنسان، لسوف يمزق العار والخوف حلقة، لسوف يحطمان شخصيته، ويتم تحقيق هذه المهمة على أيدي خبراء اختصاصين⁵⁶⁷ صاحب كتاب "عارنا في الجزائر" يوضح سياسة فرنسا الاستعمارية التي حاولت طمس هوية الأفراد، والقضاء على شخصيتهم بل إلى نفس إنسانيتهم، معتمدة في ذلك على علماء الأنثروبولوجيا، هذا العلم

⁵⁶⁴ المرجع السابق، ص14

⁵⁶⁵فرانز فانون، معذبو الأرض، تر: سامي الدروبي، جمال الأناسي، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، مصر، ط2، يناير 2015، ص25

⁵⁶⁶المرجع السابق، ص25-26

⁵⁶⁷المرجع السابق، ص26

الحديث الذي كان منبعه فرنسا، والذي راح يدرس الإنسان في مجتمعه، ليسهل تطويع وترويض هذا الإنسان وسله من إنسانيته.

لم تدخر في ذلك سبيلا للوصول إلى مبتغاها ليوضح فانون أثر هذا العنف على الشعوب التي تعرضت له والذي يذهب إلى أن هذا العنف يظل أثره حتى مع خروج الاستعمار على هذه الشعوب، وذلك من خلال ملاحظاته بأن ما تعلمه في فرنسا لا يمكن بأي حال أن يعالج به مرضاه في مستشفى البليدة الذي كان يعمل فيه، وأرجع ذلك إلى الشرط الكولونيالي، وهو ما أنتج وضع نفسي خاص "فحالة انحلال الشخصية وفقدان الفرد لهويته النفسانية إلى درجة فقدان الشعور بجسده، وحالة الديالكتيك الموجودة بين جنون الاضطهاد عند المستعمر وحنون الارتياب عند المستعمر تعكس المناخ النفسي الذي تسبح فيه الذوات الكولونيالية"⁵⁶⁸ باختلاف ظروف هذه الشعوب صنعت الفارق في إنسانيتهم، وفي طريقة علاجهم، ليبقى أثر الاستعمار يرافق أجيال ما بعد الاستعمار، وهذا ما نبحت عنه في كتابات مقدم، من ذوات متعددة، قد لا تكون سوية ولا يمكن الحكم عليها بأنها مريضة غير أنها تحتاج إلى دراسة معمقة تشرح هذه الذات، وتفسر رؤيتها للحياة والإنسان، وهذا ما ذهب إليه أيضا إدوارد سعيد ليوضح كيف تتغلغل النصوص المنتجة من طرف هؤلاء الشعوب بإيديولوجية إقصائية، لذلك وجب النظر في هذه النصوص بحثا عن هذا الإقصاء.

لنجد مليكة مقدم تصور رؤى مختلفة في نصوصها عن الهامش سواء كان هذا الهامش المرأة أم الثقافة و قد تحدثنا عن ذلك مسبقا ما يجدر بنا الإشارة إليه هنا هو كيف كرست مقدم فكرة الهامش في نصوصها برغم من رفضها للاستعمار، الذي جعلته في أحد نصوصها جرادا قداما من الشمال، غير أنها اهتمت بتهميش المرأة في المجتمع الجزائري، على حساب ما يعانیه المجتمع ككل من تهميش في ظل القوى الاستعمارية.

⁵⁶⁸ وحيد بن بوعزيز، مرجع سابق، ص32

1- المرأة بين الهامش والمركز في الخطاب الكولونيالي:

لا يمكن إغفال أن المرأة كانت ضمن إستراتيجية الخطاب الكولونيالي الذي عمل على إحكام سيطرته على المجتمع الجزائري من خلال المرأة، مثلما يشير في ذلك فانون: "يمر استعمار بلد ما من خلال الامتلاك الحقيقي أو المجازي لنساء"⁵⁶⁹ ليكون النضال هو نفسه من خلال المرأة، الذي حاول الاستعمار أن يجعل من نفسه المنتقض الذي جاء ليحرر المرأة من جهلها، ومن الظلم الذي تعانيه من خلال جعلها صورة دون صوت، و لو عدنا إلى نصوص الكتاب الفرنسيين قبل 1832 وبعدها بعقود لوجدنا أنه يسوق لصورة خاصة للمرأة الجزائرية الذي جعل منها شهوانية متوحشة، في حاجة لترويض وذلك لتشجيع على الاستيطان، من خلال إغراء المستوطنين بجمال النساء وسذاجتهم .

ومن أجل توسيع دائرة الإغراء الذي يمثله الشرق، من جمال الطبيعة ودفعها إلى حضن نساءها، تمتزج كتابات الرحالة الفرنسيين، ووضعت لذلك عديد المكافئات، ما شجع الكثير من الكتاب على زيارة الجزائر فمثلا: ومن ذلك يصف (غوتيه) بنات قسنطينة في قصته (رقصة الجن) من خلال وصفه لهذه الرقصة التي اشتهر بها سكان المدينة "كانت هذه الراقصة طويلة ومنتسقة القوام، جسمها بارز الأنوثة وقوي في غير إفراط ،راحت تتلوى تحت ثوب مبهر وبراق تحت الأضواء ."⁵⁷⁰ ولم يتوقف عند وصف جسمها وحركاته، وراح يجعل منهن ساذجات حيث أنّ الراقصات الثلاثة استضفنا في بيتهن، دون معرفته لمجرد انه تائه ليلا في أزقة قسنطينة ..ويذهب جي دي موباسان (Maupassant Guy) في نصه إلى أبعد من ذلك فقد قدم إلى الجزائر سنة 1881 صاحب نص حلومة (Allouma) من مجموعته القصصية "المزلاج وحكايات سفيهة أخرى

⁵⁶⁹ Lynda chouiten: femme, code moral et conflit colonial dans les homme qui marchent de Malika mokeddem, EXPRESSIONS.N2.JUILLIA.2016.P..

⁵⁷⁰ أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر، دار التنوير، الجزائر ، ص16

"contes grivois le verrou et autres" وهي عشيقة أحد المعمرين الذي يصفها بصفات حيوانية "الوحش لعجيب، وحش الحسية، ووحش المتعة" لا تخلو من الغريزة الشهوانية التي لا تعرف الحب وتمارس الكذب ككل العرب وهي نظرة تحمل الكثير من العدائية وكأنما يريد أن يحذر المعمرين من الخوض في أي علاقة عاطفية مع المرأة العربية التي لا تصلح بحسب رأيه لغير الشهوة الجسدية، مقارنة مع نظيرتها الغربية⁵⁷¹ هذه الصورة التي أرادها المستعمر للمرأة الجزائرية ، غير أن مقدم سارت مسار المدرسة التي تخرجت منها .

حيث تذهب (ليندة شويتن) في مقالها حول رواية الرجال الذين يمشون إلى أن مقدم "رغم انحيازها ضد الاستعمار، غير أنها قدمت صورة للحالة المزرية للمرأة تضيي الشرعية للأطروحة الاستعمارية، حول الدونية المزعومة للمستعمر وبالتالي الرسالة الحضارية نفسها في الواقع، فان المرأة الجزائرية، غير المتعلمة والخاضعة لسلطة الذكورية، هي في أحسن الأحوال آلة للولادة، حيث تواصل انتصارها للمستعمر لتجعل من الآخر الأوروبي منقذا لشخصياتها المتعددة، فالحل يأتي دائما من الفرنسي أستاذتها، المديرية والطبيب وغيرها من الشخصيات الأوروبية، الفعالة التي تدعم حياتها البائسة وسط أهلها"⁵⁷² ليكون الخلاص أوروبا، فهي لا تربط النتائج بالأسباب فالجهل في واقع الأمر جاء من الاستعمار، إغلاق الأبواب على الفتيات والسعي إلا تزويجهن كان بسبب الظروف العامة التي عاشها الشعب في كنف فرنسا الاستعمارية.

إلا أنها تتحدث صراحة عن الخلاص في واقع الأمر، جاء من المدرسة، حيث لجأت إلى القراءة في الجزائر، في حين مارست الكتابة وهي في فرنسا، فإن كانت القراءة عملية عقلية صامتة ارتبطت بالموطن، أين كانت مقدم

⁵⁷¹ سارة بولكعبيات وآخرون، المجتمع الجزائري من خلال الكتابات الكولونيالية، مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات، 2021، ط1، ص110
⁵⁷² Lynda chouiten: femme, code moral et conflit colonial dans les homme qui marchent de Malika mokeddem, EXPRESSIONS.N2.JUILLIA.2016.P..

تهرب من الظروف المحيطة بها إلى عالم القراءة وإلى الكتب، لأنها تريد أن تنعزل عن العالم الواقعي الذي تعيش فيه، "إن كل إنتاج لخطاب علمي أو ثقافي أو معرفي لابد أن يختبر في مضامين تاريخانية لإبعاد كل مقارنة مثالية ومتعالية، فالإكتفاء بالمقارنة البعيدة عن ميكانيزمات الإنتاج وإعادة الإنتاج، سيجعل النظرية مغلقة بالمقدس والأسطورية فيحول بين الموضوع المدروس، والذات الدارسة حيلولة بعيدة عن النقد والعقلانية."⁵⁷³

فهي من خلال الكتابة تصدر صوتا ذلك الصوت الذي كان مكتوما سابقا فتقول وبالتالي فهي تكرر لذلك الصوت المقموع هنا، والحر الطليق هناك، وهي في روايتها (قرن الجراد) ترفض أن تعيش تلك الحياة المفروضة على المرأة الجزائرية وبأنها ستختار طريق مختلف عما تعانيه نساء الجزائر فتقول: «بابا، أصابعي لن تلمس الصوف الخشن أبدا...أريد فقط أن أنسج الكلمات، لن تنفذ أيامي أبدا بين الكانون، والقرية، والقصعة، لن يتم التضحية بحياتي لأولئك الغيلان نهمي البطون، رحمي لن ينجب الأطفال أبدا»⁵⁷⁴ أين تحاول مقدم على لسان الطفلة ياسمين رفض التّمط المعيشي للمرأة والذي يقتصر على الأعمال البيتية والطبخ، وكذا إنجاب الأطفال، ما جعلها ترفض الإنجاب في حياتها، بسبب نظرتها إلى ذاتها.

وهي هنا تختلف عن فكر جوليا كريستيفا التي تبجل الأمومة وتعتبرها ميزة إنسانية في المرأة وتسير على منحنى صاحبة "اليوسفي" والجنس الثاني "سيمون دي بوفوار، التي كانت هي الأخرى ترفض الأمومة، وما يهمنا هنا أنا مقدم بنصوصها أعادت إنتاج صورة المرأة التي تعيش على هامش التاريخ، العاجزة، المنعزلة عن الحياة الثقافية، وان تلك التي كانت تحب القراءة وتتحدى المجتمع وعاداته وتقاليده، هي وليدة المدرسة الفرنسية أين تدين لمجموعة من الأوروبيين الذين ساهموا في خروجها من حالات الغضب وإعانتها في تفوقها المدرسي، إلهامها مهنتها وغيرها من المحاسن التي تصف به هؤلاء فتقول: «و لكنني لم أنس أن مودة معلمتي، وسيدة يهودية ورئيس

⁵⁷³وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة 11

⁵⁷⁴Malika mokeddem: Le Siècle Des Sauterelles,p258

مشغل من الأقدام السوداء ورعايتهما.. كانتا غنيمتي حرب في طفولتي، فيما الحرب مستعرة في الجزائر. لقد أسهمت تلك المحبة والرعاية نهائيا في وقايتي من ثنائية المفاهيم السائدة في المجتمعات، تلك المحبة والرعاية.⁵⁷⁵

فقد قدمت صورة لحالة المرأة المزرية تضيء الشرعية على الأطروحات الاستعمارية حول الدونية المزعومة للمستعمر وبالتالي الرسالة الحضارية التي يحملها المستعمر. ليقودنا نص مقدم إلى استنتاج، "فليس المركز هو الذي يحدد المحيط، ولكن المحيط هو الذي يحدد المركز في حدوده".⁵⁷⁶

2- المركزية وتهميش أصحاب الأرض والأقليات:

غير أنها تتحدث أيضا في نصها عن الهامش الذي يعيش في كنفه سكان المستعمرة ومختلف أشكال الحيف الذي يعاني منه هؤلاء فبالرغم من حبها إلى المدرسة، وإلى هؤلاء ممن ساهموا في تشكيل ثقافتها، ومساندتهم لها غير أنها فكرت كثيرا في ترك المدرسة والمشاركة في تحرير الجزائر فتقول في روايتها « إن معركة التعليم تمثل أكبر معركة بالنسبة لي القلب يخفق في كل لحظة من اللحظات.. هذه المغامرة مازالت غامضة لأنها متفردة، أفكر في الحرب في الإذلال الذي أشاهده وأنا متوجهة إلى المدرسة. أحلم باستقلال بلدي وبالحرية الجماعية مثل كل الناس⁵⁷⁷. » وهذا قد يبرر أن مقدم لم تعد إنتاج الخطاب الكولونيالي بقصدية، فقد كتبت صراع البطلات (ليلي، خالتها سعدية، جدتها زهرة) في رواية (الرجال الذين يمضون) مع مجتمعهم، وكذلك مع المستعمر.

أين تفقد زهرة حياة الترحال وتضطر للاستقرار أما ليلي فقد كانت تعاني الحيف داخل المدرسة مع أبناء الكولون وكذلك في البيت مع الإخوة، أما سعدية التي تقهرها الظروف داخل الأسرة فتضطر إلى الهروب من البيت يقابلها الشارع بوحشيته أين يتم الاعتداء عليها، لتصبح بغيّة غير أنها تحرب مرة أخرى من تلك الحياة بعد أن تصير قوية وتفرض نفسها كامرأة أعمال لتشارك في الثورة بعد ذلك.

⁵⁷⁵ مليكة مقدم، رجالي، مرجع سابق، ص71

⁵⁷⁶ Jane E.Evans.tactical silence in the novels of malika mokeddem,p1

⁵⁷⁷ مليكة مقدم،المتفردة،42-43

إن نصوص مقدم تتحدث عن عيش النساء على هامش الحياة الاجتماعية والثقافية، من جهة والمعاناة من الاستعمار من جهة أخرى. أين نجد الحديث عن الهامش والعيش على الأطراف في عديد المحطات من بينها العيش على الهامش داخل أسرتها لكونها أنثى في مجتمع ذكوري فتقول في روايتها رجالي: " لقد ولد حب الأبوين من أجله. لا، لا أشعر بالغيرة بل أكتشف الحرمان والتهميش، إنها بداية إحساسي بالعيش على الأطراف وهو انطباع لن يفارقني أبدا⁵⁷⁸". الشعور الدائم لمقدم بانتمائها لجنس ثاني كان وراء هذه الكتابة المثقلة بنقد العادات والتقاليد وكذا المجتمع الجزائري تقول عن طفولتها « كنت الأولى في القسم الدراسي، وكنت فخورة جدا بأن أرى نقاطي لأبي. هذه الأرقام يعرف أبي قراءتها، كانت له هيئة جمل متساهل، أبعد دفترتي عن مجال رؤيته وقال بشفقة، لا داعي لهذا التعب، فأنتي لست ولدا يا ابنتي، أحسست كل جسدي يتصلب ويتهيج، كان نظري أسود.»⁵⁷⁹ النظام الأبوية يسيطر على المجتمع في تلك المرحلة من تاريخ الجزائر، فالمدرسة مكان خاص بالولد دون البنت فمقدم كانت من المحظوظين الذين استطاعوا دخول المدرسة ومواصلة الدراسة،(وقد فصلنا في الحديث عن هذه الثنائية في مبحث لاحق)، كما أن مقدم كانت تمثل الآخر بسبب الاختلاف من حيث الشكل وهي تلميذة في المدرسة فتقول « أن أكون جميلة معناه أن أكون بيضاء وسمينة ويكون شعر رأسي منتصبا، بينما أنا نحيلة وسمراء البشرة ومجعدة.» ولعل ذلك كان سببا من أسباب شعورها بالاختلاف وهي تعيش وسط الشقر في أوروبا .

تتعرض مقدم للإحساس بأنها جنس ثاني حتى في أوروبا فهي لا تملك بشرة بيضاء كما أنها تحمل مع شهادتها الطبية المتخصصة في الكلى، هويّة عربية من خلال اسم (مقدم) فتقول في نفس الرواية « سواء بسبب وجوهنا المتوحشة نزل في غير مواضعنا في هذا الجسم الطيب...كنت لوحدي، أراكم كل العيوب. فأنا برونزية اللون، وامرأة ولست حتى بنت أحد أقطاب الجنوب، إضافة إلى كل هذا فقد كنت ثرثرة، الجنس الثاني لآخر

⁵⁷⁸ مليكة مقدم، رجالي، 23

⁵⁷⁹ مليكة مقدم، المتمردة، 55

الأعراق. «⁵⁸⁰ وبالتالي الشعور بالعيش على الأطراف لم يكن مقصوداً على العيش في الجزائر فكذلك المهاجرين يعانون من التهميش والاختلاف عن أصحاب الأرض، وأنا توظيفهم ارتبط أساساً بالحاجة إليهم لا غير فتحدث عن توظيفها الذي كان حظاً بسبب تفرداها في ذلك الاختصاص حيث أنه « وإذا كان عندي هذا الحظ غير المنتظر في الحصول على وظيفة اختصاصية في أمراض الكلى قبل نهاية دراستي، فلأنه في هذه اللحظة، فقط، لم يكن أحد من العشيرة يضع عينيه على هذا المنصب، وبطبيعة الحال تم تحذيري بأنه يتوجب علي أن أُرشح بأيّ ثمن بمجرد أن يتقدم أحد أبناء السراي من الباب الصغير»⁵⁸¹

فكرة الهامش لم ترتبط بالمكان أو بفضاء ثالث كما ذهب إليه هومي بابا بقدر مرتبطة بهوية الشخص انتمائه العرقي، ملامح هويته التي تظهر من تفاصيل وجهه وقد قدمت مقدم أمثلة على ذلك من خلال ما يعانيه الرجل من غير الأوروبي من عنصرية ومضايقات في فرنسا مثلاً مصطفى صديقها المقرب لم يستطع تحمل ما يعانيه من احتقار وتعسف بسبب لونه الأسمر خاصة في أماكن التفتيش بالرغم من مهنته كطبيب فتقول: «حكي لي موص عن متاعبه الباريسية، وهو ينهمك حول الفرن، وانزعاجه من رجال الشرطة الفرنسيين، إنهم يعترضون سيبيلي للسؤال عن أوراق الثبوتية. وعندما يدركون أنني طبيب يعتذرون» .⁵⁸²

هذه الممارسات ليست غريبة على فرنسا الاستعمارية التي تنظر إلى الآخر نظرة شك وارتياب دائماً وقد تحدثت في ذلك على لسان شخصية أخرى متمثلة في أخيها (الطبيب) الذي ذهب إلى فرنسا في نفس الوقت الذي ذهبت فيه مقدم أين توجهها إلى مرسيليا تقول «اتصل بي يوماً وأعلن بدون مقدمات!»: «الن أبقى في فرنسا. إنه بلد عنصري! سأواصل رحلتي حتى بلدان الشمال حاولت أن أحتج على هذا المفهوم الاختزالي، ولكنه أجاب بنبرة حاسمة الوضع أسهل على البنت، لاسيما بنت جميلة وأنيقة مثلك. لا تتخيلي كم يقاسي الرجال السمر

⁵⁸⁰ المرجع السابق، ص 61

⁵⁸¹ المرجع السابق، ص 62

⁵⁸² مليكة مقدم، رجالي، ص 97

البشرة. لم أرحل عن الجزائر لأتحمل ذلك.»⁵⁸³ فالعيش على الهامش لا يتعلق بالجنوسة إذا ما ارتبط الأمر بدول المركز الذين لا ينظرون إلى الثقافة الأخرى إلا كآخر لا يشاركونهم الإنسانية، فيعاملونه ككائن لا إنساني وقد أطلق المفكر والشاعر (أيحي سيزار) من جزيرة المارتينيك على ذلك "بتحويين الإنسان" في كتابه "خطاب حول الاستعمار" و لشدة تنمر المجتمع الغربي فقد تم إنتاج فيلم حول هروب القردة من أحد المخابر وانتقامها من الإنسان أين كان زعيم القردة يلقب بسيزار، وهكذا يحاول العقل الغربي أن يحور القضايا الكبرى يستغلها لصالحه ويخرجها من مضمونها الإنساني لصالح إنسانيته التي لا تخسر أمام سكان العالم الثالث.

3- مقابلة المركز مع الهامش خارج الاستعمار القديم:

بعد نصف قرن من خروج المستعمر من بلدان الاستعمار، على المستوى الشكلي، إلا أن الاستعمار لا يزول بزواله، فقد دعمت السفارة الفرنسية في لبنان لترجمة و لنشر كتاب مقدم "أدين بكل شيء للنسيان" وذلك لعدت أسباب، أهمها أن مقدم تسلط الضوء على المجتمع والعائلة الجزائرية وكذلك النساء، لتحاول تصوير زيف هذا المجتمع، والحث على التمرد الذي يكون هو الحل أو البديل لتتفق وجهة نظر مقدم مع ما تريده فرنسا خاصة في هذه الرواية: «لن تنجو الجزائر إلا عندما تتجهز بقوانين عادلة وعلمانية عندما تبعد ظلامية البلاد، عندما لن تكون مدارس الجمهورية أماكن يغرق فيها الأطفال في الظلام».⁵⁸⁴

كتبت مقدم روايتها هذه سنة 2011 أي بعد خروج الجزائر من أزمة العشرية السوداء بعد المصالحة الوطنية التي تمت سنة 2005م غير أن البارز هنا أن نص مقدم لازال يتحدث عن العنف وعن محاسبة الجنات، فهي تعود إلا ماضي لا يمر في مخيلتها إلا كسراب ليختفي كلما اقتربت إليه، لتتحدث عن قتل الأطفال الغير شرعيين، واعتبار قتل الرضع أهون من الفضيحة، فصورة المجتمع والعائلة أهم من الروح، غير أن مقدم تعتبر أن

⁵⁸³ المرجع السابق، ص164

⁵⁸⁴ مقدم القدم، أدين بكل شيء للنسيان، مرجع سابق، ص56

تحقيق العدالة بالافتقار من الظالم، هي البداية الحقيقية لدولة الديمقراطية، وان بذل قلب الصفحة يجب تمزيقها، تقول «ولكن كيف نثق بكفاية ديمقراطية حقيقية، بتعليم نوعي، يطور العقل النقدي، بالحريات والمسؤوليات التي تنتج عن هذا للقضاء على مصدر الظلامية في الناس؟ حدث عنف كبير هنا دون أن تقتص العدالة. صدمات نفسية كثيرة ماتزال مخفية ماتزال خبيثة». 585

تحدث مقدم عن المدينة بعد سنين من الاستقلال أين هجر الناس القصر لينوا خراب هجينا على الضفاف تقول "انهدم القصر الجميل الذي تم التخلي عنه، في حين غنغر بنيان شنيع المساحة التي بين أكوام الأنقاض والكثبان، انمحت كل التباينات. انتج الاستقلال مسخا عرقيا لم يسبق له مثيل." 586 والذي تصفه في نص آخر بالورم الذي نبت على أطراف القصر، هذا الوجه الآخر للاستقلال أو بالأحرى لثقافة القبح التي أصبحت تمثل الطابع العام للحياة في الجزائر،

غير أنها بعد عيشها في المجتمع الفرنسي بما يفوق ما عاشته في الجزائر لم تستطع أن تتحدث عن هذا المجتمع وأن تلوذ إلا دواخله في ما عاد بعض الحديث عن النظرة العامة لسياسة الفرنسية، أين تتساءل مقدم عن طبيعة الحضارات الكبرى فتقول: «هل الحضارة الكبيرة معفاة من الجانب المظلم الذي يلبد في الأعماق البشرية؟» 587 تتساءل بدورها هل تملك مقدم جواب على ذلك، هل الجانب المظلم للأعماق البشرية مرتبط بالمناطق التي تعرضت لظلم وماذا عن الظالمين الذين كانوا سبب في كل ذلك؟ أم أن يواجه المجتمعات البدوية بدواؤها أسهل من مناقشة الحضارات الكبرى بزيفها .

فتقر مقدم بهذا الزيف الذي يغلف كل من فرنسا الاستعمارية والجزائر لتضعها في مواجهة بعضهما البعض فتنتقد كل منهما فتقول: «الجزائر أم فرنسا، لا يهم؟ الجزائر المتخلفة بأكذوبة الحداثة المزيفة: الجزائر المناقفة التي لم

585 المرجع السابق، ص ن

586 مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، المرجع السابق ص 57

587 المرجع السابق، ص ن

تعد تقنع أحدا، والتي تريد أن تبني لنفسها واجهة محترمة بإصاق كل غلطاتها، كل أخطائها ب(يد أجنبية) افتراضية: جزائر العبث، بتشوهاها الذاتية، وفصامها: الجزائر التي تنتحر كل يوم.⁵⁸⁸ وهنا نتحدث مقدم عن زيف الحداثة في الجزائر، وكيف أنها لا تواجه أخطائها وإنما تتمسك دائما بنظرية المؤامرة التي يجيئها الغرب ضدها، فتمسح من خلالها كل أخطائها، ووفقا لهذه الفقرة المنتقاة فمقدم التي كتبت عديد نصوصها عن الجزائر لا ترى في الجزائر إلا حطام ما بعد الثورة، وأن الثورة الكبرى قد بائت بالفشل في إخراج الجزائر إلى بر الأمان،

كما أنها تنتقد أيضا فرنسا فتقول: «فرنسا المعجبة بذاتها والمبالغة في اندفاعها لا تهم أيضا. فرنسا التي تشهر للعالم بروسات رئيسها، ممتلئة بديمقراطيتها الإمبراطورية: فرنسا التي تقصف أطفالا هنا، تهدي موزا محتضر بإفريقيا، ضحية للمجاعة هناك والتي تتربع أمام شاشاتها، وتتلذذ بمشاهدته وهو يموت، ضميرها مرتاح، فرنسا المتبجحة تارة تتقمص شخصية تارتوف، وتارة شخصية ميكافيل، بلباس إنساني، لا تهم»⁵⁸⁹ فالحادثة أظهرت زيف الثقافة والحضارة الليبرالية، التي لا تملك من الإنسانية غير صور مشوهة تريد أن تسوقها من الحين إلى الآخر من خلال حقوق الإنسان كمنظمة اليونسكو وغيرها، والتي تغطي من خلالها على قبح إنسانيتها وتشوهاها التي تستقي من شخصية تارتوف وهي إحدى الشخصيات المخادعة في مسرحية موليار، أما ميكافيل ذلك العالم الاجتماعي صاحب كتاب الأمير الذي يقود القوى، ويجعل السبيل إليها تبريرا لكل وسيلة، هذان الشخصيتان لهما الأثر البالغ على الثقافة الأوروبية مع عصر البرجوازية، في عصر الحداثة أو عصر الجنون كما أسماه الكاتب المصري مصطفى محمود، غير أننا نقد هذه الثقافة كان من الغرب أساسا، والذي كان وراء ظهور النظرية الكولونيالية وما بعدها وكذلك النسوية وما بعدها في تقديم خطاب يفضح الممارسات الاستعمارية،

⁵⁸⁸ مليكة مقدم، الممنوعة، ص 83

⁵⁸⁹ المرجع السابق، ص ن

أين تفصح مقدم عن جوابها عن السؤال السابق حول إعفاء الحضارات الكبرى من الظلم في روايتها السابقة لسؤال ذاته فتقول: «لا تهم البلدان والأمم، لا تهم المؤسسات وكل التجريدات حينما تكمن الدودة الخالدة داخل الشخص نفسه»⁵⁹⁰ لتعود إلى فكرة إصلاح الإنسان، وإعادة بناءه فلا سبيل للبحث عن مجتمع مثالي بعيد عن العنصرية والشفوفانية وأن البحث عن هكذا عالم غير موجود إلى في أفكار المثاليين ليكون عالم الأفكار هو انتمائها الوحيد، أين بإمكانها أن تؤسس لعالمها الخيالي بعيدا عن العنصرية سواء تلك التي تعاني منها النساء في المجتمع الرجالي، وتلك التي يعاني منها الأقليات العرقية والدينية في دول المركز، لتكون فكرة المركز والهامش منظور يمكن تصوره من زاوية الرؤية التي توجه إليه، .

تعمل على تهميش نصف مجتمعا، ودول المركز تلغي الآخر المختلف عنها غير أن سحق هذا الآخر في واقع الأمر هو محور لذات التي لا يمكن النظر إليها ورفعها إلى في اتجاه الآخر، وبرغم مما توصلت إليه البحوث والمناهج الحديثة في تفكيك وتقويض هذه الثنائيات، غير أنها لا يمكنها تذويب هذه الحواجز بين من يعيش على الهامش ومن يكون صدرا أو مركزا ، إلا من خلال الكتابة في محاولة صنع عالم موازي لذلك الحقيقي ونزع تشوهات، والذي يمكن أن يكون بديل عن الواقعي بعد رده من الزمن .

ولأننا بصدد دراسة تمثيلات الهامش في خطاب مقدم فإننا سنورد أهم النقاط التي ميزت خطابها:

- كرسست مقدم فكرة أن المرأة الجزائرية تعيش على هامش الحياة والثقافة تعاني الاستلاب وفي حاجة إلى إعادة تهيئتها من خلال سن قوانين عادلة وتنظيمية بعيدة عن مركزية الرجل وكذلك عن مركزية الدين حيث ترى أن المدرسة لم تعد مكانا صالحا لتعلم فقد أصبح بيئة أصولية تنتج الحمقى بحسب رؤيتها وهي هنا تطرح فكرة علمنة قطاع التربية .

⁵⁹⁰ المرجع السابق، ص ن

- بالرغم من أن مقدم عانت من العنصرية في فرنسا بسبب اختلاف بشرتها السوداء وعدم امتلاكها لأي وساطة تدعم وجودها في مجتمع متوحش لا يمكن أن يتقبل الآخر المختلف إلا لأسباب غير أنّها لم تنظر إلى هذه الثقافة إلا نظرة إعجاب رغم انتقادها لبعض المظاهر الاجتماعية والثقافية، فهي تمجد الحرية التي تعيشها في فرنسا .
- بالنظر إلى الأصوات الموجود في النص فمقدم تلغي صوت الرجل وكذلك صوت المرأة فهي لا تنظر ولا تحدث كليهما إلا من خلال ذاتها، فهي لا تعطي الرجل فرصة الدفاع عن سلطته وكذلك المرأة فهي لا تدافع عن نفسها إلى من خلال مقدم ذاتها، ويمكن إرجاع ذلك إلى أن مقدم متشعبة بالثقافة الغربية التي تعتبر الذات منطلقا للوجود، فراحت تحرر نفسها، من ضمير "نحن" من خلال تخلصها من قوانين الجماعة، من خلال إنكار سلطة الأب، إلى إنكار سلطة الإله، المجتمع وعاداته، واعتبرت أن إنكار "نحن" المتمثلة في المجتمع ضرورة لإثبات الذات، برغم من كونها تعتقد أنّها تدافع عن نصف المجتمع من هذا المنطلق عملت على إصدار أحكامها و سرد قصصها.
- تعمل مقدم بالثنائيات المضادة وذلك من خلال مقابلة الشخصيات، مع ضدها في كل مرة لتجعل من هذه الثنائيات مركزا من خلال قدرتها على التحكم في الأحداث ووعيها بذاتها، التي تعد منطلق للإرادة الحرة التي تحطم أي تعسف من خلال التمرد والثورة مثلما سنوضح في الجداول التالية:

رواية (الرجال الذين يمشون): تتفوق دائما أبطال مقدم مهما وضعوا في مواقف صعبة.

المركز	الهامش
الجددة زهرة	تقابل المستعمر
أبو حلوف"	يقابل العشيرة
سعدية	تقابل المجتمع ثم المستعمر
ليلي	تقابل العائلة

رواية (قرن الجراد):

المركز	الهامش
الأم نجمة	المجتمع
الأب	المجتمع وكذا المستعمر
ياسمين	المجتمع والمستعمر

رواية (المنوعة):

المركز	الهامش
سلطانة	المجتمع
الوالد	المجتمع
الطفلة دليّة	العائلة

ففي كل نصوص مقدم تواجه بطلاتها مع المجتمع وعاداته وتقاليده، فتحاول التفوق عليه ففي الممنوعة تتمكن سلطانة من السير في جنازة ياسين وتتقدم الموكب، كنوع من التحدي والريادة المفروضة على المرأة لتفويض السلطة الذكورية تقول: « وضعت يدي في جيوبي، ضغطت قبضتاي على القماش ودعكتاه. أسرعت خطاي إلى أن التحقت بمقدمة الموكب. الرجال ورائي، وأنا المرأة وحدي أتقدمهم، وجميعا نسير نحو المقبرة. ».⁵⁹¹

⁵⁹¹ مليكة مقدم، الممنوعة، ص 23

رابعاً: ثنائية الأصالة والمعاصرة في كتابات مليكة مقدم

هذه الثنائية الملازمة لحركية الإنسان، متجددة على الدوام، امتلاك الإنسان لهوية متغيرة متجددة، لا تعني الانسلاخ فهو متفرد من حيث كونه يمتلك أصالة تعود به إلى مسقط رأسه في كل حين، ومتجدد من حيث مواكبته للعصر الذي يعيش فيه، فهي متطورة ومتغيرة، بحسب تغير الفرد لا يمكن أن تتأرجح ثنائية عن الأخرى، غير أن تكوين الفرد العربي الذي يحاول أن ينتصر للجماعة على حساب الفرد كان وراء البحث عن الأصالة دائماً، عن مدى ارتباط هذا الفرد بالجماعة ومدى تشابهه معهم، لأن هذا التشابه هو الذي يحدد انتماءه وبالتالي هويته، قد لا تكون الهوية هي الانتماء غير أنها تتشكل من هذا الانتماء،

حيث إن الصلة بين القديم والحديث، متداخلة يصعب فصلها ليقول في ذلك يوسف الخال: "بين كوننا شكلاً في العالم الحديث، وكوننا جوهرًا من خارجه، (تناقض) يضطرنا إلى معاناة قضايا مجتمع قديم في عالم حديث، ومعاناة قضايا عالم حديث في مجتمع قديم، ففي التعبير عن معاناتنا تلك نعرض أنفسنا لإنتاج أدب يجده القارئ العربي مستورداً غريباً." ⁵⁹² هذا ما قد يحدث شرحاً في الهوية، انشطار الذات، العربية التي تعتر بأصالتها، وتريد أن تواكب الحياة المعاصرة، على غنى هذه الأصالة غير أنها عاشت مرحلة من الفتور والقطيعة أين انتصرت الثقافة الغربية لتستحوذ على الحياة الثقافية والفكرية المعاصرة.

يتحدث أدونيس عن تشكلات الثقافة العربية التي نشأت عن عدم الخروج عن النص القرآني، وعن الشكل العروض لشعر القديم، لتكون الكتابة تقليداً متواصلاً، برغم من أن النص القرآني جاء مختلفاً بليغاً دقيقاً ومعجزاً على مستوى اللفظ والمعنى، يخاطب العقل إلا أنه لم يؤثر في الكتابة العربية فيقول: "لكن هذه الكتابة لم تؤثر في الكتابة العربية، تنوعاً وتفريعاً، تفتيحاً ومقابسة، وإنما قلدت كثيراً." ⁵⁹³ فالاعتماد على التقليد يفرغ

⁵⁹² عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة (نحو نظرية نقدية عربية)، عالم المعرفة، مطابع الوطن، الكويت، 2001، ص 17

⁵⁹³ أدونيس: موسيقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة، العنف)، دار الآداب، بيروت، ط 2002، ص 1، ص 21

الكتابة من خصوصيتها، " وفي الممارسة التاريخية، هيمن النص القرآني بوصفه خاتماً يحتّم الوحي، على صعيد النبوة، وبوصفه، على الصعيد الكتابي، إعجازاً، وأدت هذه الممارسة نفسها، لسبب أو آخر، إلى مفهوم للكتابة يفصل بين الشكل والمعنى، ويعطي الأولوية للقاعدة. وأدت تبعاً لذلك إلى هيمنة الأصول الكتابية كما ترسّخت، شعرياً في الفترة السابقة على الإسلام.

هكذا نهضت الثقافة الإسلامية العربية على يقينين: يقين المعنى الإسلامي، ويقين الشكل الجاهلي ولعل في هذا ما يوضح كيف أن الممارسة الفكرية، وفقاً لتأويلها الذي هيمن، ليست في ابتكار المختلف، وإنما هي، على العكس، في ترسيخ المؤلف. المماثلة وتوجهها،⁵⁹⁴ هذا النوع من الثقافة ينعكس على الفكر اللذان شكلا وعي العربي المعاصر، الذي يعد القرآن الكريم مصدر لكل معارفه في مختلف المجالات، العلمية واللغوية والفقهية لذلك فهو مجتمع نصي والذي يتعارض حقيقة مع العقل الغربي الذي راح يجعل من العقل يقيناً مطلقاً، وراح يحطم الحواجز الذي اعتبرها وهماً وضعت لتقييد الإنسان، ومن هذا المنطلق جاء الفكر الغربي المتعالي على ذاته والذي لا تحكمه القيم والأخلاق، بل العقل في صورته الغير مكتملة، فاليقين أمر نسبي، غير أن ما استفادته الثقافة الغربية من ذلك هو خروج الإنسان المعاصر عن التّمط فراح يفكر ويبتكر ويخترع، حتى اللغات الإنجليزية والفرنسية استفادة، فتطورت، بينما العقل العربي ظل مرهوناً للتقليد، تقليد كل شيء حتى الغربي، بين هذين النقيضين (التقليد والابتكار) ولدت كتابات مليكة مقدم، تقلد فيها الرواية الغربية الحديثة وتحاول أن تنتصر للأنثى في كتاباتها من خلال فكرة التمرد على الأعراف والمجتمع، فجاء نصها يمتزج بين الأصالة والمعاصرة شكلاً ومضموناً.

⁵⁹⁴ المرجع السابق، ص 21-22.

1- الأصالة في كتابات مليكة مقدم:

إن البحث عن الأصالة في روايات مقدم شبيه بالبحث عن الشمس في الصحراء، أين تكون ظاهرة للجميع ساطعة حارة، لحد لا يمكنك النظر في اتجاهها، فهي تكتب أصالتها على مستوى الشكل والمضمون أيضاً، حتى وإن خرجت عن النص بمخالفتها للمجتمع غير أنها لم تخرج عن العصبية الجاهلية، وذلك من خلال إعلاء الصوت الواحد في النص، فهي تسرد ذاتها في كل التصوص على اختلاف الأسماء ولكن بطريقة ذاتها فهي لا تضع الشخصيات في مواجهة بعضها البعض لتثبت من خلال هذه المواجهة أفكارها وإنما تفرض أفكارها على النص دون وساطة العالم، أحيانا من خلال البطلة فقط، كروايتي (رجالي والمتمردة) حتى وإن شاركت البطلة، شخصيات أخرى فهي تسير مسار البطلة تفرض نفس توجهاتها في كتاباتها (الممنوعة، الرجال السائرون، ليلة السحلية ونزيد ..) حتى أنها تروي نفس الحكاية باختلاف البطلة، حيث أنه هناك دوما امرأة في مواجهة مع المجتمع الذي يحاول اضطهادها، غير أنها تتفوق عليه، شيء أين "يرى النقد الإنجليز الصور المتكررة علامة لفكرة ما يحاول المؤلف تسجيلها." ⁵⁹⁵ الكاتبة تحاول أن تنتصر لأفكارها و حرية المرأة في صراعها الدائم مع المجتمع، هذا ما جعلها تعتمد القضية الواحدة وجعلها نموذجا في كل روايتها، غير أن هذا النموذج يحيل إلى الكاتبة ذاتها، والتي تتقمص فيه الشخصيات رؤية مقدم للحياة والأدب، لتحاول بطلاتها الدفاع عن خيارات الكاتبة في الحياة الحقيقية.

كما أنها تسرد الثقافة الصحراوية البدوية في كل تفاصيلها، تعود بالقارئ الغربي إلى قصص ألف ليلي وليلي، من خلال الكتيبان الرملية ومن خلال الحكيم، هذا لا ينقص من نصها خاصة أنها تكتب لثقافة مغايرة، وبالتالي فهي تريد أن تتوغل في ثقافة الآخر ببدائها من خلال سرد تنقلات وحياة البدو، وأيضا حكاياتهم،

⁵⁹⁵ دكلاس كلوفر: الرواية كقصيدة شعرية، تر: الجيلالي الكدية، دراسات سيميائية أدبية لسانية، فاس، المغرب، العدد 5، خريف/شتاء 1991، ص 35

تقول: « فتهمس لي ببعض حكايات الرحالة، فجدتي يحضرها الكلام كثيرا في الليل، فرما تنتابها هي الأخرى انقباضات نفسية، وأنا الآن، أعتقد هذا. منفية من حياتها المرتحلة، في سن متأخر، لم تعد تملك إلا الكلمات كي تهرب من ثبات الاستقرار ولكي تجد رحلاتها ووصولها». ⁵⁹⁶ فحياة الرّحل تحمل ماضي شفوي مميز، مليء بالمغامرة لا تقل جمالا عن رحلات السندباد .

تحدث مقدم عن بعض هذه الحكايات التي تعد تاريخا ثقافيا لحياة البدو تقول: « أتخيّل أياما من المشي المنهك، شبح (جبل الحب) المنبطح مثل ديناصور في سعة الفيافي. سرعة الخيول الخاطفة. هالة من الغبار الذي تجرّه خلفها. الجدة تمتلك سجلا رائعا عن الخيول، رمز الهضاب العليا، ولا أراني إلا وقد أخذتني كوكبة فرسان مجنّحين، أخيرا، نحو التّوم.» ⁵⁹⁷ فتجرنا مقدم إلى مرحلة ما قبل الاستعمار لتنتقل لنا صورة من صور حياة الرّحل، قبل استقرارهم بعد الاستعمار، وكيف ظل التّرحال يسكن محيطة الجدة التي لا تتوقف عن سردها لتنتقلها الدائمة، والتي تعدها مقدم سبب في اختلاف شخصية الجدة عن أمها، كما تنقل لنا أيضا في نصها (قرن الجراد) ثقافة الآخر الفرنسي الذي حل على البلاد كالجراد وأكل الأخضر واليابس فلم يترك خلفه إلا الخراب وإنّ مقاومته لم تكون إلا من خلال الشّرق وهي هنا تعد فضل الشّرق في مقاومة التخلف الذي أراده المستعمر للجزائر، والذي كان وراء اغتيال صوت البطلة بسبب الصّدمة التي تعرضت لها بعد قتل أمها، وبالتالي إخماد صوت الطفولة التي تمثل مستقبل البلد، غير أنّها تلجأ إلى الكتابة كبديل عن الصوت الذي يعد تخلي عن الشّفهية البدوية إلى مرحلة أخرى وهي التّدوين والكتابة في مواجهة الطمس والاختراق الذي حمله الجراد إلى الجزائر.

حيث تبدأ روايتها هذه بتقديم صورة عن الحياة الرعوية في الجزائر تقول: «قطيع صغير من الغنم، وثلاث جمال وحمار، يسر محمود بخفة وراءه، ترفرف عصا في يده وتنقر الأرض أمام أقدامه المتعثرة، إنه سعيد في الصباح

⁵⁹⁶ مقدم قدم، الممنوعة، مرجع سابق، ص16.

⁵⁹⁷ المرجع السابق، ص17

الباكر، باع في السوق أكبر شاتين له. لم يستطع الاحتفاظ بها لفترة أطول، ناهيك عن أكلها. كانوا أول قطع له معاً، لسنوات ساروا في السهوب، صعوداً وهبوطاً في هذه العزلة العظيمة، يصبح المرء مرتبطاً بالحيوانات. «⁵⁹⁸ معتمداً الأسلوب الوصفي، في حديثها عن طبيعة الحياة وكيف تجعل العزلة من الإنسان الذي يملك طابعا اجتماعيا، يبحث عن بديل استأنس الحيوان، وتواصل وصفها لحياتهم وطريقة أكلهم ولباسهم، مشية محمود وهو يضع العصا على أكتافه بعض القصائد الشعرية، كل هذا لم يكن إلاّ تعبيراً من مقدم عن أصالتها، والحياة البدوية الجميلة الهادئة بعيداً عن هجوم الجراد، الذي يفتك بحياة محمود وأسرته بمجرد قدومه، لتموت نجمة، ويلجج صوت ياسمين إلى الأبد. غير أن محمود لا يستسلم لذلك وراح يعلم ابنته الكتابة، لتمكن من التواصل، كنوع من المقاومة مقاومة بالكتابة، وراح هو الآخر يحاول أن ينتصر للمدرسة على حساب الزوايا التي انتشرت في الجزائر في العهد العثماني، واستمرت إلا يومنا حيث أن لهذه الأماكن سلطة تمارسها على الأشخاص والتي تنتشر بكثرة في المدن الصحراوية خاصة.

تكتب مقدم بلغة شاعرية من خلال كثافة الصور البلاغية من استعارة ومقارنة، لترتقي بخيالها السردي كما أنّها تحافظ على قراءة متناغمة فقد لجأت إلى البحر في رواية (نزيد) لقدرته على التحدث إلى البشر، ويتشدد ويمتص مختلف اضطراباتهم فهو أكثر الأماكن شاعرية، وتصاحب نصها بصوت التاي الذي يرافق النص، فالتاي جزء من الثقافة والهوية البدوية لمقدم، والتي برغم من فقدان ذاكرة البطلة فهي لم تفقد هذا الجانب الأصيل من ذاتها، فراح يرافق رحلتها في البحث عن الذات.

فلا يمكن فهم نصوص مقدم إلى من خلال فهم أصولها البدوية، التي ارتبطت بها وراحت تحبب قصصها على منوال الرحل، لتضم رحلاتها إلى رحلات جدتها. غير أنّها تتحكم في مصير بطلاتها وتحدد مسارهن رغم حالة

⁵⁹⁸Malika mokeddem :le siècle des sauterelles;ipdi,p11

التيه الذي تعيشه بطاقتها، غير أنهن مقاتلات، يصارعن الحياة والبؤس والحرمان فينتصرن وينشدن ترانيمهن الخاصة في كل مرة، أين تقودهن مقدم في رحلة لا نهائية من خلال الكتابة.

2- المعاصرة في كتابات مليكة مقدم :

تكتب مقدم سيرتها من خلال الرواية هذا الفن الحديث الذي أصبح طابع العصر، لتكون الرواية جنون العصر الحديث، إذ فاقت الروايات المكتوبة عدد قرائها، وتنسج مقدم رواياتها مستعينة بقراءاتها التهمة موظفة نصوص غيرها، وهذا ما تحدثنا عنه سابقا، ولأن الرواية ولدت في بيئة غربية توسعية على يد الإمبراطورية أخذت طابعا إمبريالي في كتابات مقدم وقد ترجمة إلى لغات عديدة(العربية والإنجليزية والألمانية) لتجد مكانة بين الأقلام العالمية وظفرها ببعض الجوائز. فقد حصدت "رواية الرجال الذين يمشون على جائزة من مؤسسة نور الدين أبا سنة 1990"⁵⁹⁹ وغيرها من الجوائز.

لنعود إلى تقنيات الرواية المعاصرة في كتاباتها، فقد اعتمدت مقدم، تقنيات الرواية الحديثة، والذي كان الأدب الجزائري يسعى لمعاصرة الأدب الفرنسي ومحاولة التفوق عليه من خلال نسج حكايات سردية، لهوية الشعب المستباحة من المستعمر، بطريقته وأسلوبه وحتى لغته.

غير أنه لم يتخلى عن أصالته العربية، التي كانت تميزه، فلا يمكن إنكار ما لنجمة لكاتب ياسين على الرواية الحديثة، وكذا شاعرية مالك حداد، وواقعية محمد ديب، ورومانسية ميساء باي، أما مقدم فخاصيتها الأساسية هي جرأة البوح، وبين كل هذا نشأت المدرسة الجزائرية الأدبية التي لا تقل أهمية عن غيرها من المدارس، فراحت مقدم تهجن اللغة والأجناس وحتى الأشخاص والدول بطريقة فريدة ولغة قوية، وشاعرية حيث يرى باختين " أن

⁵⁹⁹ مليكة مقدم، المتمرده، مرجع سابق، ص101

الرواية لا يمكن أن تستحق اسمها إذا لم تكن خليطاً من المحكي والنشيد ومن أشكال أخرى. "600 هذا ما يجعل من الرواية منفتحة على غيرها من الفنون ممتصة لها .

حيث سنعرض أهم التقنيات الحديثة التي اعتمدها مقدم في كتابة روايتها المدروسة.

- بدءاً بلعبة الزمن بين الحاضر والعودة إلى الماضي في كل حين حتى أنّها تفقد أبطالها ماضيهم، في روايتها (نزيد) وتعمل على استرجاعها، وفي عملية البحث تبدأ لعبتها بإعطائهم شخصية وهمية أو هوية مفبركة، حيث تصارع هذه الهوية المفبركة للبقاء، غير أنّها لا تجد جذور تثبتها فتقع في كل مرة، إلى أن تعي ذاتها، صراعها لم يكن ضد النسيان فقط بل ضد الهواجس التي تسكن داخلها المشتت بين عوالم عديدة، في بحث عن ولادة جديدة لنورا بعيدة عن أي تعصب عرقي، إذ يتعرف القارئ على بداية الأحداث في الصفحة الأخيرة عندما تعود الذاكرة وتكتشف الأحداث التي تسببت في فقدان ذاكرتها .

- المزج بين الواقع والخيال فالكتابة الإبداعية هي ليست إعادة إنتاج صريح للواقع وإنما تداخل بين العالم الحقيقي والعالم الخيالي، فتروي مقدم سنين من حياتها وحياة البدو في الصحراء قبل الاستعمار وبعده وصولاً إلا تسعينيات القرن، غير أنّها في كتابتها للأحداث والوقائع تستعين بالرمز، فلا يمكنك الوصول إلى الواقع الذي تصوره مقدم مباشرة وإنما تحتاج إلى فك شفرة نصوصها، خاصة في روايتها الأولى (الرجال الذين يمشون، قرن الجراد، ونزيد)

كما تلجأ مقدم لتحديد جنس العمل الأدبي في كتاباتها (الرجال الذين يمشون، رجالي، المتمردة) بالرواية رغم تصريحها بأنّها تكتب سيرتها الذاتية، غير أنّها من خلال ذلك تحاول الهرب من فخ الوقوع في كتابة السيرة التي تفرض عليها أن لا تخرج عن واقع حياتها فتستعين مقدم بشخصيات مختلفة تلبسهم حياتها وتقودهم إلى مصير تريده لهم، بعيداً عن ميثاق (لوجان). فتتبرم ميثاقاً مع قارئها، أين تعدّه بإتمام حكاياتها في كل مرة، وترشده من

600 ميخائيل باختين، ترجمة محمد ب ا ردة، الخطاب الروائي ط1 ، دت ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، باريس، ص 1

خلال الإيجاء فتروي على لسان زهرة لأحفادها قصة أسلافها من البدو الرحل غير أنها تحذر في الوقت ذاته جمهورها فتقول " أعلم أن الراوي كائن غريب الأطوار، يلعب بكل شيء. حتى من قصته الخاصة، يعث بها، ويعيد تشكيلها بين أحلامه وقبح الواقع، اعلم أيضا أن ثرثرتك لن تؤدي إلى تسليته.."⁶⁰¹ يتطابق هذا القول مع قول فرجينيا وولف في كتابها غرفة خاصة بالمرء وحده أين تحذر هي الأخرى قارئها تقول: "سوف تتدفق الأكاذيب على لساني ولكنها أكاذيب مشوبة بالحقيقة، وعليكن أن تسعين إلا تلك الحقيقة"⁶⁰² لتنشئ أدبا هجينا قلبا وقالبا، رفضا منها لتطابق فهي ترفض الهوية الواحدة المتطابقة مع ذاتها، وتطرح دائما فكرة التعددية، والمهجنة على مستوى الشكل، والموضوع لذلك تكتب سيرتها الذاتية من خلال مزجها بالخيال، وهنا نفسر ذلك إلى أنها لا تقصد كتابة الذات بقدر محاولتها لإعادة الولادة من جديد من خلال الكتابة خلق ذات جديدة تقاوم بها العالم القديم الذي يعيق تصوراتها الذاتية لنفسها، وطريقة تموضعها في هذا العالم .

- استخدام العجائبية السحرية من خلال دمج الأساطير بأبطالها وإعطائهم قواهم العجيبة
- لتم لهم الخلود، معلقة كتاباتها بالحضارة اليونانية والصينية والرومانية ففي رواية واحدة تستخدم الكاتبة عدة شخصيات أسطورية وتضعها في مواجهة بعضها البعض.
- إغراق نصوصها بنصوص غيرها ما يجعل نصوصها موسوعة ثقافية، فإن لم تعجبك قصتها تخرج مع ذلك محملا بقصص غيرها فهي تواري هذه النصوص خلف كلمات تحيل إلا صاحبها، بين تأثرها ببروست (في الزمن العائد) (le temps retrouvé)، إلى تشبعها بالفكر الوجودي بين سارتر و بوفوار و ... إلى أشعار شار رينيه وقد تحدثنا عن ذلك سابقا.
- دمج الفنون بالأدب ومزج لوحاتها الخاصة التي تتشكل من الرسم والموسيقى والأدب فلكل فن من الفنون المذكورة لغتها الخاصة التي تميزها ولهذه الفنون أيضا وظائف عدة على المستوى السيكولوجي والاجتماعي

⁶⁰¹ Malika mokeddem : les homme qui marche,p10

⁶⁰² فرجينيا وولف، غرفة تخص المرء وحده، مرجع سابق، ص26

والبيولوجي، الذي تدعم بها مقدم لغة الكلمات ليرافق العزف على الناي رحلتها في البحث عن ذاتها، في رواية نزيد ليصاحب العزف النص فيكسبه بعدا آخر، ليصبح فيلما سينمائيا، فحينما يعصف بها الرأي الذي يواكب تمردها، وحينما آخر يهدد الناي آلامها، ويمنحها السكينة في أشد المواقف اضطرابا فقد رافق سلطانية في طريق عودتها إلى عين النخلة، في تسعينيات أين كانت الجزائر تنحر نفسها بحسب قول الكاتبة لتعيد اكتشاف المكان من جديد بعد سنين من هروبها، فلم تكن العودة إلا قهرا إضافيا لماضي لم يلتئم، «صفر ناي خافت يسري بداخلي. مرّ وقت طويل قبل أن أدركه، أسمع. تملكني دبيبه، امتلك جوارحي. لا أعرف ماذا كان يهمس لي.»⁶⁰³ رغم أن صوت الناي حزين غير أنه صدر من أعماقها مآزر لها في صمتها ضد وجه من وجوه الحقد الذي رافق طفولتها. لتمنح النص نغمة خاصة من الحزن بين الموقف وصوت الموسيقى المصاحب للموقف، فتتنقل مقدم مشاعر إضافية لنصها من خلال الموسيقى.

ولا تكتفي بهذا الدعم الروحي للغة المكتوبة وتضيف إليه دعما ماديا آخر متمثلا في الرسم، والنقوش في أغلب نصوصها لتجعل من الرسم بطلا من أبطالها فهي ترسم صوراً من خلال الكلمات كما أنّها تشارك أبطالها إبداعهم، وتجعل من الفن علاجاً لمختلف العلل والأزمات التي تعاني منها البطلات، حيث تستعيد نورا ذكرتها من خلاله أما نور فتلجأ إليه لتعيد الحياة لمكان الذي تسكنه ويتشارك كل من ياسين والطفلة (دليّة في الممنوعة) هذه الموهبة التي تحررهم من آلامهم ويستمتع ياسين بالرسم الذي يجد فيه عزاء عن حبيبته التي هجرته، أما الطفلة الصغيرة فقد كان الرسم رفيق وحدتها وبديل عن عالم لا يفهم همومها، وقد سبق الحديث عن ذلك.

- دمج المشاهد السينمائية التي تظهر بتقنية الفلاش باك، فتقرأ أجزاء النص وكأنك تشاهدها «يد الأم التي تستولي على وسادة بيضاء، تغطي بها وجه الرضيع الممدد على الأرض بالقرب من الخالة زهية، وتضغط هذه اليد التي تشدّ على المخدّة وتتمادى في الضغط، التقلصات العضلية للولد...»⁶⁰⁴ حيث أنّها تكشف من هذه

⁶⁰³ مليكة مقدم الممنوعة، مرجع سابق، ص13

⁶⁰⁴ مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، مرجع سابق، ص7

المشاهد في نصوصها خاصة رواية (أدين بكل شيء للنسيان (في كل مرة تعود إلى الماضي، « تقوست أمام الرشقات وأسرعت باتجاه الباب المجاور، كان هذا الأخير مغلقا بالملزاج الداخلي، ألصقت سلمى وجهها بشرم ما بين الألواح الخشبية، على أهبة مناداة الأم، لقد بهتت إذ أبصرتها تشد وسادة وتضعها على رضيع زهية، البنت الصغيرة لا تعرف شيئا عن الموت، لا تدرك مغزى هذا الفعل. لكن العنف استولى عليها مباشرة. فابتعدت متراجعة». ⁶⁰⁵

- الغاية والهدف بعيدا عن القيمة الأخلاقية تأتي روايتها بحثا عن الذات الضائعة لتكتشف ذاتها، التائهة بين عالمين مختلفين أشد الاختلاف (الجزائر، فرنسا) في سؤالها عمّن تكون، من هي حقيقة، لماذا تكتب؟ فنجدها تبحث باستمرار عن ذلك في كل رواياتها.

- طرح قضايا فلسفية عن التعددية الهويةية واغتراب الإنسان الحديث عن محيطه فتقول «أنت تدمج غائبا، أما أنا، فإنني أفكك نفسي، أغيب عن نفسي. ولكن هل هناك فرق بينك وبينني؟ بين الغياب في ذاته، والغياب عن ذاته» ⁶⁰⁶ ما تعنيه مقدم هو فكرة حضور العدم عندما يشعر الإنسان أنه مختلف عما يكون في الواقع. وكذلك العلاقة بين الروح والجسد كثقل الروح مع خفة الجسد من خلال صراعات الحياة، «أصبح جسمي من حديد، أطويه. أكسره. أكومه وأجلس مقابل عتبة شاغرة.» ⁶⁰⁷ لتكون الفلسفة الوجه الآخر لروايات مقدم.

- تعتمد مقدم في نصوصها مصطلحات علمية من واقع عملها كطبيب مختصة في أمراض الكلى، لتعبر عن ألم فقدان مثلا من خلال أعضاء الجسم عند البتر فتقول: «أنا مازلت تحت وقع تخدير عنف هذا اليقين، كما لو أنني في حالة من تعرض لبتر ما ساعة استيقاظه من العملية، حين يكون الألم مزال غائبا، سيأتي الألم

⁶⁰⁵ المرجع السابق، ص14

⁶⁰⁶ مليكة مقدم، المنوعة، مرجع سابق، 107

⁶⁰⁷ المرجع السابق، ص127

حين سيتجسد الغياب. بكامل الوعي بالبت.»⁶⁰⁸ الإحساس بنقص هذا العضو هو السبب الحقيقي للألم، وهكذا تطعم مقدم نصوصها، حيث أتمها في رواية الممنوعة تتحدث عن مرض الكلى، وغسيل الكلى وكذا التطعيم أين يتم استبدال العضو المعطوب بأخر ملتبرع بأعضائه بعد وفاته، فتقدم مقدم عديد المعلومات حول طبيعة المرض، وإحساس المرضى فتقول «توسعون من الشريان كي تمنحوا له سعة كافية للعبور الخارج-جسدي وتسمون ذلك الجسر الشرياني-العرقى، القرح. إن المريض، بالنسبة إليّ، هذا الشيء هو القلب الذي يخفق في معصمي، أداة كهربائية تصلني بآلة عالمة، كانت تدخلني داخل الرعب..»⁶⁰⁹.

كما أن مقدم تتجاوز الحديث عن الأمراض إلا فكرة أخرى أين تجعل من المرض والعلة، مصدر للهوية فتطعمها بهوية أخرى مختلفة ليجمع جسدا واحدا جنسيات مختلفة ثقافيا وفكريا أين تجعل المريض يبحث عن الثقافة الأخرى التي تجاهلها لسنوات تقول على لسان فنان «نعم من أصل جزائري. لا أعرف شيئا آخر عنها. يا له من انفعال أن تعرف بأن لك نفس هوية نسيجية لامرأة، زيادة إلى أنها امرأة من جنس آخر وثقافة أخرى! إن الذين يطلقون أكاذيب حول الأجناس، عليهم أن يلقوا نظرة على علماء الوراثة!»⁶¹⁰ هذا ما يجعل من روايات مقدم ذات طابع خاص فهي تجمع ما لا يمكن جمعه، وتجعل منه لحمة واحدة في محاولة منها للتخلص من الكراهية العرقية التي يعاني منها المهاجرون في أوروبا عامة وفرنسا خاصة، فهي تعود إلى الأصل الواحد للبشرية، وتعتبر أن الطب هو الوجه الظاهر للإنسانية والذي «لم يكن إلا طريقا محددًا بين القراءة والكتابة»⁶¹¹.

أما على مستوى الشكل فهي تتمرد على الفنون الأدبية والأجناس فتعمل على خلطها بأسلوب ذكي لا يفقد العمل خصوصيته، تعتمد مقدم في نصوصها نقطة التوقف المفاجئة التي تضفي على النص كثافة شعرية و

⁶⁰⁸ مليكة مقدم، المتمردة، مرجع سابق، ص9

⁶⁰⁹ مليكة مقدم، الممنوعة، مرجع سابق، ص112

⁶¹⁰ مليكة مقدم، الممنوعة، المرجع السابق، ص113

⁶¹¹ مليكة مقدم، المتمردة، المرجع السابق، ص107

طابعا موسيقيا فتقول مثلا في (المتمردة) « لقد غادر هذا الصباح. أنا وحيدة في السرير. وحيدة هذا المساء في رائحتنا. بالرغم من أن الشراشف تم تبديلها.»⁶¹² وهو تمرد على الجملة العادية التي لا يكون الوقف فيها إلا فنهاية الفكرة، أو الجملة وبذلك فهي تستخدم هذه العلامة خروجا عن المؤلف وتعطي قيمة إضافية للكلمة التي تليها، وفي محاولة جعل النص قصيدة شعرية .

⁶¹² المرجع السابق، ص9

خامسا: ثنائية الحرية والهيمنة في كتابات مليكة مقدم

تعد ثنائية الحرية والهيمنة من أهم القضايا التي طرحتها الحداثة، وما بعدها ذلك لرغبة الإنسان الحديث التخلص من القيود التي تفقده إنسانيته التي يراها في الحرية، غير أن هذه الحرية تختلف من شخص لآخر ومن مجتمع لمجتمع آخر، فهذه الكلمة على بساطتها غير أنها تحتمل عديد الأوجه ويتم التعامل معها بحذر من طرف المجتمعات العربية، أما المجتمعات الغربية فتري أن الحرية مطلقة بعيدة عن أي قيد أخلاقي أو ديني، وأن الحرية حق يمتلكه كل فرد دون أي حاجز أو حائل قد يعيق حرية الإنسان الغربي، ليتم قتل الإله وخلق الإنسان الخارق هذا الذي لا يمكن إيقافه أو توقع قدراته ، ولأن الفلسفة الغربية نشأت عن الكوجيتو الذي يعتبر أن عقل الإنسان هو مصدر معرفته لذاته وللعالم، فإن فكرة أن يكون هذا العقل الذي يعي ذاته دون وساطة العالم هو عقل حر.

لا يخضع لأي عائق خارجي ويرغم ما قدمه الفكر الوجودي لنقد الكوجيتو المتعالي إلى أن البديل تجسد في الحرية أيضا ؛ أين يكون وجود الإنسان سابقا لماهيته، والماهية هنا هي إرادته المطلقة فيما يقرر لنفسه أن تكون عليها هذه الذات، ولأنه يكون ما يريد، أين تكمن هذه الحرية المطلقة لذات، غير أن المذهب الوجودي يعترف بوجود الآخر هذا الآخر الذي قد يكون الجحيم أي أنه الذي يعيق هذه الحرية، بسبب الارتباب فيه وبسبب حاجة الإنسان إلى هذا الآخر وبالتالي هذه التبعية هي التي تحد من الحرية و تقيده، "فالوعي بالحرية لا يجري في عالم الفكر الجرد، بل في مؤسسات وتنظيمات ترافق الثقافة المظهرة لفكرة الحرية وتتفاعل معها، وهكذا تتألف حضارة الحرية من ثقافة الحرية، ومن مؤسسات الحرية، وتتطور على الدوام، من جيل إلى جيل، لا بتأثير التفاعل بين نشاط الثقافة وإيقاع المؤسسات فقط، بل بتأثير التحولات داخل الثقافة، وداخل المؤسسات أيضا."⁶¹³

أين يتم تطبيق الحرية كفعل لا كفكر داخل المؤسسات التي تحكمها قوانين تنظم العلاقات ما بين الأفراد وحدود هذه الحرية التي تصبح ثقافة فردية، ورسالة حضارية، بالتقادم وليست هذه الحرية هي التي تجعلنا نقف

⁶¹³ ناصف نصار، باب الحرية، انبثاق الوجود بالفعل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 81

عندها فهي حرية محببة مادامت في إطار ممنهج لا يتعدى فيه الفرد على الجماعة ولكن الحرية التي تسمى للآخر وتتجاوز وجوده فتتحول إلى هيمنة تتسلط على الأفراد، وتقضي على حرياتهم ، ولهذا فالحرية نسبية، تحمل وجهين وهي في حد ذاتها تحمل الثنائيات معا، فالوجه الآخر للحرية هو الهيمنة، لأن الإنسان وهو يعيش حريته، يجد من حرية الآخر، كما أنه بوضع حدود للحرية فلن تصبح حرية وإنما قيودا، ولهذا يجب تصور هذه الكلمة بطريقة مرنة، وإيقاف هيمنتها على المجتمعات العربية التي راحت تنبهر بالمصطلح الذي يحمل في ذاته قيودا، لذلك راح المجتمع يحاول تجزأت الحريات، بين الحرية الدينية أو العقائدية والحرية السياسية الحرية الفكرية وحرية المرأة وغيرها لصعوبة التعامل مع هذا المصطلح المطايطي الهلامي وكذلك الخادع.

فهل يحق للإنسان الحديث عن الآخر في حدود ما يسمى حرية تعبيرية، فيخترق خصوصيته ويشهر به؟

هل يحق لآخر أن يتحدث عن معتقدات الآخر المختلف في المعتقد، مثلما فعلت الصحيفة الفرنسية" شارلي ابدو" بالإساءة لرسولنا الكريم تحت غطاء اسمه الحرية ؟ هل يجوز أيضا انتقاد المجتمع ونقل صورة مشوهة عن هذا المجتمع من منطلق الحرية أيضا؟، فمقدم بالرغم من حديثها عن المجتمع الجزائري وتصوير جوانبه المظلمة كانت تصرح بأن الحديث عن الجزائر هو عنف إضافي لهذا البلد.

ولذلك لم تكن الحرية إلى وسيلة من وسائل الهيمنة والسيطرة والإساءة إلى الآخر، تحت شعار اسمه الحرية وسنحاول أن تتبع حدود حرية مقدم في الكتابة ونظرتها إلى بعض القضايا الجوهرية في المجتمع الجزائري بما أن مقدم تسلط الضوء على هذا المجتمع، ثم نوضح بعد ذلك ما مدى التزام مقدم بالحرية، ولماذا تلجأ إلى هذه الحرية وتطالب بها برغم من تصريحاتها العديدة حول امتلاكها لهذه الحرية .

أين تدافع مقدم عن حقها في الحرية دون قيد أو شرط ، لتربط مقدم الحرية بعالم الكتب أين تعلمت الإبحار بعيدا عن جحيم التقاليد من خلال القراءة في مرحلة الطفولة و التي راحت تبحث عنها أينما تجدها بين

كتب (الأمير الصغير) لأنطوان دي سانت أكوبريري (Antoine de Saint-Exupéry)... وحكايات الرجل التي كانت ترويهما الجدة، أين كانت ترتبط بالانطلاق على طريقة إيزابيل إيراهاردت هذه المرأة الأجنبية التي تحب الصحراء والترحال وهي ترتدي ملابس رجل، هذا الوعي الذي توصلت إليه مقدم في صغرها قادها إلى أن الحرية لا تكون إلا من خلال ملابس الرجال فراحت تفصل ما استطاعت لتظفر بالحرية التي امتلكتها إيزابيل غير أنها كانت تعرف طريق الحرية الذي لن يكون إلا من خلال المدرسة واكتساب المعرفة، لتكون المدرسة منطلقها الأول اتجاه الحرية فتقول في روايتها (رجالي) وهي تنصح أختها التي ظلت طريق الحرية، بعد أن شجعتها مقدم على الهروب من البيت حينما أرادت الأسرة تزويجها بشخص كانت ترفضه، حيث تهرب و تنتقل للعيش في باريس .

« كانت لا تهوى الدراسة، وتعترم العزوف عنها فهي تنظر إلى الحياة والناس انطلاقاً من قدرتها الإغوائية وجمالها. حاولت أن أحذرهما و ألفت انتباههما إلى أن لا قيمة للحياة بلا حرية، وأن الحرية تمر عبر المعرفة والعمل والاستقلالية المادية. »⁶¹⁴ ولأن هذه الطريق التي رسمتها مقدم للحرية وأرادت لنساء أن يعبرن من خلالها، كانت بداية الطريق التي راحت تحاول من خلالها الظفر بالحرية وهي في سن الخامسة عشر من خلال العمل لاكتساب مكانة في البيت، بدأ بتوفير لها غرفة خاصة وبعض الرفوف لتضع كتبها ، ولم تعد مطالبة بالأعمال البيتية، بل وقد علق لها ولدها وسام رجل فتقول: « جعلتني أشترى حريتي مثل الرقيق بالأمس يا أبي ... ذات يوم جئت أسلمك راتي، فربت على ظهري مؤكداً "يا ابنتي ! الآن أصبحت رجلاً! »⁶¹⁵

وهنا تكون مقدم قد تمكنت من لباس ما فصلته على طريقة إيزابيل، فقد ثارت على التمييز الذي يمارس داخل الأسر بين الذكر والأنثى ولأنها كانت تبحث عن الحب والاهتمام من خلال تمردها راحت تظفر بالحرية

⁶¹⁴ مليكة مقدم، رجالي، مرجع سابق، ص140

⁶¹⁵ المرجع السابق، ص19

كما تقول: «كنت أتعطش إلى الحب والفرح، ولشدة ما سعيت للفوز بهما، فزت بالحرية»⁶¹⁶ ولأن الحرية التي تسعى إليها مقدم هي التخلص من مختلف القيود الأسرية والاجتماعية والأخلاقية وحتى الدينية كما تحدثنا عنها سابقا من حيث إتباعها المذهب الوجودي والعدمي، فهي لا تؤمن إلا بجياتها هذه، أين تسعى للحصول على كل ما تريد دون قيد أو شرط، هذا ما كان سببا في بحثها عن وطن يتحمل حريتها المطلقة، ذلك أن المجتمع الجزائري مجتمع يعيش على القيم الأخلاقية، لا يتحمل جرأة مقدم على هذه القيم و خاصة منها الدينية فمقدم تجاهر بغرامياتها وتؤكد على ذلك من خلال استخدامها كلمة "إنني أجاهر" فتقول «إنني أجاهر بغرامياتي المتعاقبة التي كان بعضها "كافراً" فهي تجسد حرية وجودي في هذا العالم. لقد كانت انفصالي استمرارا للرغبة نفسها».⁶¹⁷

أين تعتبر مقدم الحرية هي أن تفعل ما تشاء وفي العلن، أمام الجميع لتكون الحرية المطلق غايتها، فالحرية غاية في حد ذاتها، لا وسيلة، وتعبّر عن أحقية امتلاكها من خلال فرض أفعالها على العلن غير لم تكتفي بما وصلت إليه من حرية أثناء عيشها في كل من بشار و وهران لذلك كان الانتقال إلى مونوبولي حاجة ملحة لها ، لتقول «فارتقتك لأتعلم الحرية، الحرية حتى في عشق الرجال. وأدين لك بأنني لطلما عرفت كذلك أن أنفصل عنهم حتى حين كنت مفتونة ومتدلّهة بهم. عندما يغدو الحب سجنا».⁶¹⁸ أين ترفض حتى قيود الحب، فهي ترفض الالتزام اتجاه الأشخاص والعلاقات ، فالحرية التي تبحث عنها مقدم حرية غير مشروطة لا بزمان ولا بمكان ولا بأشخاص، فيسقط كل ذلك أما حريتها وتأخذ مصداقيتها في ذلك من خلال بعض المواقف المتشابهة لبعض رفيقاتها «فنحن كثيرات ممن جعلنا من الحق في المساواة والحرية والحب واختيار علاقاتنا الجنسية ديانتنا الوحيدة».⁶¹⁹

⁶¹⁶ المرجع السابق، ص16

⁶¹⁷ المرجع السابق، ص20

⁶¹⁸ المرجع السابق، ص ن

⁶¹⁹ المرجع السابق، ص 21

مقدم تساوي بين المساواة والحرية، لتعطي لنفسها كثيرا من الحقوق التي تصنعها من خلال فكرة المساواة، وأن ما تجهر به مقدم هو تحد معلن للمجتمع، لتصرح من خلاله عن وجودها وعن حقها في الاختيار بين أن تكون فردا في مجتمع أو أن تكون ذاتا منفصلة عن المجتمع؛ الذي لا تنظر إليه إلا من خلال العلاقة التي شكلتها مع والدها، هذه العلاقة لم تكن علاقة طبيعية مثل كل بنت مع والدها، لكن كانت مبنية على الشك وعلى التحدي، وهذا كان من بين الدوافع التي جعلت مقدم تختار كتابة السيرة الذاتية في شكل الرواية، فهي لا تروي حياتها من أجل أن تشارك تفاصيل من حياتها مع الآخر، غير أنها تكتبها بحثا عن الخلاص، وهو ما جعلها تغرق في الكتابة.

فالكاتبة حرة أخرى أرادتها مقدم، لتبحث عن التوازن في حياتها الممزقة والتي لم تلجأ إليها إلى بعد خيانة جون -لوي (جون لويس) لها، وقد يكون لذلك الأثر الكبير عليها، لأن انغلاقها على حياتها الخاصة مع زوجها، لم تعد توفر لها التوازن المطلوب فراحت تحرر نفسها من الماضي الذي ظنت لسنوات أنها قد تحررت منه من خلال السفر إلى بلاد الحرية، غير أنها كانت في حاجة إلى العودة مرة أخرى لتحرر هذه الذات من خلال الكتابة .

1- التحرر من الهوية وهيمنة الانتماء:

يرتبط الانتماء بهوية مكتسبة بقوة التاريخ أين لا يمكن تجاوزها بمجرد العبور المكاني، فالتاريخ هو الإنسان لأنه يكون الماهية الأساسية للإنسان وهذا ما نتفق فيه مع المذهب الوجودي لسارتر، ورؤيته لتاريخ غير أننا نختلف إلى حد كبير مع اعتباره الشعوب البدائية شعوبا دون تاريخ وذلك لربطه بين التاريخ والعقل الجدلي للإنسان، فالطفولة الأولى للبشرية هي مرحلة سابقة، على بساطة تفكيرها، ولسنا هنا بصدد مناقشة أفكار سارتر وإنما سنبرز علاقة مقدم بهذا التاريخ وبنظورها إلى المجتمع الجزائري على أنه مجتمع بدائي، قبلي تحكمه الغريزة لا العقل، فترغب في كل حين تعويض هويتها الواحدة بهويات متعددة، تلجأ إليهم لمواجهة المجتمع، كنوع من التعزيز والدعم

من جانب ومن جانب آخر تلجأ مقدم لهذه الهويات الممزقة لتتحرر من هويتها الأصلية، أين تصف في روايتها الثالثة (المنوعة) المنظر العام لشارع والأشخاص الذين لم تراهم منذ مدة طويلة وبعد غياب طويل بكثير من القلق والخوف «ألقيت نظرة فرع إلى الشارع. يعج أكثر بكثير مما كنت أراه في كوايبيسي. بلا حجل، يفرض الشارع تفضيله للذكور شاهرا عنصريته الصارخة تجاه الإناث، إنه حامل بكل المكبوتات، منحور بكل الحماقات، ملوث بكل الشقاءات. جاثم في قبحة تحت شمس بيضاء، يعرض تقززاته، أحاديده، يتخبط داخل المزاريب مع جمع من الأطفال».⁶²⁰

هذه الصورة التي تصفها مقدم صورة لمجتمع يعيش على الغرائز البشرية التي لا ترفعه إلا المجتمع الذي جاءت منه، أين يتعذر عليها مواجهته بهويتها وراحت تبحث داخل هوياتها المتعددة عن تلك التي تستطيع من خلالها الوقوف في مواجهة مجتمع تحكمه المكبوتات يعيش على العقل اللاواعي، الذي تتحكم فيه الغرائز، لتستعد لذلك من خلال سلطاناتها فتقول: «تكومت بجذر على سلطاناتي المنشقات، المختلفات وواحدة منها ليست سوى انفعالات شبقية متضخمة، تملك شهوة مؤلمة ورشقة الشهقات تشقق ضحكاتها. مثلة مآسي، أتخمت حزنا.. أما سلطانة الأخرى، فليست سوى إرادة. إرادة شيطانية. مزيج غريب من السخرية، وسهم التحدي مرفوع باستمرار، هيجان يستغل كل شيء بمكر أو بتفاخر ابتداء من ضعف الآخر».⁶²¹

وبرغم من صنع مقدم لشخصيات متعددة إلا أنها تبدو غير راضية حول هذه الشخصيات فإنها لا تنبهر بقدراتها لذلك راحت تتكوم عليها وكأنها تحاول أن تلجم تصرفات هذه الشخصيات التي يصعب السيطرة عليها وهذا ما يؤكد قولها بعد ذلك «أحيانا لا تفرحني إلا لترعبي أكثر. متصلبة من الحذر، تحرق المنظر بهرودة وبمنسخها توقفي عند حدّي. بسمة هازئة ضخمة داخلية شجّت انتباهي».⁶²² ولأن هذه الهويات الممزقة

⁶²⁰ مليكة مقدم، المنوعة، مرجع سابق، ص 11

⁶²¹ المرجع السابق، ص ن

⁶²² المرجع السابق، ص ن

الشيطنانية كما تصفها، هو بناء وهمي لعقل مقدم الباطن لتعوض من خلاله عن انفصالها عن عائلتها، وهي تخفي من خلال هذه الهويات حاجتها إلى الأب والأم والإخوة وكل ما يمكن لهذه العائلة أن توفره للفرد من تأزر نفسي وواقعي.. أين تلجأ مقدم في نصوصها إلى التخلص من هيمنة الهوية التي تمتلكها فتلجأ إلى طرح فكرة التعدد الهوياتي، كبديل عن الهوية الواحدة لتبحث عن الحرية من أي قيد، وبرغم من امتلاكها للحرية بحسب مفهومها للحرية حيث تمارس رغباتها دون قيد، غير أنها ظلت تشعر بهيمنة الهوية التي تنتمي إليها أين حاولت في روايتها الأخرى "نريد" التخلص من الهوية من خلال فقدان الذاكرة، وراحت تنتسب لأماكن أخرى (لبنان إسبانية..) غير أن هذ الهويات لم تمكنها من استعادة نفسها، لتلف البحر الأبيض المتوسط كاملا وتعود بعد ذلك إلى هويتها الواحدة والتي مصدرها أم جزائرية وأب إيرلندي فقد ولدت في فرنسا وأحبت في الجزائر هذا التنوع في الانتماء يعود بطبيعة الحال إلى رغبتها في الانعتاق من الهوية الواحدة وما تفرضه عليها هذه الهوية، فهي وبكل الانتقادات التي توجهها إلى المجتمع الجزائري،

لم تستطع التخلص من التبعية التي يفرضها انتماء ما ، لتجد نفسها تحت هيمنة المكان، بعد أن اعتقدت بأنها تحررت واكتسبت حرية مطلقة ليتشكل الالتزام من الارتباط الشديد بشيء ما فتحدث مقدم عن ذلك حيث انشغلت بالكتابة وبما يمر على الجزائر من أزمة لتجد نفسها تعود مرة أخرى إلى قيد المجتمع والقبيلة، ولتعرف أنها لا تزال مرتبطة بالوطن الذي ظنت يوما ما أنها هجرته وتركته خلفها فتقول على لسان زوجها جان-لوي في رجالي "لقد عرفت شابة تعيش قطيعة تامة مع المجتمع، وشيئا فشيئا، أصبحت هذه الشابة ملتزمة"⁶²³ وهذا ما يجعل مقدم مقتنعة أن العيش كأجنبية تعد حرية بسبب عدم الارتباط والخضوع لأي شيء فتقول: «أن

⁶²³ مليكة مقدم، رجالي، ص150

يكون الإنسان أجنبيا ليس دائما تمزقا، يعيش ثراء مضطربا. اقتلاع مطعم بالاكتشافات والحرية ولا يتردد في تنمية خساراته». 624

ولكن هذه الخسارات لا تفتقد بل تظل محتزنة في أحد الأماكن الأكثر حميمية للذاكرة والتي تكون على استعداد للظهور فجأة وبدون مقدمات، «ولكن الذاكرة لا تقي ضد شيء». 625 لتهمين الذاكرة على حدود الحرية فتلجماها، فعودة مقدم للجزائر من خلال الكتابة كان دليلا قاطعا على هذه الهيمنة التي فرضها الانتماء، ورغبة منها في التخلص من هذا الانتماء لأنها كانت تشعر بالخوف لتقول: «كان علي أن أشعر بانتمائي إلى هذا الشعب، أن أحس ذلك بقوة، أو كان علي الذهاب للتخلص من الخوف الذي في العمق» 626، فهي تطالب بحقها في الانتماء حيث ترفض الانتماء في إطار الهوية الدينية بما أن هذه الهوية تحكم عليها بالانتماء فالشعب الجزائري مسلم مثلما أنشدها (ابن باديس) وحفرت في خلايا كل جزائري، الهوية الدينية هي الهوية التي يتعصب لأجلها كل فرد يشعر بتماهايه في الهوية الدينية وهذا ما ترفضه مقدم تحت غطاء الحرية فتقول: «ولكن إذا كان الشعور بالانتماء في هذه الحالة أيضا، لا يكتسب شرعيته إلا عن طريق الدين، فإن ذلك يدل بلا ريب على إخفاق جيلهم وعلى تخلف البلاد». 627

تربط مقدم تقدم بلد ما وتختلفها بمدى تقبل توجهات الآخر الدينية خاصة، ومن المؤكد أن كتابات مقدم كانت في مرحلة تسير فيها البلاد نحو الانفجار، فلم يسلم صاحب الهوية الدينية الواحدة من القتل، غير أن قياس مدى تحرر البلاد وربطه بالهوية الدينية يعد إجحافا، ويمكن أن نعتبر في ذلك؛ أن فرنسا أكثر تخلفا لما يعانيه المسلمون وخاصة المرأة المحجبة من انتهاك وتغريم وحصار، فإن كانت لا تملك الحق في ارتداء ملابسها الشرعية داخل

624 مليكة مقدم، الممنوعة، ص 183

625 المرجع السابق، ص 12

626 مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، ص 99

627 المرجع السابق، ص ن

المدارس والجامعات في العمل وهذا انتهاك صريح للحرية بين اعتبار أن الملابس والعبادة شيء واحد ولأن فرنسا دولة علمانية تمنع ممارسة العبادة داخل مؤسسات الدولة، وبالتالي يعد حصارا على المستوى الفكري والحياتي أين تضطر للاختيار على ترك هويتها الدينية أو أن تموت جوعا وجهلا، وهو نوع من الضغط الممارس تحت شمس الحرية الأوروبية الخادعة أو الزائفة، غير أن هذه الحرية أجهزت مقدم وجعلتها مكسبها الحقيقي في الحياة.

2- الحرية كإرادة مطلقة :

تذهب مقدم للخوض في فكرة مدى حرية الإنسان هل هو مجبر أم مختار وربطها بالتركيب البيولوجي للإنسان، لتحاول كطبيبة أن توضح العلاقة بين ما يتلقاه الإنسان من وراثته إلى ما يمارسه من أفعال، إذ تتحدث عن مقال قرأته حول نوم الجنين في بطن أمه: « باحثون آخرون يرون بأن هذه الارتجاجات الصغيرة جدا التي يمكنها أن تكون الاندفاعات الأولى في نظام مجهول يربط عبر النوم الموهم بالتناقض، كل فرد مع نفسه ومع جنسه، الجنس البشري، في نظام يبرمج التصرفات المسجّلة في الجينوم من قبل تاريخ الأسلاف بالنسبة للفرد».⁶²⁸ أين يتلقى الطفل في بطن والدته الجينات التي تتحكم في حياته بعد ذلك، لتكون مصدرا لكل تصرفاته في حياته المستقبلية، لتعترض مقدم على ذلك وتصرح أنها تدعم دائما إرادة الإنسان الحرة، رغم أنها الطبيبة التي تؤمن بالمكونات البيولوجية، فإنها تؤكد أن الإنسان يوضح جنسه (بين ذكر أو أنثى) من خلال وعيه الكامل بذاته، أين يختار ما يريد أن يكون عليه فعلا تقول: «أنا الطبيبة السريريّة، أمنح كثيرا الأهمية للإرادة وللإستيقاظ المتوتّب، والدفاعي والخلاق، تحديدا إنّ الكائنات توضح جنسها، بالشكل الأفضل، في بذل المجهود أكثر مما تحقّقه في المجران».⁶²⁹

⁶²⁸ مليكة مقدم، المتمردة، ص 90

⁶²⁹ مليكة مقدم، المتمردة، المرجع السابق، ص 90

تطابق هنا مع ما ذهبت إليه جوديث بيتر (Judith Butler) في اعتبارها أن جنس المولد يتوضح في مرحلة لاحقة حينما يؤكد المولود جملته الإخبارية التي أعلن من خلالها جنسه إذ أنه لا تؤكد الصفة إلا بعد ارتقاء الفعل إلى مستوى تحديد الجنس المنتظر منه أن يحققه وفق ما تحكمه الأعراف والتقاليد، وأن المقاومة بين ما يريده المجتمع وما يريده الفرد هو الذي يحدد الموصوف إن كان ذكراً أم بنتاً، أين يتقبل ذاته أو يرفضها، "إن ما يحدد جنس ذلك المولود إلى سن البلوغ أو النضج هو سلوكه المتكرر، فإن تصرف كأمراًة أو أتى أفعالاً معينة، يسمى امرأة والعكس صحيح"⁶³⁰ فقد كانت تطالب بتأجيل تسميت المولود إلى أن تتوضح اتجاهاته والتي كانت لا تعترف فيها بالبيولوجيا التي تحدد جنس الطفل في بطن والدتها و أن اختيار ما يريد الإنسان أن يكون عليه هي ما يحكم هذه الكينونة، "بالنسبة لبيتر فإن تقسيمات الهوية، على العكس، منتجات ثقافية واجتماعية... وهذه التقسيمات عندما تفرض معايير (تعريفات لماهية المرأة) فإنها تهدد باستبعاد كل ما لا يتفق معها." ⁶³¹ في محاولة لتغليب إرادة الإنسان على إرادة الله، وكل هذا هو خروج عن الفطرة السليمة.

إنّ أي خروج عن هذه الفطرة هو تنكيس لذات، وتحميلها ما لم يفرض عليها أن تتحملة، وانه خارج إمكانياتها البيولوجيا على جميع الأصعدة، حيث لا تتحكم البيولوجية فيما يريد الإنسان أن يكون عليه فقط، بل تتحكم أيضاً في قدراته حتى مع الإرادة الحرة للفعل، أين تستنكر مقدم برجة التصرفات وفق ما حددته الوراثة، مثلما تفعل في الأمراض الوراثة (كالسكري..). وغيرها من العلل التي تصيب جسم الإنسان وفق ما أخذ عن والديه، فيكتسب صفات أبويه فمن كان والد بخيل يصير كذلك ومن كان والده أو والدته سفاحاً أخذ عنهما ذلك، فتقول: «ولكن إذا كانت من فكرة لم أتقبلها أبدا فهي أن تكون التصرفات مبرجة بنفس طريقة الأمراض

⁶³⁰ عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة، مرجع سابق ص 67

⁶³¹ المرجع السابق، ص 66

الوراثية! إنّ تقدّم علم الوراثة يمنح أجنحة للأطروحات الحتمية. بل يمكن حتى الوصول إلى اكتشاف جينة مشتركة بين كل القتلة».⁶³²

قد لا تنتقل هذه الصفات عن طريق الوراثة بقدر ما يمكن تأكيد انتقالها عن طريق التربية، وهنّا تريد مقدم إثبات فكرة أن الإنسان مقيد رغم اختياره، فهو لم يختار والديه، غير أنه يمكنه المقاومة وأن هذا ما تفعله مقدم فتقول: «أثبت قدمي في السرير، أملاً عينيّ بمجد شجرة اللوز، كي أضع حداً لشتم هذه النظريات التي تنفي قدرة الكائن البشري على التخلص من مآسي»⁶³³ إذ أن شجرة اللوز تحتاج إلى مناخ خاص من أجل أن تثمر في درجة حرارة معتدلة ورطوبة محددة، وبرغم من ذلك فإنها تمكنت من النمو في حديقته رغم درجة الحرارة المنخفضة شتاء وكثرة الرطوبة بين التقاء نهر السين والبحر المتوسط.

لكن قدرة الإنسان على التكيف والتأقلم كبيرة جداً لكن هذا التكيف قد يكون مدعاة لتشرذم الإنسان وضياعه في بيئة هي ليست بيئته، فمثلاً حينما كتب (إرنست همنغواي) (Ernest Hemingway) رائعه الشيخ والبحر أين تحدى الشيخ قدرته البشرية وكذلك قدرت البحر وأراد أن يصطاد سمكة تكبر قاربه، وبرغم من كفاحه أيام في البحر وصراعه مع السمكة العنيدة غير أنه في النهاية لم يخرج من البحر إلى مع عظامها، فإن كانت قدرة الإنسان وكفاحه محدودين سواء بالبيولوجيا أو بالبيئة المحيطة كالمجتمع وغيرها، وإن ما يصل إليه من نتيجة لا تكن بقدر الرجاء والتوقع الذي كان يسير إليه أول الأمر، فما الغاية وراء كل ذلك، فقدرته الإنسان محدودة غير أنّ خياله لا حدود له، لذلك كانت الكتابة دافعا لكل من يسعى إلى الوصول للكمال الإنساني، فالغرب استخدم الخيال العلمي ليثبت تقدمه، "فلم تكن الحقيقة إلا وهم ابتدعه لغة الإنسان بحسب نيتشه"⁶³⁴ يحتاج الإنسان في الحرية إلى القيم الأخلاقية لأنها البديل الحقيقي عن الحرية فالأخلاق هي التي تضع الحدود، غير

⁶³² مليكة مقدم، المتمردة، مرجع سابق ص90

⁶³³ مليكة مقدم، المتمردة، مرجع سابق، ص ن

⁶³⁴ لويس بن علي، إدوارد سعيد، مرجع سابق، ص54

أن هذه الأخلاق قد تختلف من مجتمع إلى آخر في بعض الجوانب غير أنه يتفق الجميع على الكثير من القيم،
 ألان تورين (Alain Touraine) العالم الاجتماعي ذو الأصول الفرنسية يقول: "لم يعد لدينا ثقة في العالم.
 لم نعد نؤمن بأن الثراء يقود إلى تحقيق الديمقراطية والسعادة. لقد ذهبت الصورة التحررية للعقل وأعقبها الخوف
 من العقلنة التي تؤدي إلى تركيز سلطة القرار في القمة، ويزداد خوفنا... من عدم المساواة على المستوى
 العالمي،"⁶³⁵ ليتحدث عن تغير نظرتة لكل نظريات الحداثة التي خلقت عدم التوازن بين القوى في الكون بين
 المركز والهامش والتي لم تكن إلا شكل من أشكال القمع الذي كان تحت شعار الحرية والمساواة، وأن هذه الحداثة
 ستفضي إلى

" أن تفرض على الجميع سباقا مهلك اتجاه التغير. يظهر خلف هذه المخاوف شك عميق ألا تكون الإنسانية
 بإزاء فض تحالفها مع الطبيعة وتتحول إلى همجية... يتحسر البعض على مجتمع التقاليد بشفراته وطقوسه...
 لاسيما في البلاد التي جاءها التحديث من الخارج على يد المستعمرين والمستبدين، ويستدير البعض تجاه الرؤية
 العقلانية للعالم، علمانية كانت أو دينية، والتي تدعو البشر إلى ترقية العقل الذي يخضع لنفس القوانين التي يخضع
 لها الكون"⁶³⁶ لبيحث عن بديل يحكم الإنسان من غير التقاليد التي كان الإنسان في ظلها أحسن حالاً مما هو
 عليه اليوم، لكن البديل عن التقاليد ليست الحرية المطلقة وإنما حدود إمكانيات الإنسان مع ما تقدمه الطبيعة من
 قوانين على الإنسان أن لا يتجاوزها، ومن بينها قدراته البيولوجيا وغيرها.

⁶³⁵ عبد العزيز حمودة، مرجع سابق، ص 64

⁶³⁶ المرجع السابق، ص ن

خلاصة الفصل:

تحاول مليكة مقدم العمل على تذويب الحواجز ما بين الثنائيات الكونية، فتخلط فيما بينها بقصد تفكيك وتقويض المركزية وزعزعة الأطر التي تقوم عليها هذه الثنائيات، ولعل غايتها من ذلك محاولة تحويل ما هو هامشي إلى مركزي، وإعطائه فرصة مزاحمة المركز والحلول محله، من خلال تطبيقها للحرية المطلقة والغير محدودة في محاولتها كسر قيود المجتمع بل تجاوز ذلك إلى تجاوز القوانين الإلهية والتعدي على كل الحدود الدينية، وأن هذا التمرد المقصود تسخر له عديد الأساليب الأصيلة والمعاصرة من مزج الفنون والتلاعب باللغة من خلال اعتماد الرمز والأسطورة، في كتابتي هوية فريدة هجينة ومتعددة تحرق من خلالها قيد الانتماء لهوية بعينها.

الخاتمة

الخاتمة

إن نصوص مليكة مقدم، متعددة ومتنوعة، تفرض من خلالها أفكارها وتوجهاتها، لتعبر عن هويتها المتفردة ، والتي وعت ذاتها من خلال ثقافة متنوعة، بدءًا من ثقافة البدو الرحل التي ولدت فيها والمدرسة الفرنسية التي تعلمت منها، مبادئها الأولى في الكلام، والعديد من النصوص و الكتابات التي اغترفت منها في سن مبكر، كل ذلك كان وراء تشكل شخصية مليكة مقدم الثورية المتمرده. والتي يمكن اعتبارها تجلي واضح للحالة الكولونيالية، التي عاشها المثقف الجزائري غداة الاستعمار الفرنسي من حالة صراع هويتي يمكن حصرها في أهم النتائج التي توصل إليها

البحث

- يظهر صراع الهوية في كتابات مليكة مقدم على مستوى الشكل والمضمون، أين تحاول مقدم خلق هويات متعددة للتخلص من عبء الهوية الواحدة، حيث تفرض هذه الهوية التزاما محددًا اعتبرته قيّدًا يطوق حياتها، برغم من ابتعادها عن هذا الانتماء، لتجد نفسها بين عالمين مختلفين، يتلقفانها حين ويضمّانها حينًا آخر مما ولد هذه الحالة المهجينة التي جعلت مقدم تعيش حالة اغتراب وتبحث عن تعويض لهذا العالم من خلال الكتابة وبالتالي فهي تظهر ذلك على مستويات عدة نلخصها فيما يأتي :
- يظهر التعدد الثقافي على مستويات عدة من بينها استخدامها وتوظيفها للغة، أين تعمل على دمج وتهجين اللغة الفرنسية مع اللغة العربية وكذا الدارجة الجزائرية في انتقاء الألفاظ التي تعبر عن الهوية الجزائرية، مستخدمة اللسان الفرنسي، غنيمة الحرب التي تقحم داخلها الثقافة العربية الجزائرية، فتصبح هذه الغنيمة لغما يهدد وحدانية اللغة الفرنسية.
- على المستوى الجمالي تخترق نصوص غيرها، فتدمج وتهجن الثقافة العالمية بالشفوية العربية لتجعل من أبطال الأساطير العالمية عربية قادمة من بشار، من أجل إعادة كتابة التاريخ، الذي تريده لبطلاتها.

- على مستوى استخدام الزمن حيث تنبثق الذاكرة من الحاضر فتشوشه، وتعكر صفوه، ليكون الخلاص بالعودة إلى الماضي حيث أنها تجعل من الماضي أساسا للحاضر لا يكتمل إلا من خلاله فتصله بهويتها وانتمائها ليعبر عن وجودها، لتظهر تلك الهوية الفريدة المشكلة من فضاءين مختلفين أشد الاختلاف، ولتخلق عالما خاصا بها داخل الكتابة.
- تواصل مليكة مقدم العبث باستقرار المكان ذلك الفضاء الثابت على مستوى الواقع، والهجين على مستوى كتابات مليكة مقدم التي تريد من البحر الأبيض المتوسط أن يجمع ويعانق ما فرقته الجغرافية والتاريخ، من خلال استخدامها لهويات هجينة لأبطالها، وأنا نعتقد أنها تحاول غسل الأحقاد التي خلفها الاستعمار باستخدام قدرة البحر المتوسط على امتصاص كل شيء .
- أما فيما تحمله نصوص مقدم من أفكار وتصورات فإنها تحاول نفي الثنائيات الكونية من خلال تهجينها أيضا، لتحاول أن تتمرد على الخطاب الذكوري وسلطته بخلق التندية في العلاقة بين الذكر والأنثى أو من خلال تسخير لغة الجسد التي تدعم بها ضعفها الجسدي، لتجعل من الأشياء الجامدة كائنات لها قدرة على الإحساس والدعم النفسي لبطلاتها.
- كما تؤمن بأحقية المرأة في التعبير عن رغباتها وعواطفها من خلال الحديث عن علاقاتها ومغامراتها العاطفية، التي تصرح بها، وتضمها إلى حرمتها وتجعل من الجهر بما تحديا للرجل، وحقا من حقوقها، لتقول من ذلك إنها تملك جسدها وهي وحدها من يحدد ما يريد هذا الجسد.
- لم يكن الجنس هو المستباح الوحيد فالدين تقابله مليكة مقدم بالسلطة الذكورية في المجتمعات العربية فتسقط عليه مشاعرها من غضب واستهجان، ما يجعلها تعلن إحادها في كل مناسبة سواء على مستوى نصوصها المدروسة أو المقابلات التلفزيونية، أين تتبع خطى المدرسة العدمية من نيتشه إلى سارتر.

- تظهر كتابات مليكة مقدم استهجانها للثقافة الذكورية الجزائرية الصحراوية خاصة، فلا تسمح للآخر المتمثل في الرجل الصحراوي أن يدافع عن نفسه في نصوصها، أين تفرض عليه أن يستمع إليها من خلال بطولاتها وكذلك بعض أبطالها الشقر وإن كانوا من شمال الجزائر، هذه النظرة العدائية كان سببها العلاقة غير السوية بين الأب وابنته، لتصب بذلك كل حقدتها على المجتمع الذي جاءت منه.
 - تكسر مليكة مقدم في كتاباتها الحواجز والقوالب بين الفنون الأدبية وعلى الرغم من أن الرواية فن يحتمل أن يجمع بداخله أجناسا أخرى، أين تستغل (مقدم) ذلك وتوظفه لصالح حريتها في الكتابة فتجمع بين كتابة المذكرات، والرسم الذاتي والسرد الذاتي، وكذلك في شكل يوميات خاصة، تعمل أيضا على دمج التقنيات السابقة مع أدب الرحلة، الذي يكون حاضرا في أغلب روايتها.
 - ما يميز كتابات مليكة مقدم هي طريقة توظيفها للغة أين تستخدم لغة الجسد بأسلوب شاعري تمنح فيه الحياة للأشياء من حولها وتعزز بها كتاباتها لتمنح نصها الحياة عبر هذه الأشياء.
 - تبتكر مليكة مقدم لغة خاصة بها مليئة بالغضب والتمرد، التمرد على كل شيء بدءا باللغة التي تعمل على دمجها مع اللغة العربية والدارجة الجزائرية، لتقول إن اللغة ملكية شخصية و إرث استعماري يحق لها أن تزواجه بالعربية التي حرمت منها ، وأنها في الثقافة الفرنسية لا تعترف إلا باللغة ولا تدين إلا لها وتواصل تمردا على مختلف العادات والتقاليد البالية للمجتمع، وتعددها مصدر تعميم للأنتى وحصرها في المهام البيتية التي تخدم الرجل .
- وفي الأخير نقول إن هذا الموضوع يحتمل دراسات شتى ووجهات نظر متعددة لذلك أرجو أن أكون قد وفقت فيما سعيت إليه كما أنصح الدارسين من بعدي الاهتمام بمثل هذه المواضيع وبتلك التي تتعلق بالأدب الجزائري سواء كان مكتوبا باللغة العربية أو بلغات أخرى والله من وراء القصد .

قسنطينة في 28/06/2022

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية نافع عن ورش

الكتاب المقدس: - العهد القديم

- العهد الجديد

الحديث النبوي الشريف: أبي الحسين مسلم، بن الحجاج صحيح مسلم، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2003، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه.

المصادر

اللغة العربية:

1. مقدم (مليكة) المتمردة، ترجمة المزدوي محمد ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2004
2. مقدم (مليكة) رجالي رجالي، ترجمة بيوض نحلة ، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2007
3. مقدم (مليكة) الممنوعة، ترجمة ساري محمد، منشورات الاختلاف، الدار العربية ناشرون، الجزائر، لبنان، ط1، 2008
4. مقدم (مليكة) أدين بكل شيء للنسيان، ترجمة بوطاجين سعيد ، منشورات دار الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012

اللغة الفرنسية:

- 5- Mokeddem (Malika): Les hommes qui marchent, Paris, Grasset, 1990 .
- 6- Mokeddem (Malika): les siècle des sauterelles, ramsay, paris, 1992
- 7- Mokeddem (Malika): l'interdite, éditions grasset et fasquelle, paris, 1993.
- 8- Mokeddem (Malika): La Nuit de la lézarde ,paris, Grasset, 1998,
- 9- Mokeddem (Malika): N'zid. Le Seuil. paris. 2001.

المراجع باللغة العربية

- 10- ابراهيم (عبد الله): السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط1، 2003
- 11- أبو حامد أبو زيد (نصر)، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة، المركز الثقافي العربي، ط3، 2004
- 12- أدونيس: موسيقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة، العنف)، دار الآداب، بيروت، ط1، 2002
- 13- الباردي (محمد): عندما تتكلم الذات (السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005،

- 14- بركات (حليم)، الاغتراب في الثقافة العربية (متاهات الإنسان بين الحلم والواقع)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2006
- 15- بركة(ناصر)، أدبية السير الذاتية في العصر الحديث، رسالة دكتوراه، إشراف محمد منصور، جامعة باتنة، 2013
- 16- البزي(دلال)، الآخر المفارقة الضرورية، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، تحرير الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999.
- 17- بعلي (حفناوي)، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007.
- 18- بكّاي(محمد): جدل النسوية فصول نقدية في إزاحة الدوغماتيات الأبوية، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، دار الأمان، الجزائر، بيروت، الرباط، ط1، 2019
- 19- بن السائح (الأخضر)، سرد المرأة وفعل الكتابة(دراسة نقدية في السرد وآليات البناء)، دار التنوير، الجزائر، 2012،
- 20- بن بوعزيز(وحيد)، جدل الثقافة (مقالات في الآخريّة و الكولونيالية و الديكولونيالية)، دار ميم لنشر، الجزائر، ط1، 2018.
- 21- بن تومي(اليامين) وآخرون: كتاب فلسفة السرد، المنطلقات والمشاريع، مسائل فلسفية، بيروت: لبنان، ط1، 2014
- 22- بن علي(لونيس): إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، ميم لنشر، 2018
- 23- بن مسلم بن قتيبة(أبو محمد بن عبد الله)، الشعر والشعراء، وزارة الثقافة، ج1، 2007،
- 24- بنعبد العالي(عبد السلام): هايدغر ضد هيغل التراث والخلاف، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 2006
- 25- بوعزة(محمد)، سرديات الثقافة (من سياسات الهوية إلى سياسة الاختلاف) منشورات ضفاف بيروت، دار الأمان الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014.
- 26- بولكعبيات(سارة)، هلال (بسمه) وآخرون، المجتمع الجزائري من خلال الكتابات الكولونيالية، مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات، ط1، 2021 .
- 27- التميمي(أمل): السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر:، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 2005.
- 28- حاج يحي(ولاء): الجانب التراثي والتاريخي في سيرة-ظل الغيمة- لحنا ابو حنا، الكلية الأكاديمية، بيت بيرل، 2012.
- 29- الحباشة(صابر)، غواية السرد، قراءات في الرواية العربية من(اللص والكلاب)لنجيب محفوظ إلى (بنات الرياض)لرجاء الصانع.
- 30- حسن فهمي(ماهر)، السيرة تاريخ وفن، ط2، الكويت، دار القلم 1983.
- 31- حمادة (حسين صالح): دراسات في الفلسفة اليونانية، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ج2، .
- 32- حمودة(عبد العزيز): المرايا المقعرة(نحو نظرية نقدية عربية)، عالم المعرفة، مطابع الوطن، الكويت، 2001
- 33- حنفي(حسن)، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، مصر، 2012.

- 34- حيدر (أحمد): إعادة إنتاج الهوية (دراسات فكرية)، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1997.
- 35- الخليل (سمير)، خطاب (طانية): دراسات ثقافية (الجسد الأنثوي، الآخر السرد الثقافي)، دار ضفاف للنشر، الشارقة، بغداد، 2018.
- 36- الداهي (محمد): الحقيقة المتنبسة (قراء في أشكال الكتابة عن الذات)، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2007.
- 37- الرقيق (عبد الوهاب): في السرد، (دراسات تطبيقية) دار محمد علي الحامي، تونس ط1، 1998.
- 38- السعداوي (نوال): قضايا المرأة والفكر والسياسة، مؤسسة هنداوي سي أي سي، 2018.
- 39- سلامة (أمين): الأساطير اليونانية والرومانية، مؤسسة هنداوي، 2021، ن ج،
- 40- سول (محمد رسول): الجسد ذلك المتخيل في السرد الروائي، النايا، دمشق، ط1، 2014.
- 41- شاهين (أسماء): جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2001.
- 42- الشاوش (عبد القادر): الكتابة والوجود: السيرة الذاتية في المغرب، الدار البيضاء، بيروت، أفريقيا الشرق، 2000.
- 43- الشحات (محمد): سرديات المنفى، الرواية العربية بعد سنة 1967، أزمدة للنشر والتوزيع، ط1، 2006.
- 44- عاشور (عمر): البنية السردية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (دط) 2006م.
- 45- عباس العقاد (محمود): أفيون الشعوب، مؤسسة هنداوي للتعليم الثقافي، مصر، 2012،
- 46- عباس (احسان)، فن السيرة، دار الشروق، للنشر والتوزيع، الأردن، عمان ط1، 1996.
- 47- عبد الحليم (أحمد): نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، منشورات الفارابي.
- 48- عبد السلام (سهير)، مفهوم الاغتراب عند هيربرت ماركيز، دار المعرفة الجامعية، د ط، 2003.
- 49- عبد الصبور (صلاح): ديوان صلاح عبد الصبور، دار العودة بيروت، المجلد 3 ط2، 1988.
- 50- عبد الفتاح إمام (إمام): مدخل الى الميتافيزيقا، نضمة مصر للطباعة والنشر، ط1، 2005.
- 51- عبد الفتاح إمام (إمام)، معجم ديانات وأساطير العالم، مكتبة مدبولي لطباعة والنشر، ط1،
- 52- عزام (محمد): شعرية الخطاب الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د ط)، 2006،
- 53- العيد (عبد): السيرة ذاتية الروائية والوظيفة المزدوجة دراسة في ثلاثية حتى مينه، فصول مجلة النقد الأدبي، مج15، ع4، 1997.
- 54- العيد (عبد): تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنوي، دار الفارابي، لبنان، ط3، 2010م.
- 55- عيسى عثمان (إبراهيم)، النظريات المعاصرة في علم الاجتماع، عمان، دار الشروق، ط2، 2008 م
- 56- غالب (حسن): الصراع الاجتماعي في القرآن الكريم، ط1 بيروت دار الهدى للطباعة والنشر، 2002 م
- 57- الغامدي (صالح معيض)، كتابة الذات، المركز الثقافي العربي، ط1، 2012م
- 58- الغدّامي (عبد الله محمد): المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2006م

- 59- الغدّامي (عبد الله محمد): ثقافة الوهم (مقاربات حول المرأة والجسد واللغة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998م.
- 60- فراج (عفيف)، اليهودية بين حضارة الشرق الثقافية وحضارة الغرب السياسية، دار الآداب، بيروت، ط1، 2009 .
- 61- القرشي (رياض) ، النسوية قراءة في الخلفية المعرفية لخطاب المرأة في الغرب، دار حضرموت للدراسات والنشر، ط1، 2008.
- 62- كاظم (نادر): الهوية والسرد، دار الفراشة للنشر والتوزيع ، الكويت، ط 2، 2016م
- 63- الكيلاني (منذر): الاستشراق والاستغراب: اختراع الآخر في الخطاب الأنثروبولوجي، صورة الآخر العربي، ناظرا ومنظورا إليه،
- 64- كيوان (عبد العاطي) ، أدب الجسد بين الفن والإسفاف، دراسة في السرد النسائي، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط1، 2003م.
- 65- لعرج (واسيني): اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986..
- 66- لمسيرري (عبد الوهاب) ، نيتشه فيلسوف العلمانية، ضمن كتاب، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، تحرير أحمد عبد الحليم عطية، منشورات الفارابي بيروت، ط1، 2010
- 67- لوكام (سليمة): لآخر في الثقافة والأدب حضور واستحضار، دار سحر للنشر، تونس، 2017.
- 68- محمد العمري (محمد): البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، المغرب، إفريقيا الشرق، ط2، 2012
- 69- مختار عبد الحميد (عمر أحمد): معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق عمل، دار عالم الكتب، القاهرة ، مصر، ط1، 2003
- 70- مستغامي (أحلام) ، فوضى الحواس، منشورات أحلام مستغامي - لبنان، ط2، 2003م،
- 71- المسكيني (فتححي) : الهوية والزمان، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ، ط1، 2001.
- 72- المسيرري (عبد الوهاب) ، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الجزء 8 مادة يهودية، دار الشروق القاهرة ، 1999
- 73- المعلوف (أمين): الهوية القاتلة (قراءات في الانتماء والعولمة) ، نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1999
- 74- مناصرة (عز الدين) ، علمالتناص المقارن: نحو منهج عنكبوتي تفاعلي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006 .
- 75- منور (أحمد) ، الجزائر في كتابات الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر، دار التنوير، الجزائر .
- 76- مهيبيل (عمر) : البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون الجزائر، 1993.
- 77- ناصف (نصار)، باب الحرية، انبثاق الوجود بالفعل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003
- 78- نايل (حسام): دروس التفكيك (الإنسان و العدمية في الأدب المعاصر)، التنوير للطبع والنشر والتوزيع، لبنان، ط1 2014.
- 79- نجمي (حسن) ، شعرية الفضاء السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ، ط1، 2000.

- 80- ولد خليفة (محمد العربي) : المسألة الثقافية(وقضايا اللسان والهوية).ديوان المطبوعات الجامعية، منشورات ثالة، الجزائر، 2003.
- 81- يقطين(سعيد): قال الراوي "البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1 1997م.
- 82- يوسف (أحمد): علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب، منشورات الاختلاف،الجزائر، ط1، 2013
- المراجع المترجمة**
- 83- أرمسترونغ(كارين): النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، تر: محمد الجوار، دمشق، دار الكلمة، ط1، 2005
- 84- أدونيس: الهوية غير المكتملة(الإبداع الدين، والجنس)ترجمة حسن عودة، بدايات لطباعة والنشر، سورية حلب، ط1، 2005
- 85- ألس واتكنز (سوزان) ، وآخرون: الحركة النسوية، تر : جمال الجزيري ، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2005 م .
- 86- باختين(ميخائيل) ، الخطاب الروائي ترجمة محمد برادة ،دت ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، باريس.ط1،
- 87- باختين(ميخائيل) ، شعرية دوستوفسكي ،تر: جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، ط1، 1986
- 88- بارت (رولان): الكتابة في الدرجة الصفر، ترجمة: محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002.
- 89- بارت (رولان): هسهسة اللغة ،ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري حلب، ط1، 1999،
- 90- باشلار (غاستون): جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 1984
- 91- بروكمي ر(جينز) ، كريبو(دونال):السرد والهوية (دراسات في السيرة الذاتية أو الذات والثقافة)، تر:عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي لترجمة، القاهرة، ط1، 2015
- 92- بول سارتر(جان) ، الأبواب المقفلة، ترجمة هاشم الحسيني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ،
- 93- بول سارتر،(جان): عارنا في الجزائر، بدون مترجم ،الدار القومية للطباعة والنشر، شارع عبيد، مصر
- 94- بولدك (كريس) ، النقد والنظرية الأدبية ،ترجمة خميسي بوغراة، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات جامعة قسنطينة دار الهدى، الجزائر.
- 95- بيتور(ميشال): الرواية الجديدة، ترجمة أنطونيوس فريد، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط3، 1986
- 96- بيثلر(جوديث): الذات تصف نفسها ،ترجمة فلاح رحيم ،التنوير للطباعة والنشر، ط1 لبنان، بيروت ، 2014
- 97- بيير (بورديو): السيطرة الذكورية ،ترجمة أحمد حسان، دار العالم الثالث، 2001.
- 98- تودوروف (تسقتيان): ميخائيل باختين: المبدأ الحواري، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية، للدراسات والنشر، ط2، عمان، 1996.

- 99- جانبل(سارة) ، النسوية وما بعد النسوية،(دراسات ومعجم نقدي) ،ترجمة: أحمد الشامي، المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة،ط1، 2002
- 100- جيرتر(كليفورد) ، تأويل الثقافات، ترجمة، محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة ،لبنان ،ط1، 2009 .
- 101- حداد(مالك) ، الأصفار تدور في فراغ، تر: أحمد منور، دار الألفية الجزائر، ط01، 2012م
- 102- دروري(شادي) ، خفايا ما بعد الحدائة، تر: موسى الحالول، دار الحوار،سوريا،ط1، 2006م
- 103- دريدا (جاك): أحادية الآخر اللغوية أو في الترميم الآخر ،ترجمة: عمر مهيبيل، منشورات الاختلاف،ط1،الجزائر،2008 .
- 104- دوبار(كلود): ازمة الهويات (تفسير ،تحول) ،ترجمة: رندة بعث ،المكتبة الشرقية،ط1، لبنان،2008
- 105- دولوز (جيل)، المعرفة والسلطة (مدخل لقراءة فوكو)،تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي بيروت والدار البيضاء ،ط1، 1987..
- 106- ديكرت(إيمانويل): تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى ، ترجمة: كمال الحاج يوسف، تونس سراسر لنشر،2009
- 107- ريكور(بول) ومجموعة من الكتاب ،الوجود والزمان والسرد (فلسفة بول ريكور)،ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي ،المغرب ط1، 1999 .
- 108- ريكور(بول):الذات عينها كآخر، ترجمة :جورج زيناتي ،المنظمة العربية للترجمة ،ط1بيروت ،2005
- 109- ريكور(بول) ، الزمان والسرد(الحبكة والسرد والتاريخ)،ترجمة سعيد الغانمي وفلاح رحيم،ج1،دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1 ، 2006
- 110- ريلكه (راينير ماريا) ، وليمة العائلة ،ترجمة حسين الموازي، منشورات الجمل،المانيا،1998.
- 111- سعيد (إدوارد) ،الثقافة والامبريالية، تر: كمال ابو ديب ،دار الأدب بيروت ،ط03، 2004
- 112- سيرنجي(فليب) ، الرموز في الفن-والأديان والحياة، تر: عبد الهادي عباس، داردمشق، ط 1، 1992
- 113- شورون (جاك): الموت في الفكر الغربي ،ترجمة، كامل يوسف حسين مراجعة ،إمام عبد الفتاح امام سلسلة عالم المعرفة ،عدد 86أبريل.1980
- 114- غرانغيوم(جليبر): اللغة والسلطة والمجتمع العربي، تر: محمد السليم، الفارابي للنشر، ط1، المغرب، 1995 .
- 115- فانون(فرونس) ، معذبو الأرض ،تر: سامي الدروبي، جمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، مصر،ط2،يناير 2015.
- 116- فوكو(مشال) ، الانهمام بالذات (حماية الوجود وجرأة قول الحقيقة)،ترجمة محمد زويطة ،دار النشر إفريقيا الشرق،المغرب،2015
- 117- فانهوزر(كيفن) وآخرون ،الوجود والزمان والسرد (فلسفة بول ريكور)،ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي ،المغرب ط1، 1999

- 118- كريستيفا(جوليا): علم النصّ، ترجمة: فريد الزاهي، منشورات توبقال، المحمدية المغرب، 1991.
- 119- كوت(ديفد): فرانس فانون(سيرة فكرية)، ترجمة عدنان كيالي، مدارات للأبحاث والنشر، ط1، 2018.
- 120- لاكان (جاك): وإغواء التحليل النفسي، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، المجلس الأعلى للثقافة، 1999.
- 121- لوجان(فليب) ، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقدم عمر حلي، بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1994.
- 122- ليسير(ويندي) وآخرون: عبقرية اللغة، ترجمة: حمد شمري، دار أثر للنشر، ط1، 2019.
- 123- ماي(جورج): السيرة الذاتية، تر: محمد القاضي، عبد الله صولة، بيت الحكمة، قرطاج، 1992.
- 124- ميشال أدم (جون): السرد، تر: أحمد الورداني، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2015.
- 125- نوريس (كريستوفر): نظرية لا نقدية ما بعد الحداثة، المثقفون وحرب الخليج، تر عابد إسماعيل، دار الكنوز الأدبية بيروت، ط01، 1999،
- 126- نيتشه(فريدريك) ، أفول الأصنام، تر: حسان بورقية ومحمد الناجي، دار أفريقيا الشرق، بيروت، ط1، 1996،
- 127- هارت (وليام) ، إدوارد سعيد والمؤثرات الدينية الثقافية، تر: قصي أنور الزبيان، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ط1، 2011،
- 128- هايدغر(مارتن) ، الفلسفة الهوية والذات، ترجمة محمد مزبان، مراجعة محمد سبيلا، كلمة للنشر والتوزيع، ط12، 1، نخج بيروت، تونس، 2015.
- 129- هنتغتون(صامويل): صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعة الشباب، سطور ط2، 1999،
- 130- وفوك (فوستر): ثلاث قرون من الأدب، ترجمة يوسف الخال وآخرون، دار مكتبة الحياة، بغداد ط1، دت، ج1.
- 131- ولف(فرجينيا): غرفة تخص المرء وحده، تر: سميه رمضان، مكتبة مدبولي، ط1، 2009.
- 132- الياذ(ميريسيا): المقدس والمدنس، ترجمة: عبد الهادي عباس، ط1، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، سورية 1988 .
- 133- يانج(روبرت) ، أساطير بيضاء(كتاب التاريخ والغرب)، تر: أحمد محمود، المشروع القومي للترجمة القاهرة، ط1، 2003م
- 134- يوربيدس، ميديا، ترجمة، كمال ممدوح حمدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984.

 المراجع باللغة الأجنبية:

135- Baugnet (Lucy) , l'identité sociale, dunod, 1998.

- 136- Benaouda (LEBDAI), Nina Bouraoui ou l'écriture iconoclaste, CRASC, Oran Alger, 2010.
- 137- Evans(Jane Elizabeth) :tactical silence in the novels of malikamokeddem, Rodopi, 2010
- 138- Kristiva (Julia) : the KristivaReader.edited by :toril moiBlackwell,oxford ,uk& Cambridge USA,1986.
- 139- Rendell,(Jane).: 'Gender, Space'." Gender Space Architecture: An Interdisciplinary Introduction. Ed. Jane Rendell, Barbara Penner, and Iain Borden. New York: Routledge, 2003.
- 140- Touraine(Alain) : pour la sociologie, paris, éd. du seuil,1974.
- 141- yolandealine(helm):malikamookaddem Enver et conter tout. L'Hannattan,2000.

المعاجم والموسوعات:

- 142- ابن الجني(أبي الفتح عثمان): الخصائص 2/415، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب ، بيروت، 1975
- 143- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (1979م): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ج 4 مادة غرب
- 144- ابن منظور: لسان العرب ،تحقيق عبد الله لكبير وآخرين، دار المعارف،القاهرة، 1979
- 145- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي المصري الأفريقي (1414هـ) : لسان العرب، دار صادر، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ج 1.
- 146- ابن منظور، لسان العرب مادة (ز.م.ن) تنسيق علي سيدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي،
- 147- بن بحر(أبي عثمان عمرو) الجاحظ: المحاسن والأضداد، مكتبة الخناجي، القاهرة، ط1، 1324هـ.
- 148- بن حماد (اسماعيل) الجوهري الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1990
- 149- الجرجاني(علي بن محمد): التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1988 .
- 150- جمال الدين(ابو الفضل) بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مج4، دار صابر، بيروت، ط1،
- 151- الجوزية(ابن قيم)، محمد بن أبي بكر بن أيوب (1996م) : مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان الطبعة الثالثة، ج: 3.
- 152- زيتوني(لطيف)، معجم مصطلحات نقد الرواية (عربي. إنجليزي. فرنسي)، دار النهار للنشر، بيروت لبنان، ط1، 2002.
- 153- الفيروز (ابادي): القاموس المحيط، دار الكتب العلمية: بيروت ،لبنان ،(د ت)من مادة سرد
- 154- لالاند(أندريه)، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات بيروت-باريس، ط2، 2001،

- 155- Larousse, dictionnaire de français: plus de 60000 mots, définitions et exemples, Maury-Eurolivres a Manchecourt, France, avril 2003.

المجلات والدوريات

- 156- مجلة أبوليوس، العدد 8، جانفي 2018.
 157- مؤمنون بلا حدود لدراسات والأبحاث 2016، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية 05 افريل 2016.
 158- دراسات سيمائية أدبية لسانية، فاس، المغرب، العدد 5، حريف/شتاء 1991 .

المجلات والدوريات باللغة الفرنسية:

- 159- synergies chili n°12-2016 .
 160- Thélème. Revista Complutense de Estudios Franceses, 2004, n19.
 161- Xpressions. n2. Juillet 2016.
 162- Al' adab wa l lughat, lettres et langues, v5.n5.
 163- Synergies Algérie n°1
 164- revue Itinéraires et contacts de cultures, Paris, L'Harmattan et Université Paris 13, n° 27, 1 semestre 1999.

الملتقيات الوطنية والدولية

- 165- بودريالة (الطيب) ، من السيرة الذاتية إلى السيرة الروائية، كتاب الملتقى الدولي الرابع عبد الحميد بن هدوقة، مديرية الثقافة، برج بوعرييج، ط1، 2001،
 166- بن عباس(نسيمة) ، "السيرة الذاتية النسوية فاطمة منصور عمروش - ملتقى دولي الكتابة النسوية، التلقي، الخطاب والتمثلات، منشورات CRASC، 2010.

رسائل وأطروحات الدكتوراه:

- 167- BOULAHBAL (Karim), Identité imaginaire entre origines et exil dans "je ne parle pas la langue de mon père chez Leila Sebbar", Mémoire de magister, sous la directtion du Dr. Logbi Farida, Université Mentour Constantine. 2008
 168- baiche(Faiza): les techniques de roman chez Malika Mokeddem, Thèse de doctorat ès sciences, université les frères, constantine, alger

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات:

مقدمة:	Erreur ! Signet non défini.
فصل تمهيدي: صراع الهوية في الكتابة النسائية	11
1- الهوية وتحليات الذات :	13
2- مكونات الهوية:	21
3- الكتابة السردية النسوية وفعل الكينونة:	35
الفصل الأول: الهوية السردية لكتابات مليكة مقدم	Erreur ! Signet non défini.
تمهيد:	Erreur ! Signet non défini.
أولاً: السيرة الذاتية وتكشف الذات عند مليكة مقدم:	49
1. إشكالية التحنيس	52
2. دوافع كتابة السيرة الذاتية:	54
3. رحلة سرد الذات النسوية في الجزائر:	58
4. أشكال التعبير الروائي عند (مقدم) :	60
ثانيا الحفريات في الذات عند مقدم:	73
1- السفر والعبور:	74
2- صوت الموت:	76
3- المشي:	78
4- الأم:	81
5- العودة:	83
ثالثا تجليات المكان والزمان وتشكلاتهما في روايات مليكة مقدم:	85
1) تجليات المكان:	85
2) تجليات الزمان:	95

103	رابعاً: تعدد الهويات في كتابات مليكة مقدم:
103	1- التعدد الهوياتي في الرواية (قرن الجراد) : (Les siècles des sauterelle)
106	2- التعددية الهوياتية في رواية (الممنوعة): (l'interdite)
107	3- التعدد الهوياتي في رواية (المتمردة): (La transe des insoumis)
111	4- التعدد الهوياتي في رواية (رجالي): (mes hommes)
113	5- التعدد الهوياتي في رواية (نزيد) (n'zid):
117	خامساً: الآخر في كتابات مليكة مقدم:
119	1- صورة الآخر الجزائري:
123	2- صورة الآخر الأوروبي:
129	خلاصة الفصل:
131	الفصل الثاني: الهوية اللغوية وتجلياتها عند مليكة مقدم
	Erreur ! Signet non défini. تمهيد
132	أولاً: تجليات الإغتراب في كتابات مليكة مقدم:
133	1- الاغتراب لغة:
133	2- الاغتراب اصطلاحاً:
135	3- الاغتراب عند مليكة مقدم:
138	1/3 الاغتراب و اللغة:
140	1/3 الاغتراب و الدين:
144	ثانياً: سلطة اللغة وهيمنة الانتماء
147	1- اللغة والسلطة والتاريخ:
151	2- علامات اللغة الأم في كتابات مليكة مقدم:
155	3- اللغة وتشكل المعنى:
159	ثالثاً: التهجين اللغوي والثقافي في كتابات مليكة مقدم

160	ازدواجية اللغة عند مليكة مقدم:	1-
161	تمجين الأجناس الأدبية:	2-
162	التهجين الثقافي عند مليكة مقدم:	3-
163	التهجين اللغوي:	4-
174	رابعاً: التناص والنصية في كتابات مقدم	
174	L'intertextualité التناص	1-
184	التعلق من خلال الفن:	2-
192	خامساً: اللغة والجسد في كتابات مليكة مقدم	
199	البحر كجسد:	1-
200	جسدية الصحراء:	2-
202	المدينة كجسد:	3-
202	جسدية السرير:	4-
206	خلاصة الفصل:	
208	الفصل الثالث: الشائيات الكونية في خطاب الهوية بين المقدس والمدنس	
208	تمهيد	
210	أولاً: ثنائية الدين والإلحاد في كتابات مليكة مقدم	
210	العدمية في كتابات مليكة مقدم:	1-
213	الدين والمجتمع في كتابات مقدم:	2-
222	تدنيس فرائض الإسلام في كتاباتها:	3-
225	ثانياً: ثنائية المرأة والرجل في كتابات مليكة مقدم	
228	المرأة والمجتمع الذكوري في كتابات مقدم:	1-
234	الرجال في مجتمع ذكوري:	2-
238	ثالثاً: ثنائية المركز والهامش في كتابات مليكة مقدم	

241	1-	المرأة بين الهامش والمركز في الخطاب الكولونيالي:
244	2-	المركزية وتهميش أصحاب الأرض والأقليات:
247	3-	مقابلة المركز مع الهامش خارج الاستعمار القديم:
254	رابعا:	ثنائية الأصالة والمعاصرة في كتابات مليكة مقدم
256	1-	الأصالة في كتابات مليكة مقدم:
259	2-	المعاصرة في كتابات مليكة مقدم:
266	خامسا:	ثنائية الحرية والهيمنة في كتابات مليكة مقدم
270	1-	التحرر من الهوية وهيمنة الانتماء:
274	2-	الحرية كإرادة مطلقة:
278		خلاصة الفصل:
280		الخاتمة
		قائمة المصادر والمراجع:
		Erreur ! Signet non défini.

الملخص

الملخص:

تحاول مليكة مقدم خلق عالم خاص بها ، تعوض من خلاله شعورها الدائم بالقلق وعدم الانتماء إلى مكان ما، فتكون الكتابة عاملها الحقيقي، والوحيد، وذلك راجعا أساسا إلى شعورها بالاغتراب سواء كان ذلك داخل الوطن الأم لاختلافها عن أقرانها من النساء، وإحساسها بالظلم لكونها امرأة في مجتمع رجالي، و كذلك خارج الوطن، لرفضها لهذه الأم البديلة التي لا تقل تحيزا عن سابقتها ، هذا ما جعلها تستخدم لغة خاصة بها، تتمرد من خلالها على مختلف العادات والتقاليد والقيم الأخلاقية للمجتمع الذي جاءت منه، بل تتجاوز ذلك إلى استهجان، كل ما هو صحراوي لتحاول تقويض السلطة الذكورية، من خلال محاولة أخذ زمام هذه السلطة، و إبراز عدم فعاليتها، وتتجاوز ذلك إلى تحدي الذات الإلهية واعتبارها مصدرا لسلطة الرجل، أين تحاول مليكة مقدم اعتماد تعدد الهويات، كبديل عن الهوية الواحدة وذلك لشعورها الدائم بالقلق وعدم الانتماء، لذلك تلجأ إلى تهجين اللغة، الأجناس الأدبية، والفنون المختلفة و الثقافات وكذلك الأشخاص، لتكون الهجنة بديلا عن الانتماء ، والهوية الواحدة.

الكلمات المفتاحية:

السلطة - التاريخ - السرد - المرأة - الصراع - الذات - الآخر

Abstract:

Malika Mokeddem tries to create a world of her own, through which she overcompensates her constant anxiety and lack of belonging to somewhere. Writing is her real and only world, mainly because she feels alienated within the motherland because she differs from her female peers.

Her sense of injustice of being a woman in a male society and abroad for rejecting this surrogate mother, who is no less biased than her predecessor to a particular sex, has made her use of her own language, rebelling through it against the various customs, traditions and moral values of the society from which she came, Rather, she goes beyond that to denouncing everything that is desert To try to undermine man's power, by trying to take over this power, after it stands out for its ineffectiveness, going beyond the challenge of the divine self and considering it the source of inequality between women and men

Where Malika tries to adopt multiple identities, as an alternative to a single identity because of her constant anxiety and lack of belonging, Therefore, she resorts to the hybridization of language, literary genres, different arts and cultures, as well as people, so that hybrid be as an alternative to belonging, and one identity.

Key words: Power – History – Narration – Women – Conflict – Self –

Other